ملاك جهنمي

رواية

وائل رداد

سما
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

وائل رداد
ملاك جهنمي





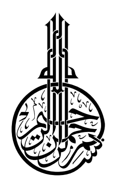
رواية



وائل رداد







العنـــوان: مـلاك جهنمـي

المــؤلـف: وائـــــــل رداد

إشراف عام: نجلاء قاســـم

الناشــر



15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيــع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف



إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-781-000-0
رقم الإيداع: 2015/0000
الطبعة الأولى: مايو 2015


ساحر الكتب


ملاك
جهنمي





إهـــداء

إلى «N».

وائـــل رداد





«لدي شياطين،

لا تستطيع حتى أنت أن تتخيلها»!

المخرج دافيد فينشر





اليــــوم الأخــيــــر





يوم من أيام الخريف

كانـت أمًـا صغيرة السـن، حديثـة العهـد بالأمومة، وقـد أنهكتها الولادة بشدة، لكنها تخطتها بنجاح..

تمددت على سـريرها في المستشـفى مغمضـة العينين وإن كانت غير نائمة، ثم تنبهت لصوت باب حجرتها يفتح برفق، ففتحت عينيها لتبصـر ممرضة ممتلئـة تدخل، وبيـن ذراعيها يرقد وليدهـا نائما في دعة..

- «مبارك، رزقتِ بصبي سليم وجميل!».

قالتها المرأة وهي تناول المولود بحرص لوالدته مبتسـمة ابتسامة مجاملة..

- «ماذا قررتِ تسميته؟».

لكن الفتاة بدت في حال لا تسـمح لها بذلك الصفاء في الذهن.. كانـت مضطربـة ومذعورة لأقصى حد، فعـزت الممرضة ذلك لعدم حضور زوج الفتاة ولادة ابنه، أو حضور أهلها ليكونوا بجوارها..

قالت ويدها تشد على ذراع الممرضة ودموعها تهطل من مقلتيها:

- أناشدكِ مساعدتي في هذه المحنة، إنني معذبة حتى النخاع!

بدا عدم الفهم على وجه المرأة، فتساءلت محتارة:

- أتعانين من ألم ما؟

- يا ليت! بل يا ليتني هلكت قبل ولادة هذا الطفل التعس!

وهنا شعرت الممرضة أنها قد فهمت..

انفجرت الفتاة باكية، فأرجحت الممرضة رأسها بتفهم.. جلست على طرف السرير، ثم وضعت كفها على كتف الفتاة قائلة لها بترفق:

- لقد أخطأتِ بنيتي..

- قال أنه سيتزوجني! قال بأن السعادة ستكون طائرا يرفرف في حياتنا دوما!

- قال وقال! فهو لا يملك في جعبته سوى الكلام، ورغبة حيوان نهم أراد إشباعها معكِ دونما قيود أو مسؤوليات!

هل يوجد من أهلك من هو جدير بإخباره مثل هذا الأمر دون أن يجن جنونه؟

- كله إلا هذا! سيقتلون هذا الطفل قبل تمزيقي إربا!

فكرت الممرضة قليلا قبل تفتق ذهنها عن فكرة رائعة:

- نامي الآن فأنتِ مُجهدة، وحين تستيقظين سنجد بإذن الله حلا!

وخرجت تاركة الفتاة تتأمل وليدها، والوساوس تلاحقها حول ما سيفعله أهلها عندما تبلغهم الفاجعة..

وضعت الطفل على السرير، ثم نهضت مترنحة إلى النافذة ففتحتها.. منذ مدة لم تمسس بشرتها أشعة الشمس ولم تر الخلق..

جلست على كرسي قبالة النافذة، وأخذت تتأمل الحياة المستمرة رغم كل المصائب المتوالية.. ثمة سكينة غريبة غشيتها وهي ترمق الحركة الدائرة، فهدأت نوعا..

بدت وكأنها ستبقى هكذا للأبد، لكنها نهضت فجأة، وأطلت برأسها عبر النافذة، ودققت النظر لأسفل كما لو كانت تقدر المسافة التي سيقطعها جسم ما قبل بلوغه الأرض!

تريد الانتحار؟ كان ذلك أفضل بكثير مما قررت القيام به.. فقد حملت وليدها، واستعدت لقذفه من النافذة كما لو كان مجرد قشرة موزة فرغت من أكلها!

لحظة وهن استوقفتها عندما وقع بصرها على وجه الطفل الملائكي النائم بدعة، فكادت - للحظات- أن تحجم، إلا أن شيطانها كان بارعا كبقية أقرانه..

لم تنظر ما حلَّ به، بل شرعت من فورها بتبديل ثيابها وجسدها يرتعد بأكمله، ثم خرجت من حجرتها متهالكة.. توقفت للحظة استندت خلالها للجدار قبيل تقيؤها بعنف.. مسحت آثار القيء من على فمها بكفها، وواصلت السير والإعياء يمزقها..

وسرعان ما تمكنت من الخروج إلى الهواء الطلق.. أخيرا بإمكانها تنفس هواء نقي غير مشبع بالمطهرات..

رأت تجمهرا حول البقعة حيث رمت طفلها، فخفق قلبها بعنف وهي تواصل السير حتى غادرت المستشفى..

أما الناس الذين وجدوا الطفل، فلقد حملوه مسرعين إلى داخل المستشفى وهم يتصايحون..

- «رباه! إنه ينزف بغزارة!»..

- «لكنه حي رغم ذلك.. حمدا لله!»..



1

قال (ملاك) وأنامله الخشنة ذات الأظافر المسودة تتلمس قضبان الزنزانة الصدئة بترفق:

- هل حلمت يوما يا (جرير)؟

- أنا..

- هل تفكرت ذات مرة بمشاعر محكوم عليه بالإعدام؟

هل ترى كوابيس أثناء النوم؟

هل تخاف النوم لأنك قد لا تستيقظ أبدا؟

- أنا.. مصاب بالانزومنيا!

- آه! هذا محزن!

قالها آخـذا بالابتعاد عن القضبان أخيـرا، فارتخت أنامل (جرير) علـى مقبض مسدسـه، وارتخـت أعصابه أيضًا، كذلك جلسـته على المقعد المواجه للزنزانة..

■ ■ ■



اليوم هو آخر يوم في حياة (ملاك)، السفاح الأكثر ضراوة ودموية في عالمنا الحالي!

لا زالت «ماشيتات» الصحف تُذكر الناس وبالأخص ما تبقى من أهالي الضحايا التعساء ببداية كل شيء، الجرائم الجنونية، والرسائل الدموية المبهمة، مرورا بتحقيقات الشرطة المحمومة، ووصولا للحظة المنتظرة..

لقد التقط صحفي اشتهر بحنكته وتحليلاته المنطقية الشبيهة بتحليلات الأطباء النفسانيين خيط الجرائم الدموية، فكان أول من أطلق لقب «أخطر سفاح على وجه الأرض» على مرتكبها، متأثرا بحكايات (بندي) و(دامَر) و(زودياك)، وحتى أسطورة جاك السفاح الممزق الأشهر..

لربما أراد شهرة كالتي حققها رسام الكاريكاتير الذي ألف كتابه الشهير عن جرائم (زودياك)، لكنه – الصحفي المحنك- دفع الثمن لاحقا، عندما وُجد مقتولا هو الآخر في دار «الخلود» للمسنين، وبذات نمط السفاح الذي حاول إماطة اللثام عن بعض مما يكتنف غموضه!

لماذا ارتحل ذلك الصحفي إلى هناك وعاش كنزيل رغم أنه في أوائل الثلاثينات من عمره؟ ماذا عن تحقيقاته التي كان ينشرها تحت مسمى حرف (ع) الوحيد؟

أكان الخوف؟ أم كان شيئا آخر أكثر خطورة وضراوة؟

والحق يقال أن قضية (ع) قد تحولت هي الأخرى إلى غموض لم ينجح أحد من جهاز الشرطة أو الصحافة في فك طلاسمه..

يقول وزير الداخلية بوجه مكفهر أمام حشد الميكروفونات الملونة أمامه على المنصة:

- لقد.. أوقعنا به أخيرا!

لا تصفيق ولا تهليل من أي نوع كان، فالكل غير مصدق..

وسرعان ما ارتفعت اتهامات هائجة بالكذب، إنكار هستيري من الجميع وخصوصا من قبل الصحافة، الأمر الذي استدعى قوات مكافحة الشغب لكبح جماح ذاك الحشد الغاضب!

كيف أوقعوا بشبح؟ كيف تأتى لهم الإمساك به أصلا؟ لو أن لدينا شعبة CSI المختصة بالتحقيق في جرائم القتل لما تمكنوا منه، فكيف بجهاز شرطتنا الضعيف؟

ثم بدأت الصحافة تراقب مركز الشرطة برجالها وعدسات كاميراتها حتى يئست، الكل متكتم، الكل خائف، الكل متوتر، والأغرب أن الكل لا يملك فكرة عما يحدث..

بعض رجال الشرطة ممن ينالون الإكراميات التي يكرهون أن يطلقوا عليها اسم «رشاوي» من الصحافة كي يبوحوا بمكنوناتهم، لم يفيدوهم بشيء هذه المرة، سوى أن ثمة تعتيم على القضية المظلمة بأسرها، وبأن مدير الإدارة العامة ووزير الداخلية هما الوحيدان



اللـذان على علم بكل التفاصيل المعدة سـلفا، وقد اسـتعانا بعناصر مـن الجيش كي يكونوا على أهبة الاسـتعداد.. لأي شـيء بالضبط؟ وحده الله يعلم!

ثـم بدأت الصحافـة بتحرير عناويـن مثيرة للجدل، عن الشـيطان الـذي «يبـدو» وأنـه قـد وقع أخيـرا بمصيـدة بارعـة، لكنه سـيحظى بمحاكمـة سـرية بعيدا عـن أعين الصحافـة والملأ، وتحت حراسـة الجيش في ملجأ سري تحت الأرض!



2

وضع السجين الوسيم فاحم الشعر زبرجدي العينين عقب السيجارة الضئيل على طرف المنفضة البلورية الموضوعة قبالته بكلتا يديه، فالأخرى متصلة بالأولى عبر قيد فولاذي يكبلهما بإحكام، في حين ضغط المحقق بإصبعيه السبابة والوسطى على خده الأيمن، وهو يدفع بظهره للوراء ببطء، حتى استرخى في جلسته على المقعد الدوار..

نظر السجين إلى اللوح الزجاجي العاكس، ثم هرش أنفه قائلا وهو يشد بعض شعيراته شدا طفيفا كأنما يتسلى:

- هل لي ببعض القهوة؟

- سنطلبها لك..

- ماذا عن سيجارة أخرى؟

أخرج المحقق علبة سجائره، وقام بدس واحدة بين شفتي السجين، ثم أشعلها له بقداحته قائلا بتجهم:



- هل أنت راضٍ؟

- تمام الرضا!

- عظيم، لنعد الآن إلى ليلة الخميس، في السادس عشر من شهر إبريل..

أتذكر ما وقع بالضبط؟

■ ■ ■

في تلك الليلة الماطرة داخل المقبرة ووسط رجاله، شعر المقدم بأن الجريمة الواقعة هنا غير طبيعية..

ثم لم يلبث أن فهم الأمر، إنها جريمة أخرى تحمل توقيع ذاك الوغد!

كان حارس المقبرة يتعوذ تاركا رجال الشرطة ينبشون ذلك القبر، فالمنظر كان مريعا..

التفت المقدم إلى الحارس الكهل، وسأله:

- هلا أعدت لنا كيفية اكتشافك الجثة؟

أجاب الكهل المسكين محاولا السيطرة على نفسه:

- كنت أقوم بجولتي المعتادة يا سيدي، ثم لمحت هذا الشاهد وكتابة تكسوه، لم أستطع تبينها لضعف نظري الشديد.. ثم إنني أمّي!

بعدها شاهدت اليد يا سيدي، كانت خارج التراب - قل أعوذ برب الفلق!- فسارعت بإخباركم!

كان الرجال يحفرون من حول اليد التي بدا منظرها خارج التراب رهيبا، في حين نظر المقدم للشاهد الحجري..

أحبيك !

كانت تلك التحية مدونة بالدم، وقد قال أحد عناصر الشرطة وهو يحدق كالمشدوه:

- هذا توقيعه حتما!

سعل المقدم وهو يشعل سيجارته بصعوبة تحت وابل المطر المنهمر بغزارة، مراقبا رجاله الذين فرغوا من الحفر أخيرا، قبيل صياح أحدهم:

- سيادة المقدم!

أسرع المقدم لينظر داخل الحفرة، فشاهد جثة بيضاء شبه مزرقة لفتى صغير السن!

صمت الرجال كأن على رؤوسهم الطير، وظلوا يراقبون اليد الممتدة خارجا، والتي ترتفع عاليا كأن صاحبها يحاول التشبث بشيء كي لا يغرق!

- «وصل الطبيب..».

تلفت المقدم إلى الرجل الأصلع القادم لتوه، وسأله:



– أهلا يا دكتور، يبدو وأن ليلتك ستكون عصيبة..

تبسم الرجل في إنهاك، ثم ابتدأ عمله في تفحص الجثة، واستغرقه ذلك مدة من الزمن، قبل أن يعتدل قائلا بعدما كوَّن رأيا:

– مات مختنقا، كما أن أوردته مفرغة تماما من الدماء!

– أنت تمزح!

– لا مزاح! سأمضي الآن كي أسهر على تشريح الجثة..

تأمل المقدم وجه الفتى المليح واجما، قبل قيام رجاله بوضع جثته في كيس وإقفاله تمهيدا لنقله إلى سيارة الإسعاف..

كان يُسائل ذهنه: لِمَ نتعلم من الحيوانات شراستها فحسب؟

حتى شراسة الحيوانات مبررة، فهي إما للاقتتات أو لحماية صغارها..

صار اليوم الذي يمضي دون ارتكاب جريمة يوم مخلد.. ماذا يتوقع الناس من الشرطة الآن؟ أن تفعل الصواب وتبادر إلى إلقاء القبض على القاتل المجنون؟ عدالة الماضي على شفير الانقراض، سنوات مضت من العمر وهو يحاول إشعار الناس بالأمان دون فائدة ترجى..

همهم بضيق وهو يمس طرف قبعته الغارقة بمياه المطر مراقبا ابتعاد رجال الإسعاف بالجثة:

– أرجو أن نتمكن قريبا من الانتقام لك يا بني!



تناهى لمسمعه صوت صراخ مباغت:

- أنت.. لا تتحرك!!

خفَّ إلى حيث اندلعت صرخة أحد رجاله، وقد أشار بضوء كشافه إلى نقطة معينة، فما إن تبينها حتى انتزع مسدسه من جرابه انتزاعا، وصوبه بحنكة وهو يصيح بصوت مزج ما بين الصرامة والذعر:

- قف مكانك!!

■ ■ ■

قال المحقق دون أن يبدِّل شيئا من وضعيته الرخامية:

- كنتَ مختبئاً في مسرح الجريمة، ثيابك كانت ملوثة بدم الضحية..

سمعه يهمس:

- لم أكن مختبئا..

- حقا؟

- بكل تأكيد..

- أردتَ تسليم نفسك إذن؟

صمت السجين، فقال المحقق:

- حسن.. لماذا قدمت نفسك لنا على طبق من فضة؟ هل أنت نادم أخيرا على ما اقترفته يداك؟

حدَّق السجين بآلة التسجيل الموضوعة على المائدة بخواء، ورفع يده كي يهرش شعر رأسه الطويل، فلحقتها الأخرى المكبلة، في حين ظلَّ المحقق على وضعيته الباردة منتظرا سماع ما سيقوله..

- «أتعلم متى بدأت القصة؟».

أرجح المحقق بيده في إشارة لامبالية، فابتسم السجين ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه المتراصة بترتيب منسق في فمه..

حكَّ خده مليئة الأشواك ببطء مسترسلا:

- أظنها بدأت منذ حوالي.. لا أستطيع التذكر! لا يهم.. كان حينها ذلك الزوج المأفون وزوجته التعسة يعيشان في شقة، لا أذكر رقمها بالضبط، أذكر فقط أنها تتضمن الرقم 4 ولربما الرقم 6.. كانا منغلقين لحد أثار شكوك الجيران، فارتابوا في كونهما زوجين، ولربما كان هذا ما يخفيانه..

ثم انتحر الزوج! شنق نفسه بالملاءة التي أخذها لينام في غرفة الجلوس بعيدا عن زوجته عقب مشاجرة حامية بينهما، قالوا أنه كان يعاني من ضائقة مالية، لكن السبب الحقيقي أنه علم بحمل زوجته..

لماذا لم يفرح؟ هل شك أن امرأته تخونه؟ أمر مستبعد فالمرأة عاشت في عوالمها الخاصة المنطوية، لم تخرج ولو مرة للتبضع،

لـم يزرهـا أحد لأنها كانـت ترفض اسـتقبال الزوار، ويبـدو وأنها قد اختارت الاحتفاظ بالطفل في أيام عسيرة على الزوج، بالكاد يحصل لقمة عيشه وزوجته، فما بالك بفرد ثالث؟

جـاءت الولادة متعسـرة، خصوصا وأن المرأة اختـارت أن تضع مولودهـا داخل الشـقة ودون علم من أحـد، أي أنها وضعته لوحدها ودون عون من أحد! ويبدو أنها كانت تتمتع برباطة جأش غير عادية، إذ لا يذكـر أحـد من الجيران سـماع صـراخ أنثوي، لكنهـم في تلك الليلة سمعوا نحيب طفل وليد!

بعد سـنوات كبر الطفل، وتربى في محيـط عائلي ضائق، صارت والدتـه كل شـيء بالنسـبة لـه، كل شـيء، حتـى الأب والأخ ولربما الصديـق.. أحيانا كان ذلك الصديق الحنون يفقد أعصابه، فيبادر إلى وضع سـكين على لهب الموقد، ومن ثم رسـم علامات تأديبية على بـدن الصبي، وأحيانا أخـرى كان الصديق – الوفي – يسـتعمل رأس صديقـه الصغير فـي دفع الخزانة، أو لتحريـك الثلاجة من موضعها، تماما كنطحة الكبش!

وأخيرا، وذات ليلة، خرجت الزوجة من كهفها!

الظاهـر أن الحريـة والعالم الخارجي قد راقا لهـا كثيرا، إذ أنها لم ترجع بعد ذلك للشقة أبدا، مخلفة وراءها صبيا نسيت – أو تناست– أنه خرج يوما من رحمها!

■ ■ ■



هنا تساءل المحقق بحيرة لاحت على تقاسيمه:

- أنت تتحدث عن طفولتك، أليس كذلك؟

نظر له السجين بدهشة، أو أنه اصطنعها عندما أجاب بتؤدة:

- طفولتي؟! لا طبعا.. أنا أتحدث عن طفولة القتيل!



3

- «هل تذكر كيف كانت طفولتك؟».

نظـر (ملاك) إلى (جرير) نظرة طويلة شـاردة، فتمتم الأخير رافعا كفه كأنما ينفي تهمة عنه:

- آسف للسؤال!

- لا.. لا عليك..

ثم راقب السقف مردفا وهو يتنهد:

- كانت طفولتي.. سعيدة!

■ ■ ■

يــوم مــن أيــام الشـــتاء

قالت مديرة الملجأ محاولة ألا تجن، وراحة يدها المرتعدة تمسح جثة قطها الأثير المحبوب:

- أين ذلك الحيوان؟!

ردَّت مساعدتها الهزيلة وهي تضع إصبعها في منتصف نظاراتها السميكة الجالسة فوق أنفها المعوج:

- جعلتُ (دكاش) يجره جرا إلى مكتبكِ، إنه صلب رغم صغر سنه!

- سنرى مدى صلابته حين أمزق السوط على ظهره!

وأسرعت نحو مكتبها، ففتحت بابه بعنف لتجد الحارس يقف متأهبا خلف صبي في الثانية عشرة من عمره، يرسم تعبير اللامبالاة على وجهه الطفولي الدقيق، وقد برزت ندبة على امتداد ذراعه الأيسر..

صرخت المرأة وهي تكبت رغبتها بتمزيق جسد الصبي وبعثرة أشلائه في الهواء:

- أيها الحيوان الذي لا يرحم.. أتدرك ما الذي صنعته؟!

- لا..

قالها بصلابة رجل بالغ.. كانت له نظرة لطالما كرهتها مديرة ملجأ الأيتام، وقد حاولت مرارا طمسها بالضرب والجلد، أو بحرمانه من طعام العشاء أو بحبسه في قبو الجرذان، لكنه كان بالفعل صلبا..

انقلبت عيناها لعيني جني حانق مزمجرة كالمجنونة:

- مرة تضع جرذا في سروال المرشح لانتخابات مجلس البلدية، جعلت منه أضحوكة لأقرانك الملاعين مما أثار نقمته علينا، فتراجع عن تبرعه لنا بمبلغ هائل!!

وفي مرة أخرى كِدت تتسبب باندلاع حريق، والبارحة تشاجرت مع صِبية أكبر منك سنا ولوثت قاعة الطعام كالحيوان..

أما اليوم، اليوم فقط تفوقت على ذاتك الشيطانية! لقد ضبطتك المشرفة وأنت تقتل حبيبي (جمجوم)! قمت بإغراقه في دلو ماء داخل الحمام بلا رحمة.. فمن أي جحيم قدمت إلينا أيها الشيطان المسعور؟!

وأطلقت صرخة كالهدير:

- أخبرني عن السبب وإلا جعلتك تندم على مجيئك لهذه الدنيا!!

كان بالفعل يشعر بالندم على مجيئه لهذه الدنيا، كأن الأمر بيده! لكنه ردَّ وهو يوثق بساعديه أمام صدره الضئيل:

- لكي لا تقوم الجرذان في القبو بإيذائي!

- كيف؟!

- الجرذان عقدت معي صفقة، إذا ما خلصتهم من قطك الذي يطاردهم دائما ويلتهم منهم..

قاطعته متسعة الحدقتين:

- أتحاول ادعاء الجنون أيها الوغد الصغير؟!

تبسم في صمت كأنه يهزأ منها.. بصره معلق بالسقف، حيث يسعى ذلك البرص كبير الحجم..

تردد صوت عميق كأنه صوت رجل طاعن بالسن داخل عقله، كان له تردد كالصدى وبصورة بالغة الغرابة، ويقول:

- «الصبي عديم الرحمة؟ ماذا عنكِ أنتِ أيتها العجوز البدينة؟ تنفقين أموال المتبرعين على ألذ الأطعمة والمشروبات التي صيرتكِ كالخرتيت! ترتدين دوما ثيابا جديدة أنيقة، أما عن الأطفال فيأكلون يوميا الحساء والبصل، وملابسهم تتمزق وتبلى على أجسامهم!

أذكر أنكِ اشتريتِ سيارتكِ الجديدة عقب وصول مبلغ الإعانة السنوي، والذي كان من المفترض إنفاقه لإصلاح أجهزة التدفئة المعطلة لغاية الآن!»..

كتم الصبي ضحكته بجهد جهيد مشيحا ببصره عن البرص، في حين سألته المديرة بحقد لم تكتمه:

- ما اسمك يا ولد؟

- كل هذه السنوات هنا ولم تتمكني من حفظ اسمي؟

- أجب على قدر السؤال أيها الحيوان!

- (ملاك).. لا أدري ما إذا كان اسمي الحقيقي حتى..

- (ملاك)؟! ملاك أيها الشيطان؟! فليقطع رأس من سَمَّاكَ ملاكا!!

ووضعت جثة القط على سطح مكتبها، ثم تناولت السوط من أحد أدراجه قائلة وهي تصوبه في وجهه لإرهابه:

- اسمع يا.. (ملاك)! لقد ارتكبت ما لا يمكن غفرانه مطلقا هذه المرة، وتعديت كل الحدود لدى محاولتك السخرية مني..

من الآن فصاعدا ستكون لك غرفتك الخاصة غير المؤثثة، إذ ستنام على الأرض، ومفتاحها سيظل معي دائما.. تريد أن نعاملك كمجنون؟ فليكن.. ستحرم كذلك من وجبة العشاء لهذه الليلة، وكلما تفوهت بحماقات كالتي قلتها قبل قليل حرمناك من وجبة، ولن تبرح غرفتك الجديدة سوى مرة واحدة في الأسبوع فقط.. وستجلد حالا عشرين جلدة على ظهرك جزاء وقاحتك وطيشك..

عندما أفقد صبري أحيل حياة الذي جرؤ على أن يتحداني إلى سعير متأجج..

ثم نظرت إلى الحارس قائلة له بغضب:

- عندما أفرغ من جلده تأخذه وتحبسه في القبو مع شركائه من الجرذان، هكذا سيكون بإمكانه عقد صفقة أخرى معهم!



4

- «كانت والدة ذلك الفتى امرأة مسكينة!»..

تأمل (جرير) سجينه الجالس بسكون على طرف فراشه الخشن، وبريبة تمتم محاولا الاستيضاح:

- مسكينة؟!

- أجل.. مسكينة! كانت امرأة وحيدة، لا حول لها ولا قوة..

- لذا أرادت تجربة القوة بضرب ولدها وتعذيبه طيلة الوقت؟ ومن ثم الهرب وتركه وحيدا في مواجهة معركة الحياة الضروس داخل تلك الشقة؟! حقا إنها لمسكينة!

- إذن فقد أنقذته من عذابه!

- لا.. لستَ منقذا يا (ملاك)، أنت.. أنت..

برقت عينا (ملاك)، وعندما نهض قفزت أصابع (جرير) فورا إلى مقبض السلاح في جرابه:

- «قلها!»..

نطقها باستمتاع، وتبدى انتشاء مخيف في حدقتيه الزبرجديتين، فهمس (جرير) شاردا كما لو كان في حالة تنويم مغناطيسي:

- أنت..

■ ■ ■

- «شيطان!»..

كذا قال المحقق وهو يطفئ عقب سيجارته متظاهرا برباطة الجأش.. لكنه كان خائفا وبشدة.. العرق أسفل إبطيه فضحه..

تكومت أعقاب السجائر كتل صغير في المنفضة..

لم يدخن السجين سوى سيجارة واحدة، أما المحقق فقد دخن حوالي ثلاثين سيجارة!

كان يحاول منع نفسه من إشعال واحدة جديدة قائلا لسجينه:

- ماذا فعلت بعدها؟

ردَّ السجين وهو يرسم بقعا ببصماته على سطح المائدة الأملس:

- عدتُ إلى مسكني، ونمت.. نمت طويلا.. وعندما استفقت ذهبت مرة أخرى لزيارة الفتى، فوجدته على حاله، يعيش كحمل وحيد تعس!

شعرتُ بالأسى عليه، فقلت لنفسي أن هذا لا يكفي..



- هكذا قررتَ دفنه بعد استنزاف دمائه بالكامل لإنقاذه من وحدته وتعاسته.. أليس كذلك؟

- بالضبط!

- قصة شائقة..

تمتم السجين ببرودة:

- أشكرك!

- لكنها لا تخدم قضية، أخشى أنك قد أضعت وقتا ثمينا..

- هذا كل ما لدي..

- هذا.. هراء!

- سمِّه ما شئت..

وصمت السجين واجما، فنفخ المحقق الهواء بحرارة، ثم حكَّ جبهته قائلا:

- لنعد إلى موضوع تسليمك لنا نفسك..

- ظننتُ هذا مفهوما!

- ماذا تعني؟

قرب وجهه من المحقق متسائلا بابتسامة ذات دعة:

- أين بإمكانك إيجاد عشرات الوحوش الثائرة الساعية وراءك؟ كلاب شيطانية وساحرات أحرقن ومشعوذون؟

- ربما في الجحيم.. حيث ستذهب!



ارتد السجين بظهره ليسترخي أكثر، وبارتياح قال:

- هذه إجابة رائعة!

كان الشريط قد توقف عن الدوران، إنه الشريط الثالث لاحتواء قصة بهذا الطول..

ونهض المحقق مراقبا السجين بنظرات لا تخلو من توتر، فبادله السجين نظراته بأخرى هائمة، وبشفتيه الداكنتين قال بوجل:

- في الجحيم!

■ ■ ■

خرج المحقق من غرفة الاستجواب، ففوجئ برئيسه الكهل الذي كان واقفا يراقب السجين من وراء الزجاج العازل..

دنا المحقق من رئيسه متسائلا:

- أكنت هنا طيلة الوقت؟

ردَّ الكهل مواصلا المراقبة بتمعن:

- هل تعلم لِمَ نعيش حياة كريهة؟

- بسبب أمثال هذا الوغد طبعا!

ابتسم الكهل، وبنبرة فاترة قال:

- حين أنال تقاعدي لن أفعل شيئا سوى تدخين الغليون حتى يداهمني الموت!

- صدقني أنا أشاطرك ذات الهموم..



فترت بسمة الكهل وهو يقول بشرود ذهن:

- ماذا عن الضحية؟

أجاب المحقق وهو يدس يدا في جيبه بينما الأخرى تداعب أرنبة أنفه:

- لقد تعرف بعض الجيران على صورة للفتى القتيل، يقولون أنه كان وحيدا، لا أهل يسألون عنه لحسن الحظ..

- لقد خانه حظه لدى لقائه بهذا الشيطان!

ودعك الكهل جبهته بإرهاق مغمغما:

- تصور أن يقع قاتل كهذا بين أيدينا، حتى في الروايات لا يحظى رجال الشرطة بهذه الفرصة إلا عقب فصول من الذل، فماذا تكون النتيجة؟

تبسم المحقق قبيل نطقه بغليان:

- أستطيع الدخول ووضع طلقة في رأسه.. الآن إن أحببت!

- هذا شعور الجميع، لكنها الآن قضية رأي عام، ولا يسعنا التدخل أكثر، أتمنى أن تكون محاكمته عادلة..

- اطمئن، لدينا من الأدلة ما يكفي لإعدامه ساعة كل يوم!

رمق الكهل عقارب ساعته قبل تنهده مهموما، ثم قال قبل انسحابه:

- سيأتون بعد قليل لاصطحابه، تعاونوا معهم!



5

وثب (ملاك) في الهواء كأنما يحاول التعلق بالسقف!

وابتسم (جرير) قائلا بدهشة:

- ماذا تصنع؟

- أتمرن قليلا، فالجلوس الطويل يؤدي إلى ارتخاء العضلات!

أراد (جرير) تذكيره بأن ميعاد إعدامه قد دنا.. لكنه صمت في آخر لحظة، دعه يفعل ما يشاء في سويعاته الأخيرة من حياته..

- «أنت.. نشيط حقا!»..

- «كنتُ شعلة من النشاط والحيوية..»..

وتوقـف أخيـرا عما يفعلـه، فابتعـدت أنامل (جريـر) عن مقبض سلاحه..

نظر (ملاك) إلى صديقه الوحيد في هذا العالم، وبمكر أضاف:

- كنتُ صبيا شقيا!

■ ■ ■



يـوم مـن أيـام الصيـف

قالت الصغيرة (هايا) بخوف:

- ماذا لو رآنا (دكاش)؟

ردَّ (ملاك) مستهينا وهو يتلصص من خلال النافذة:

- دعكِ منه، فهو مجرد أعرج أحمق..

كانا قد شـاهدا السـيارة البيضاء الفارهة التـي توقفت أمام مدخل الملجأ، وهبطت منها سـيدة متأنقة أشـعلت فضول (مـلاك) المعتاد لمعرفة سر تلك الزيارة..

- «لا بـد وأنه تبـرع جديد، ولكم أكره رؤيته يرحل لجيب مديرتنا الجشعة المتوحشة!».

رفعـت (هايـا) رأسـها لتـرى أفضـل، فلمحـت السـيدة الغامضة تجالس المديرة التي تبدت منبسـطة الأسـارير، وتبتسـم بسـرور غير مطمئن، فتبسمت (هايا) هي الأخرى قائلة:

- أظن الحق معك، فمس (جليلة) لا تبدو سـعيدة هكذا إلا لدى ذكر المال!

قال الصبي مخرجا مقلاعه من جيبه:

- لـن تدوم سـعادة «الخرتيتة» طويلا، سـأجعلها تولـول إلى يوم الدين هذه المرة! هيا بنا الآن..

بعد مرور عشـر دقائق تقريبا خرجـت المديرة برفقة ضيفتها، وقد سبقتها أوامرها التي حملتها مساعدتها للأطفال بالتجمع في الحديقة الجرداء، فابتسم (ملاك) متخيلا وجه المرأة الهادئ حين يعصف إثر ضربـة من مقلاعـه، واقترب بصحبـة (هايا) كاتما أفـكاره وخواطره لنفسه..

قالت المديرة متصنعة الرقة:

- صباح الخير يا أطفال..

- صباح النور مس (جليلة)..

بأصـواتٍ قلقة ردوا، وكعادتـه ردَّ (ملاك) قائلا: صباح «الزفت»! لكن أحدا لم يلحظ ككل مرة..

- «مـدام (أسـمهان) جـاءت للتعرف عليكم، فأحسـنوا التصرف والتزموا الأدب..».

- «وهل هي غنية؟».

صوَّبـت المديرة نظرة حانية باطنها الحقد تجـاه (ملاك)، قائلة له برفق:

- ماذا قلنا يا عزيزي (ملاك) عن التزام الأدب؟

ومنحتـه من طرف خفـي الإشـارة المعهودة، فقال بنبـرة خفيضة لنفسه:

- ها قد طار عشاء الليلة!



أثناء ذلك وقع بصر السيدة (أسمهان) على (هايا)..

أخذت ترمقها بنظرات غريبة لاحظتها الطفلة و(ملاك) معا، ولم يرتح الصبي لتلك النظرات، شعر بالنفور منها، فوجهها يحمل تعابير قاسية غير مريحة رغم تمتعها بقدر من الجمال..

همست المرأة في أذن مديرة الملجأ، التي أضاء وجهها وهي تشير للحارس (دكاش) كي يأتي بالطفلة.. كانتقاء أكثر الدجاجات سمنة للذبح! وبالطبع لم يُعجب ذلك (ملاك) أبدا..

ظهر خوف بالغ على وجه (هايا)، حتى أنها شرعت بالبكاء.. فاشتعل غضب (ملاك) لذلك، وعلى الفور أخرج المقلاع من جيبه واستعمله في قذف حجر صائب على رأس (دكاش)، لكن الرجل اكتفى بتحسس رأسه فقط دون أن يزمجر حتى، مكتفيا برمق الصبي بنظرة متوعدة..

انقض (ملاك) على ساقه، وعضها بكل ما أوتي من قوة كي يدع صديقته وشأنها.. في هذه المرة زمجر (دكاش) قبل ركله الصبي في وجهه، كما يركل جروا قام بمضايقته.. وواصل السير حاملا بقسوة الصغيرة التي لم تكف عن البكاء..

وكانت تلك المرة الأخيرة التي يرى بها (ملاك) وجهها البريء الجميل..



6

- «أترغب بشيء معين؟»..

رسم (ملاك) خطا وهميا على جدار زنزانته بإصبع سبابته، وبشرود همس:

- في..

- طعام.. شراب..

- في..

- سجائر؟

- في..

- في ماذا؟!

قالها (جرير) بإلحاح مبعدا سيجارته عن شفتيه، ثم استغرب ذلك، كأن (ملاك) عرض عليه لغزا محيرا للعقل، فصار يرغب بسماع الإجابة دون أن يفكر..



لكن (ملاك) أجاب باسما وهو سائرٌ بسبابته الملتصقة بالجدار:

- لا شيء.. لا أرغب في شيء!

■ ■ ■

يوم من أيام الربيع

لم يحتمل الاهانات أكثر، فكال بكل قوته لكمة ذات عزم تجاه ذقن غريمه صارخا:

- اخرس!!

انقض رفاق الفتى العريض ثائر الشعر منتهزين فرصة ضرب أحدهم كي يخبروا الآخرين كم كانوا أقوياء! سيلٌ من الركلات اجتاح وجه وجسد التعس مع عددٍ كافٍ من الشتائم التي تمس العرض، وانتهى الأمر أخيرا به محاولا النهوض بصعوبة، حاملا معه جراحه وكدماته وأشلاء كرامته، عقب رحيل زمرة السوء التي بعثرتها..

- «الوداع يا لقيط! عِش مع الجرذان فهي من نفس فصيلتك!»..

بصق الدم من فمه متذكرا بضيق أمه التي ستجزع حتما لدى رؤيتها ما أصابه، كانت قوته غير كافية لجندلة شخص واحد، لكنها كافية لتحمل ضرباته، والغريب في الأمر أنه كان أقوى وأصلب

عودا عندما عاش في الملجأ، فقد اعتاد مقاتلة الصبية الأكبر منه سنا وأقوى جسما..

يبدو وأنه قد لان كثيرا..

أسرع إلى الحديقة خلف الدار المتواضعة، حيث خرطوم الماء الذي ينتظره كي يغسل منه جراحه كالمعتاد، ففتح الصنبور وهو يبصق من حين لآخر مزيدا من الدماء بضيق..

حين دخل الدار وجد «الماما» غافية وعلى صدرها كتاب، كانت تقرأ على ضوء شمعة لأنهم قطعوا الكهرباء منذ فترة، فدنا من المرأة قبل وضعه يده على كتفها، هامسا في أذنها برفق:

- أمي، استيقظي أرجوكِ..

فتحت جفنيها بصعوبة وهي تسأله متثائبة:

- كم الساعة الآن؟

- العاشرة، قومي إلى فراشك..

- هل ترغب بالعشاء؟

- لا رغبة لي، فقط أريد النوم، تصبحين على خير..

سألته بقلق وبصرها مشوش بفعل النعاس والإنارة الضعيفة:

- هل أنت بخير يا عزيزي؟

- أجل..

ودلف حجرته دون إضافة مزيدٍ من الكلمات، ليلقي بجسده المحطم والجريح على السرير..

كانت جُل كوابيسه عن الملجأ القذر، فقد رأى نفسه يسير في الردهة وسط ظلام تبين بصعوبة من خلاله جسد طفلة تلهو على الأرض بدمية مألوفة، والدماء تغرق الأرض من حولها!

كان البرد قارصا لا يرحم، فارتجف منه ومن الخوف أيضًا.. اقترب بحذر من تلك الطفلة هامسا لها بنبرة متهدجة:

- (هايا)؟!

وحين تلتفت إليه يفاجأ بكيانه وقد انتزع من كابوسه انتزاعا، فيفيق مذعورا عاجزا عن معاودة النوم مرة أخرى، فيبقى على تلك الحال حتى مطلع الفجر، عندئذٍ ينهض من فراشه مشوشا خائر القوى..

غسل وجهه برفق في الحمام كي لا يزيد من آلام مواضع الضرب، سترى أمه كل تلك الخيرات حتما، والتسلل أمر مستحيل فهي معتادة على أن يفطر معها كل صباح..

لم يكن هنالك مفر من المواجهة، لذا خرج من الحمام وهو يهتف:

- صباح الخير!

- رباه! ما هذا الذي يكسو سحنتك؟!

فتحسس وجهه مدعيا السذاجة بقوله:

- ماذا؟ ما الذي يكسوه؟



- هذه آثار ضرب!

- ضرب؟ على وجهي أنا؟

وحدق في مرآة قريبة متظاهرا بالاستغراب قبيل هتافه:

- بالفعل! هي آثار ضرب! من الذي تجرأ يا ترى؟!

- كفَّ عن ذلك وأخبرني بالذي جرى بالضبط..

كانت حازمة، فأدرك أن وقت المزاح قد ولى.. قرب وجهه من وجهها قائلا بارتباك:

- تشاجرت مع أحدهم..

- من يكون؟ ولماذا تشاجرت معه؟

- كانت هنالك فتاة أعلنت إعجابها بي بصراحة مفاجئة! ثم ظهر فتاها الذي يهواها وهو يرغي ويزبد في وجهي، لأني كنت العقبة الوحيدة في طريقه إليها!

وعلى الرغم منها ابتسمت، وبتمهل قالت:

- بالفعل هي مشكلة، فأنت محبوب من الجميع!

- عدا الذي قام بضربي مع رفاقه.. لا أخالهم فعلوها محبة في!

- مجرد فتية حقودين! الملاعين شوهوا وسامتك!

قالتها وهي تدنو منه، ثم قامت أناملها بتلمس مواضع الضرب على وجهه وقد اعتراها صمت حزين..



7

الساعة الآن التاسعة إلا ربعًا..

خيِّـل لجرير أن الجو قد صار أكثر بـرودة، كان يرتجف بردا رغم ثيابـه الثقيلـة، فـي حين بدا (مـلاك) معتـادا على البـرودة رغم لباس السجن الخفيف الذي يرتديه..

سأله:

- أتريد معطفا؟

- لا..

- الجو بارد..

تبين رنة استهزاء في نبرته عندما ردَّ قائلا:

- في الجحيم أنال كل الدفء الذي أبتغيه!

- أرى أن تتوب..

- لا فائدة يا صاحبي.. لا فائدة!

وابتدأ يصفر لحنا عذبا بشفتين شبه مضمومتين، كان الآن مستلقيا على فراشه، يراقب السقف المشروخ باهتمام متزايد..

ثم توقف بغتة عن التصفير، وباهتمام تساءل:

- أتعلم سبب تأخر البعض عن التوبة؟

- لا..

- إنهم يؤخرونها كتأخير دين مستحق، يماطلون ويماطلون لأنهم يحسبون أعمارهم مديدة، الحوادث والأمراض القاتلة تحدث للآخرين فقط، ولكن راقب أحدهم عندما يسمع مثلا أنه أصيب بداء الايدز، وبأن أيامه في الدنيا باتت معدودة..

- يسارع للتوبة طبعا!

ضحك (ملاك) قائلا باستهجان:

- صحيح أنه يصير كالفأر في المصيدة، لكنه لا يهرع للتوبة على الفور، وأحيانا لا يحاول ويظل كالمستسلم لمصيره.. كما أنه لا زال يأمل أن يجدوا علاجا للايدز قبل توكله!

كنت أرى نظرة يائسة في عيون بعض من ضحاياي، نظرة من النوع القائل: سامحنا أرجوك! لأنك إذا قتلتنا فلن نظفر سوى بجحيم أزلي، اعتقنا وسنتوب حالا!

قد يفعلون وقد لا يفعلون، من يدري الآن؟ لقد ضاعت الفرصة!

شعر (جرير) بغصة لدى سماعه هذه الحكاية، ووجد نفسه يسأل (ملاك) باهتمام شديد وهو يقرب وجهه من قضبان الزنزانة:

- هل تذكر ضحيتك الأولى؟

- بالطبع!

وتبسم بحنين كأنما استرجع ذكرى محببة للتو، مردفا:

- كنتُ في التاسعة عشرة من عمري آنذاك!

■ ■ ■

يوم من أيام الخريف

وصل أخيرا إلى هدفه عند انتصاف الليل.. شارع منسي داخل حي منسي، فأوقف سيارته المؤجرة، وترجل منها متجها إلى تلك البناية الآيلة للسقوط بسكانها الكثر..

دخل وصعد درجات سلم قديم حتى الشقة البائسة في الطابق الثاني، هناك، طرق الباب بشيء من خشونة..

- «من هناك؟»..

- «افتح الباب..»..

- «ولمن أود فعل ذلك؟»..

- «صديق قديم مشتاق إليك!»..

- «من؟ الشرطة؟»..

كان صوتا غليظا يدل على قسوة صاحبه، لكنه لم يهابه، بل رد عليه:

- كلا، افتح ولا تخف..

تحرر القفل، وفتح الباب ليطل من فرجته رجل ضخم رمادي الشعر، نظر إليه قبل أن يقول بأسنان نخرة متفرقة:

- ما الذي تريده يا فتى؟

دخل دون دعوة، فتوجس الرجل خيفة من تلك المباغتة، وجعل يفكر مرات قبل الإقدام على مهاجمة هذا الزائر الغامض.. كل ذلك وهو يدور في أرجاء الشقة داسا كفيه في جيبي سترته الجلدية البنية، فسأله قاطنها العجوز محتدا:

- من تكون أيها الفتى؟ وما الذي تريده مني بحق الله؟

- بحق الله؟ ظننتُ الشيطان إلهك يا (دكاش)!

- (جحفل) هو الذي أرسلك أليس كذلك؟ لا يكف عن إرسال الفتية الحمقى! قل له أن البضاعة تساوي أكثر من مائة ألف ليرة، والقسمة عادلة!

- يبدو وأن أمورا كثيرة تبدلت معك مذ كنت حارسا لملجأ الأيتام في الماضي!

ثم قرب وجهه من سحنة الرجل هامسا:

- أتراك تذكرتني؟



تبدى الازدراء على العجوز لما رد:

- رباه! وجه من الماضي الجميل! صبي من الملجأ عاش آملا بأن يكبر سريعا كي يحقق انتقامه السخيف مني.. ألا تظن الأمر مبكرا يا فتى؟

- ربما تذكرك هذه أيها الشيطان!

قالها مبرزا علامات الجلد التي زخر بها ظهره..

- «خريطة الآلام التي رسمها سوطك..»..

بصق (دكاش) قائلا ببرودة:

- قد جلدت من عينتك الكثير، فلماذا أتذكرك أنت بالذات؟

- كنت أنا ضحيتك المفضلة..

وارتسمت على ثغره بسمة غموض مسترسلا:

- قط مس (جليلة) الذي أغرقته؟ الصفقة مع جرذان القبو؟

للحظات بقي (دكاش) صامتا، ثم لاح على شفتيه شبح ابتسامة وهو يقول بتؤدة:

- أجل! أهو أنت أيها التمساح الصغير؟

سار متأملا أرجاء الشقة وأوضاع عيش الرجل العجوز، وسأل دونما اكتراث:

- كيف حالك أيها الجلاد العجوز؟



- كبرتَ يا شقي وصرتَ رجلا يسأل عن الأحوال؟

- وأنت ازددت خسة ووضاعة..

- حال الدنيا، وما الذي تريده مني الآن؟

- اشتقتُ لصديقي القديم المنحط فحسب..

- وزرتَ (جليلة) قبلي؟

- توفاها الله قبل زيارتي المحتمة لها..

وهنا توقف، ثم زينت بسمة مضيئة ثغره الوردي لما قال بغموض:

- إنها رحمته التي شملتها!



8

رن الهاتف الأسود فجأة..

سارع (جرير) بالتقاطه من موضعه المعلق على الجدار، وأنفاسه تتلاحق كمريض الربو.. حين يرن الهاتف الأسود في عنبر المساجين المحكوم عليهم بالإعدام، فهذا يعني شيئا واحدا لا غير..

أنهى المكالمة، ثم نظر إلى آخر الممر حيث تستقر زنزانة (ملاك)..

هنا ارتفع صوته قائلا:

- أهم آتون؟

أجابه (جرير) بنبرة خفيضة وكأنه يحادث نفسه:

- أجل.. هم آتون!

■ ■ ■



يــوم مــن أيــام الشـــتــاء

حاول جاهدا الاستمتاع بسيجارته لأنها ستكون الأخيرة، فقد قرر وضع حدٍ للمهزلة المسماة «حياته»..

تأمل الشوارع الغارقة بالماء عقب زخات المطر التي انهمرت ليلة أمـس من نافذته سـاهما، حتى عقله توقف عـن التوهم للحظات عن ماهية العالم الآخـر.. كانت المدينة - ولا زالت- قلبا نابضا بالحزن والجمال معا، شديدة الاضطراب وبخاصة في المساء..

نظر لسـاعته فوجدها تشـير للعاشـرة، للمـرة الأولى يشـعر بثقل مرور الوقت..

والناس ذات حركة لا تهدأ، مساراتهم صارت محددة داخل ذهنه رغم أنها عشوائية، كلٌ وجهته مختلفة عن الآخر في الواقع..

هل يأكل وجبة أخيرة؟ طعامه إما معلب أو من المطعم، وهو غير بارع بالطهي، زوجه هجرته منذ عام - أم عامين؟- بعد وفاة ولدهما الوحيد باللوكيميا.. تذكر ذلك وهو يتأمل بحزن عميق صورة الصبي الضاحـك ذات الإطار المزخـرف والمذهب، لكنه لم يلبث أن عاود الابتسام، فقريبا جدا سينعم برؤيته من جديد!

سحب نفسا عميقا من السيجارة، وحبس الدخان للحظات داخل رئتيـه المجهدتين قبل إطلاق سـراحه في الهـواء، وتأمله بتمعن وهو يتخذ أشـكالا غامضة مبهمة قبل تلاشـيه ببطء.. الليلة سـيموت غير



آسفٍ على حياته الضائعة، التي لا تساوي في رأيه حياة أي جرذ راتع بالمجاري..

وللمجتمع البشري ألقى بنظرة أخرى..

الناس لا زالوا يتحركون، يجيئون ويروحون في رحلات أزلية لا تتوقف أبدا، لا أحد ينظر أو يلتفت لأحد.. أفكاره تزداد تعمقا وتركيزا مع مرور الوقت، فكر في أسعد لحظات حياته وفي أتعسها كذلك، ابتسامة زوجته كانت تريحه، تذكر ذلك فأفعمت صدره تنهيدة حارة من الأعماق.. أنصت لألحانٍ تنضح شجنا من المذياع، ثمة تشويش طفيف على المحطة اعتاد سماعه كثيرا حتى ألفه..

وسيجارته قد شارفت على النفاد.. تماما كحياته..

الساعة تشير للعاشرة والنصف.. ربما حان الوقت الآن!

أطفأ عقب السيجارة في فنجان يحوي بقايا قهوته، ثم تناول مسدسه، وحرر صمام الأمان بأن قام بسحب المشط للوراء وإفلاته بغتة، ليرتد بعنف مصدرا لحنا معدنيا صارما يعلن عن تلقيم السلاح.. لقد قام بوضع رصاصة واحدة، وهي كل ما يحتاجه للرحيل الآن وللأبد.. هكذا، أولج فوهة المسدس داخل فمه، وشرعت سبابته تلهو بالزناد..

والموسيقى لا تزال تدور في المذياع..

شعر أن الزناد ثقيل إلى حد لا يمكن وصفه، أم تراها سبابته؟

لـن يتـردد أكثر، شـيء من العزم ويتلاشـى مـن سـيمفونية الحياة الصاخبة، هاهو ذا يضغط الزناد، قليلا بعد ثم..

قـرع أحدهم جرس باب الشـقة بمباغتة أجفلته، وجعلت جسـمه ينتفض بعنف، فألقى بسـلاحه على المنضدة وهو يلهث، وقد اختلط عرقـه مـع دموعه.. لقد فشـل مبتغـاه، وهاهـو ذا لا يـزال عالقا بهذا المكان.. وبهذه الحياة!

أسرع يفتح الباب بعدما مسح وجهه بكمه الطويل، فطالعته تقاسيم حسنة لمراهقة خجول متحجبة، سألته ووجهها آخذ بالاحمرار:

- مسـاء الخيـر، أعلم أننا أزعجناك، لكن والدتي تطلب اسـتعارة الخلاط إن لم يكن لديك مانع..

- لا مشكلة، لحظة واحدة..

ذهب ورجع مسرعا حاملا الخلاط، فناولها إياه قائلا بوجل:

- هـاكِ، قـد عرضـتُ عليكم مرارا أخـذه لكم، لكنكـم ترفضون عرضي دائما..

- ليس هذا من حقنا، فلنكتفِ بالتطفل!

- ترفضون هدية بسيطة من جاركم؟

- كما كنت ترفض من قبل دعوتنا على الغداء عندنا أكثر من مرة!

- ذاك موضوع آخر مختلف..

- إنك طيب، لكنك متعنت! شكرا على الخلاط..



- مهلا..

ووضع يده في جيبه مستخرجا مبلغا من المال أعطاه لها قائلا:

- خذي..

علا الاستنكار ملامحها وهي تتساءل:

- ما هذا؟

- أعلم بمشاكلكم مع الإيجار، ومشكلتكِ أنتِ بالتحديد مع مصاريف الجامعة..

قالت بإباء وهي تشيح بوجهها جانبا:

- لا شكرا، نحن نعرف كيف نتصرف دون عون من أحد..

بدا شديد الإصرار والحزم هذه المرة لما قال:

- إنني أهيبُ بكِ أن تأخذي هذا المال.. أتوسل إليكِ!

- لا أستطيع، إذا علم أهلي فسوف..

- هاكِ المال، أنتِ ذكية وستجدين حجة ما، إن ظروفكم المادية صعبة للغاية، فكفي عن المكابرة وساعدي أهلك..

ووضع المال في يدها وهي لا تزال تردد بحيرة تامة:

- لا أعرف ما أقول أو أفعل!

- لا تقولي شيئا، اذهبي الآن في رعاية الله..

منحته بسـمة ممتنة باهتة، لكنه عجَّل بإقفال الباب خشـية أن تغير رأيهـا فتعيـد المال إليـه.. انتظر حتى عادت إلى شـقتها، ثـم فتح بابه مـن جديد وتقـدم بحذر جوار بابهم، فسـمع صـوت الأم ينبعث من الداخل:

- (لمَة)، هل جلبتِ الخلاط؟

تبسـم سـاهما، ثم هبـط درجـات سـلالم البنايـة القديمـة مقررا الخروج في نزهة سريعة، حتى أنه نسي أن يقفل باب شقته..

ولم يدر كيف نسي أيضًا – أو تناسى– موضوع الانتحار برمته..



9

(ملاك) يجلس بهدوء الحمل الوديع الآن..

لقد مضى صديقه السجان استعدادا للتحضيرات الأخيرة، إذ سيتم نقله إلى حيث يتأرجح حبل المشنقة، الذي سيتدلى من حلقته عما قريب..

رمق أرجاء الزنزانة الضائقة باسما، كان ممتنا لتلكم الجدران المتسخة لأنها ألهمته الحرية، ذكرته بالهواء الطلق والعشب الندي..

وتوسلات الضحايا كي يخلصهم من عذاباتهم!

تنهد بجفنين مغمضين متذكرا حياته، وشعر بدهشة عندما رأى سوادا يتخلل كل صفحة من صفحات الماضي.. لكنه وجد الصفحة الوحيدة ناصعة البياض بوضوح كأنما تتلألأ كأشعة الشمس..

تلك الصفحة المتعلقة بها!

سمع وقع خطوات على الممر، تقترب منه، خطوات ذات قرقعة صارمة مزعجة..



لقد أتوا أخيرا لأجله!

■ ■ ■

كـوَّر قبضته المتسـخة، ثم أطلقهـا كالصاروخ على بـاب الزنزانة ليحدث الارتطام المؤلم..

وإذ به يسمع صوت القفل يفتح!

دخـل حـارس يحمـل صينيـة طعـام وكـوب شـاي مصنـوع من الصفيح، وقال له:

- أفقتَ أخيرا؟ نمتَ كأهل الكهف!

- لماذا أنا هنا يا (سليم)؟

ردَّ الحارس بشيء من حزن وهو يناوله الصينية:

- اعتبر نفسك في إجازة طويلة، بل الأطول على الإطلاق! حاول ألا تكتـرث لذلـك، إذ سـتنعم بالراحة لأننا سـنوليك اهتمامـا فائقا، عندها لن تشعر بمرور الأيام!

- أنت تعلم أنني بريء!

صمـت الحـارس وقـد ارتسـم تعبير الأسـى علـى وجهـه، فقال السجين بنبرة أقرب للبكاء:

- بالله عليك.. قل شيئا!

- لا أدري ما أقول يا(جرير)!



- نحن صديقان!

- لا شأن لصداقتنا بهذا الأمر، لقد منحتَ قاتلا مختلا فرصة الحرية! فتحتَ له باب الزنزانة وجعلته يهرب!

- قلتُ إنني بريييييء!!!

أرجح (سليم) رأسه في حركة بلا معنى، واتجه نحو الباب، فصاح به (جرير) مفلتا الصينية لتسقط أرضا مبعثرة محتوياتها:

- انتظر!

وأسرع ناحية الباب، لكن (سليم) وضع ساعده في طريقه باسما باستنكار..

- «إلى أين؟! لا أستطيع السماح لك بالخروج!»..

أبعد (جرير) ساعده بخشونة، وخرج ليجد ثلاثة حراس في مواجهته دفعة واحدة، جميعهم كانوا من أصحاب الوجوه المألوفة، رفاقه الذين كانوا يطلبون منه مشاركتهم لعب الورق في بعض الأمسيات، لكنهم الآن خصوم له، يحرسونه كأي سجين آخر!

أتاه صوت (سليم) من خلف ظهره مهددا:

- لا تتهور يا (جرير)!

- أين (عيسى)؟

تطوع أحد الحراس بالإجابة متجهما:

- في إجازة، اليوم تضع زوجته طفلا..



- مبارك لهما!

قال آخر متظاهرا بالخشونة:

- وإلى أين العزم؟

- الحمام..

- إذن تفضل من هنا..

- أفضل الذهاب من هناك!

وركض كالغزال الرشيق إلى آخر الممر حيث البوابة الفولاذية، وكما توقع للأسف وجدها موصدة بإحكام، فاعتصر صدغه بكلتا يديه لكتم الصداع الذي سكنه، في حين صاح (سليم):

- هدئ من روعك يا (جرير).. أرجوك!

لكنه اندفع صوبهم متفاديا قبضة أولهم المحاولة إمساكه، لكنه اصطدم بالثاني المالك لقوة لا يستهان بها، إلى جانب طول قامته، وسمعه يقول:

- لا أريد إيذاءك يا (جرير)!

هنا وثب ليلكمه لكمة مضحكة، لأنها تبدت كالصفعة على وجهه المتيبس! ثارت ثائرته، فطوَّح بجرير أرضا، وانهال على وجهه باللكمات القاسية..

- «كفى!!»..

بصعوبة سمع (جرير) أحدهم يوقفه، خيل إليه أن عينه اليسرى ترى مشاهد ضبابية! وبصق كثيرا من الدم شاعرا بصعوبة النهوض مجددا، فقال متهالكا:

- أنا بريء! صدقوني!

- فلنحمله إلى فراشه..

رفعه صاحب القامة المديدة كالمولود الحديث، ففكر (جرير) باقتلاع أنفه بأسنانه، ثم آثر أن يستكين..

إلى الزنزانة حمله، وعلى الفراش وضعه..

سمعه يقول محتدا وهو يهز سبابة منذرة:

- تعلم السيطرة على انفعالاتك، فأنا لا أتقن السيطرة على انفعالاتي!

لكن (جرير) انشغل عنه بتأمل السقف المشروخ..

فكر يائسا: هل سأتمكن من الصمود؟ أم تراني أنهار وأرضخ لفخ (ملاك) الماكر؟



10

- «بحق الجحيم!!!»..

كـذا صـاح أحد عناصـر الكتيبـة، فـي حين رفـع قائدها سـماعة اللاسلكي المعلق على كتفه صائحا:

- السجين هرب! أكرر.. السجين هرب!

ورغـم أن الزنزانـة خاويـة، إلا أنـه ورجاله لم يفلحـوا في خفض أسـلحتهم، وكأنهـم يتوقعون أن يظهـر (ملاك) بغتـة، لينقض عليهم كمصاصي الدماء في الأفلام!

وصـل وكيـل النيابـة برفقـة رجاله فـي تلـك اللحظـة، يصحبهم (جرير) الذي هتف مندهشا:

- ماذا حدث؟ هل انتحر السجين؟

- أخبرنا أنت!

قالها قائد الكتيبة بنبرة اتهام واضحة، لكن (جرير) لم يتنبه لها..

■ ■ ■



استفاق (جرير) غارقا في العرق..

لليال كان يستيقظ حاسبا نفسه داخل شقته، حيث يواجه التلفاز الضئيل سريره الخشبي، وحيث تتدلى من السقف مروحة مسودة الأطراف لا يجرؤ على تشغيلها، كي لا تتطاير محاولاته الشعرية المدونة في أوراق «الفولسكاب»!

ثم بدأ يعتاد الأمر، بمرارة لا حدود لها صار يفيق وهو على يقين من سقوطه في فخ ماكر، وبأنه الآن تحول من سَجَّان تعس إلى سجين أتعس!

دائما تعود به كوابيسه للحظة التي تقدم بها لرؤية ما يدور داخل زنزانة (ملاك)، يقترب ببطء ورهبة، وهو على يقين من أنه سيجده متدليا من السقف بملاءة صنع منها طوقا لشنق نفسه.. صحيح أنهم منحوه فراشا من غير ملاءة..

الجدار! الجدار الدموي! وصورة الدائرة التي رسم داخلها وجه طفولي باسم، نقطتان تمثلان العينين، وقوس مائل لفوق يمثل الفم!

وأسفل ذلك الوجه الدائري الباسم عبارة بالدم تقول:

ل

إلى صديقي الوحيد جرير.. شكرا لكل شيء!

وعندما يستيقظ، يكون ردُّه الدائم والأزلي بمرارة لا حدود لها:



- لا شكر على واجب.. أيها اللعين!

في الأسبوع الأول امتنع عن الطعام والشراب كنوع من الإضراب..

تدهورت صحته بشدة، فتم نقله إلى عيادة السجن حيث تمت تغذيته عن طريق الأنابيب كي تتمكن أعضاؤه من الحركة مجددا، أعياهم بضع مرات عندما كان يستيقظ ويزيلها عن ذراعه، لكنه رضخ في النهاية..

رأى في مرة سجينه السابق واقفا أمامه! وقد استند بذراعيه على قائم السرير، فكاد أن يثب لولا وهنه، كان هذا قبل أن يهمس وحي غامض في أذنه بأنه مجرد حلم لا أكثر!

أصدر (ملاك) صوت تأتأة آسفة قائلا بأسف مصطنع:

- حسبتك محاربا!

- ماذا؟!

- ألم تقل لي أنك حاربت؟

- أخبرتك أنني أنهيت الخدمة العسكرية!

- آااه! هكذا إذن! سامحني على هذا اللغط، كيف أحوالك؟

- اذهب.. إلى.. جهنم!!

- هذه هي الروح التي أريدك أن تتمسك بها!

وعندما تحسنت صحته أعادوه إلى زنزانته..

رفض أن يوكل محاميا بادئ الأمر، لكنه ولاحقا وافق لسببٍ كتمه بين ثناياه بعناية وحذر، فكرة رائعة بدأت بالتكون والتضخم في عقله وقلبه..

أسـمع محاميه المبتدئ حكايته بالتفصيـل، وبالطبع لم يصدقه.. أخبـره الشـاب لاحقـا بـأن الوريقـة المهترئـة الوحيـدة التـي يمكن التلاعب بها هي..

- «ماذا؟ أن أتظاهر بالجنون؟»..

قالهـا سـاخرا طبعا، لكن الشـاب الأحمـق كان يأخـذ مهنته على محمل الجد، بصورة زائدة عن اللزوم، إذ قال مستنكرا:

- عـن أي جنـون تتحـدث؟ لا طبعا، عليك أن تعتـرف بالإهمال والتقصير في أداء واجبك!

- لم أكن مهملا..

- لحسـن حظك أن الباب كان مفتوحا عندما أتى الحراس لأخذ (مـلاك)، فلـو كان موصدا بالمفتـاح لثبتوا عليك تهمـة معاونته على الهرب..

- أليس هذا ما فعلوه؟

دَعَكَ المحامي جبهته بإنهاك مجيبا:

- يحاولون فعله.. الأدلة غير كافية لحسن الحظ، خصوصا وأن تشويشا قد أصاب كاميرا التصوير داخل زنزانة (ملاك)، لم تظهرك وأنت تفتح باب الزنزانة بمفتاحك..

- ولماذا أفتحه؟! أنا لم أفتح شيئا!!

كذا صرخ وهو يدق الطاولة بقبضته مرارا، فتراجع المحامي الشاب شاهقا!

■ ■ ■

يوم من أيام الصيف

السيارة الحمراء نصف نقل تسير حسب السرعة القانونية المسموح بها بمحاذاة الحقل الأخضر الطويل، على الطريق الممهد والممتد لمسافة منتهية بخط سرابي شفاف..

لم تكن تحمل ما هو جدير بالذكر، فقط بضعة أوعية معدنية صدئة فرغت من المبيدات الحشرية، وفسيلة تالفة..

كان فيما مضى مهندسا زراعيا لا بأس بنجاحه، لكنه لم يكن ممن يقرون لأنفسهم بالنجاح في أي مجال كان، أفكار بغموض أبعاد المجهول غلفت خلايا مخه، فدفعته للتفكير بالكف عن استصلاح التربة، وأساليب الري الحديثة، واستخدام الأسمدة الطبيعية ذات الروائح المنفرة..

أصابعه تنقب في مذياع السيارة القديمة بحثا عن محطة واحدة يصله إرسالها، إلا أن التشويش بدا وكأنه قد عمم على سائر المحطات..

بحث عن القداحة حتى وجدها، فسحب سيجارة من العلبة بشفتيه، حاول إشعالها مرارا، لكن القداحة المغشوشة أبت العمل، فرماها من النافذة المفتوحة، وضغط بإبهامه قداحة السيارة..

كانت ذكرى زوجته لا تزال تؤرق ذهنه.. أخبرته يوم توقيع أوراق الطلاق أنه إنسان مشوش الذهن، أثرت في عقله وفاة ابنهما بأكثر مما أثرت فيها هي، وهي تخشى كثيرا أمثاله من الذين يتغيرون هكذا عقب صدمة كالتي حدثت، فيصيرون بعدها هائجين إلى حدٍ مخيف لأهون الأمور وأتفهها!

كيف لها الجزم أنه منهم؟ هو ليس منهم..

ربما كان بحاجة لفترة أطول للتأقلم بعد وفاة وحيدهما، ولربما بالغ عندما انكب على فعل أشياء بدت غريبة ومزعجة بالنسبة لزوجته، كترك وظيفته القديمة التي كان ناجحا فيها بحسب رأيها!

عندما التقاها للمرة الأولى، شعر - رغم نحولها لدرجة الهزال- أنها الشريك المناسب، شعر أنه مستعد لبذل شتى سبل التضحيات للظفر بها كشريكة له في حياته الرتيبة كدقات ساعة الحائط..

أما الآن، وبعد رحيلها حاملة معها آخر آماله باستئناف العيش كزوج ورب أسرة..

رفَّ جفنه بعصبية كجناح طائر، كلما اختلج تضايق لدرجة السخط، ظهرت معه تلك الحركة المزعجة يوم لخص له الأطباء مشكلة ابنه: «ولدك يا سيدي مصاب بسرطان الدم!».

شعر ببوادر السخط بالفعل..

كما شعر بحاجة ملحة لسيجارته ذات الطرف الذابل، وقداحة السيارة المشؤومة تأبى الخروج من مكمنها! التقط طرفها بأصابعه محاولا سحبها، لكنها بدت عالقة بعناد أثار استفزازه وسخطه أكثر..

- «سحقا!».

فلتذهب القداحة والسيجارة لقعر جهنم إذن..

تثاءب مرة أخرى، ربما للمرة الخامسة، فكر في أيام الصخب الحالية التي لا ترحم أي كائن حي، وبالأعمال التي بقي يزاولها لسنوات تافهة عديدة.. سخف! سخف! سخف!

لم تدم راحته المزعومة تلك سوى ثوان، فقد تباطأت سرعة سيارته، رغم أن قدمه لم تتزحزح من موضعها فوق دواسة الوقود..

- «ما هذا الحظ الحسن؟».

وابتلع ريقه لما سكنت السيارة كليا في النهاية..

شرع يدير المفتاح محاولا بعث الحياة في المحرك من جديد..



لم يشتغل المحرك فحاول مجددا...

لم يشتغل هذه المرة أيضًا، فحاول للمرة الثالثة ووجهه يتفصد عرقا..

وعقب المرة الرابعة أعلن استسلامه التام بإغماض عينيه، ثم دفع رأسه للخلف..

- «أيتها الخردة اللعينة!».

بعد دقيقة، فتح عينه اليمنى متفقدا بها خزان الوقود، فوجد المؤشر معلقا للأعلى.. ليست تلك هي المشكلة إذن..

ترجل من السيارة وهو يصب جام غضبه عليها عبر ألفاظ نابية حانقة، موقنا بحماقته لأنه امتلك مركبة مثلها.. وهنا قرر أنها جزء من ماضيه السخيف والممل، فتركها خلفه وللأبد!

هكذا، سار على قدميه مصفرا بشفتيه لحنا للتسلية..

كانت الطريق التي يسير فيها داكنة، على الجانب السريع فاتح اللون، فافترض أنه رصيف أو سيصير رصيفا، فالتزم السير عليه رغم أنه لم يلمح سيارة منذ فترة ليست بالقصيرة، وفي كل الأحوال لم يكن ذلك يهمه..

سار في طريقه بخطوات شبه راقصة، تذكر - متهكما - خطوات رقصة «تانجو» شاهدها في التلفاز.. 3|2|1 .. 3|2|1 !

قبل سـنوات كانت جل مشكلاته متركزة في إبداع بعض من تلك الخواطر، مع استصلاح تربة المنطقة الصحراوية، أما الآن..

بإظفر سبابته شبه الطويل هرش شحمة أذنه اليسرى.. بصره يرمق الطريـق الطويل العريض الممتد إلى ما لانهاية، حيث يرى خط الماء السرابي أو كما يوهمه عقله..

تنهـد بحـزن عظيـم أبقـاه مكبوتـا في صـدره الحـار، فلم يشـعر باقتراب تلك السـيارة السـوداء ببطء خلفه.. لم يشـعر بها حتى وهي تسـير إلى جواره، ولا بنافذتها وهي تفتـح.. فقط، تنبه لصوتٍ هادئ النبرة يناديه:

- أفتـرض أنك صاحب السـيارة الحمراء المعطوبـة على جانب الطريق.. السيارة نصف نقل؟

باغتته نفضة خفيفة أشـبه بالقشعريرة لما قوطعت أفكاره، لكنه ردَّ متداركا وهو ينظر بخواء:

- تبا لتلك السيارة!

- اصعد لكي أوصلك إذن..

- لا داعي لذلك، أفضل مواصلة الطريق سيرا على الأقدام..

- أتمـزح؟ لا يـزال أمامك سـتون كيلومترا قبل بلوغـك أول بناء يحوي هاتفا، كما أن الطقس حار للغاية..

«بمن سأتصل بكل الأحوال؟».. كذا تفكر قبل تمعنه في خلقة سائق السيارة السوداء.. كان شابا بالغ الوسامة، ذا شعر أسود طويل، ولم يعلق في باله سوى الندبة القاسية على امتداد ذراعه الأيسر المكشوف..

جلس على المقعد الآخر مسلما أمره للغريب، الذي انطلق بالسيارة مسرعا وهو يقول له:

- كيف تحتمل هذا الجو القائظ؟

- الطبيعة متقلبة لبعض الوقت، وهذا حقها..

- حقها الطبيعي؟

وضحك ممررا أصابعه بين خصلات شعره الأسود الطويل..

- «ليس هذا مبررا كافيا للإصابة بضربة شمس، ماذا تصنع في حياتك غير محاولة اكتساب الأمراض؟»..

ردَّ كاذبا ليمارس لعبته المفضلة مع الذين يقابلهم لمرة واحدة فقط:

- أصنع الحوادث! أعمل سائقا لسيارة أجرة، بالأحرى كنت..

- متزوج؟

ردَّ صادقا لأنه كره الكذب في أمر يخص ولده الراحل:

- هجرتني بعد وفاة ولدنا الوحيد..

- رباه! هل تزور أو تزار؟

- لِمَ كل هذه الأسئلة ؟ تبدو مهتما لدرجة مريبة يا صاح!

- أتعلم ما الذي اكتشفته من كلامك؟ أن فحواه كله كذب في كذب.. ما عدا الجزء المتعلق بوفاة ولدك طبعا!

- كيف؟!

- يا صديقي حتى أنا مارست تلك اللعبة الطريفة! مارستها بكثرة مع الحلاقين وسائقي سيارات الأجرة وغيرهم، فصرتُ خبيرا بكشف من يحاول ممارستها علي!

- لقد فاجأتني حقا!

- ليس بالضرورة، أؤمن بأن كل واحد منا يمتلك مقدرة معينة أو مهارة ما، ومقدرتي هي كشف الذين يكذبون بسهولة تامة..

- مقدرة تناسب موظف في شركات التامين!

- ماذا عنك؟

- أنا؟ بإمكاني البقاء مستيقظا لفترة طويلة من الزمن..

- تلك لعنة يا صديقي!

قالها قائد السيارة وهو يتأمل الطريق، لم ينظر له كي يحاول تبين صدقه من كذبه، ومن ثم عاود تساؤله المريب:

- لكنك لم تطلعني بعد على طبيعة عملك.. الحقيقي هذه المرة!

- أعمل محاسبا لدى شركة مقاولات!

- كذبة أخرى!

بـدا الآمـر غريبا وغير طبيعـي، ربما هو طبيعي لو أن هذا السـائق اللطيف يعرفه من قبل..

- «هل تعرفني أيها السيد؟»..

تبدلـت لهجة الشـاب إلى ثلج أثار قشـعريرته، عندمـا تمتم وهو يطالعه بعينين زبرجديتين مخيفتين:

- لدينا محادثة هامة أنا وأنت!

■ ■ ■

في كافيتيريا بسـيطة جلسـا.. طلب لنفسـه فنجان قهوة، وللشاب الغامض وجبة مكونة من لحم وبيض كما أراد!

راقبه وهو يأكل اللحم بشوكته صامتا، ثم لم يحتمل أكثر فقال:

- يبدو وأنك تعرفني..

بقي الشاب يأكل بنهم وصمت، فتابع هو في شك:

- يخيل إلي بأني قد رأيتك من قبل..

- هذا ما يخيل للجميع!

- ماذا تقصد؟

- كل من يقابلني يوحى له أنه شاهدني قبلا!

شحب وجهه، وشعر بصوته يخرج متحشرجا:

- ماذا تعني؟

- أعني أنك قد رأيتني، ولكن ليس في عالم الواقع.. لقد رأيتني في كوابيسك مرارا، كنتُ من دفعك للخلاص، لكنك الآن تحاول التنصل من مصيرك!

همس بوجه يتصبب من مساماته العرق الغزير:

- من أنت؟ ما أنت؟!

- لا شأن لك!

- هل أنت..؟!

- إياك والتساؤل! إعلم فقط حقيقة موثقة.. أن الوقت قد حان لاستخدام ذلك المسدس!

شرب كوبا كاملا من الماء وعرقه لا يكف عن التصبب، ثم نهض شاعرا باقتناع عجيب لا حدود له، كالمنوم تنويما مغناطيسيا: «لابد وأن أستخدم ذلك المسدس!».

رحل دون إضافة حرف في حضرة ذاك الشاب الرهيب، وإن شعر أنه قد عرف هويته على نحو ما..

لابد وأنه الشيطان!

11

لم يشعر بالقوة رغم شعوره بمسدسه بين يديه، يوجهه كيفما اتفق..

لطالما اعتقد في الماضي أن حمل السلاح - وإن كان لعبة- وشهره باتجاه معين كفيل بمنحه الشجاعة والإقدام..

يا لذلك التصور الطفولي السخيف!

هاهوذا يحمل سلاحا حقيقيا، لكنه متوتر ومرتعب، يشعر بالأسوأ لا زال في الطريق إليه!

ترى هل يهلك بالموت الفوري كذلك السجين (جمرة) الذي قطع أوردة رسغه بأسنانه؟ أم تراه يجن مثلما حدث مع السجين (بارود)، الذي ظلَّ يصدم رأسه بقضبان زنزانته حتى أصابه بكسر في الجمجمة؟

وإذا جن جنونه، أتدعه الكوابيس الرهيبة وشأنه؟

كان قد نزل السلالم الحجرية وفتش في حجرتين دونما جدوى..

ولكـن مـا إن فتح باب الحجرة الثالثة حتى شـهر مسدسـه بحنكة فـي وجه اختبأ بين الظلال المفزعة، لكـن صاحبه وقف وقفة المعتد بنفسه!

سمع ضحكة لم يسمع أشـد منها سخرية ووقاحة، فتفصد العرق من جبينه..

قال صاحب الضحكة ببرودة فجائية:

- لماذا أتيت؟

صرخ (جرير):

- لا تجبرني على قتلك! استدر ببطء..

- يبدو هذا ممتعا!

وتقدم صاحب الصوت ببطء.. فتأهب (جرير) بسلاحه..

كان نصـف وجـه (ملاك) الأيمـن منتفخا، ونصـف وجهه الآخر مشوها! ورغم هذا كله بدا سعيدا وهو يقول رافعا يده بمسدس قديم:

- أهلا بصديقي الصدوق!

سـال اللعاب اللـزج من فمه حتى لامس الأرض، فشـعر (جرير) بدموع الذعر محتشدة في مقلتيه، وبنبرة وعيد صاح:

- لا تتحرك!

رقص (ملاك) مقلدا الصغار:

- هأنذا أتحرك!

تبـدت مقلته اليسـرى لجرير، عليهـا غمامة ضبابيـة حولتها لعين عـوراء قبيحة.. بدا (ملاك) غير (ملاك).. (مـلاك) الجديد بدا قبيحا مروعا مشـوها ممزق الثياب، لكن (جرير) كان على يقين من أن هذا شكل الشيطان الحقيقي!

تنشـق (ملاك) مخاطه الدموي الذي سـال من فتحتي أنفه مبتسما بانتشاء، فقال له (جرير) بغضبٍ جنوني:

- سأقتلك الآن وحالا!

- يمكنك إطلاق النار، لكن الهلاك من نصيبنا في جميع الأحوال!

والتمعـت في عينيه نظرة غاضبة، وكأنه اسـتنكر أن يطلق (جرير) النار عليه، فقال متلاعبا بزناد سلاحه الأثري القديم:

- لنر من الأسرع إذن!

- إياك!

لكنـه فوجـئ بالمخبـول يرفـع سـلاحه بسـرعة جيدة، فـي ذات اللحظة التي تفوقت بها ردة فعله السحرية.. انطلقت عدة رصاصات في جنح الظلام، وسقط جسم بشري تأوه صاحبه بشدة..

- «اللعنة!»..

سقط سلاح أرضا، وارتفعت اللعنات منصبة على رأس القاتل..

وفي النهاية تمتم الصوت يائسا:

- أنا ملعون!



ثم رفع وجهه للسقف قائلا بمرح فجائي:

- لا عليك.. بإمكاني التفهم حتى وإن أطلقتَ النار علي!

غريبة.. أرى رجلا يراقص امرأة رغم كبر سنهما في السماء!

يا لهما من مخرفين!

وقهقه حتى خرجت الدماء من فيه، ثم أسلم الروح بصمت..

دنا (جرير) والدخان يتصاعد من فوهة سلاحه، بدا غير مصدق لفعلته، فجلس جوار جثة صاحبه مطرق الرأس..

يبدو وأن مشاكله مع الأرق قد حُلت أخيرا!

■ ■ ■

طالت مدة سجنه قبل عرض قضيته على المحكمة، وكأن وكيل النيابة توصل إلى ذات نتيجة المحامي الشاب، فأزمع أن يؤدب (جرير) أطول فترة ممكنة!

لكن سير الأمور في قضيته يبشر بخير، وللمرة الأولى ابتسم في وجه محاميه الشاب والأخير يعده للجلسة الأخيرة..

ظلَّ مستيقظا في ذلك اليوم، وعندما أخذوه للمحكمة شعر بثقل في جفنيه، حاول التماسك، ثم قدر أن الرحلة تستغرق ساعة تقريبا، فقرر الظفر ببعض الراحة..

خيـل إليـه أن نومه قـد اسـتغرق دقيقة واحـدة، أفـاق بعدها على صخب وضوضاء..

نظـر من خلال النافذة مشـدوها، فأبصر حشـودا غاضبة، ورجال صحافة وفلاشات كاميرات تصوير تومض بلا هوادة!

- «اللعنة!»..

قالها الشـرطي وهو يجاهـد لفتح الباب الذي التصق به عشـرات المراسلين، في حين تمكن (جرير) من رؤية لافتات تحمل اسمه مع تهديدات مروعة بالذبح!

■ ■ ■

فـي ليلته الأخيرة بين جدران السـجن سـمع صوتـا أجفله، فهبَّ واقفـا والعـرق يتكاثـف على جلـده، أبصر ضـوءا ضعيفا كالشـمعة يتحرك في الظلام!

تـرك (جرير) عرقه يبلغ ذقنه وعنقـه، وتراجع حتى اصطدم ظهره بالجـدار، عندهـا تلفـت كالمخبـول مـرددا كلامـا غيـر مفهـوم، بدا كالمدرك لدنو أجله، النهاية باتت وشيكة! وجلس أرضا متابعا ترديد الترهات!

شعر بحركة جديدة وقريبة منه جدا، فأطلق الصرخة تلو الصرخة، ثم توقف وقد علت وجهه مسـحة ذهول، واشـتدت أكثر لدى سماع

ذلك الصوت الأنثوي القديم الذي تناساه في غمار الأحداث المؤسفة:

- لماذا تركتني؟

- (نرجس)؟!

- لِمَ فعلتها يا جاحد؟

- أنا؟!

- أنت خائن قذر تناسى أن له خطيبة محبة.. كنا سنتزوج أيها الشيطان!

- لا يا (نرجس)! لا تصدقي ما قيل عني!

- لن أثق بك بعد الآن يا شريك الشيطان!

- أنتِ لا تعلمين شيئا، إن قوى مفزعة غير مفهومة تسكن روح الشيطان الحقيقي الذي وضعني في هذا كله، لن تصدقي وجودها ما لم تريها!

- ربما رأيتُ الهول مسبقا، لكنني متماسكة الآن ولا أهاب الموت..

- ماذا تعنين؟!

- أقصد أن إساءتك ظلت معتمرة في نفسي، والحب انقلب كرها! لقد أحببتك فبادلت الحب كراهية!

- أنا أحبكِ! ماذا تقولين بالله عليكِ؟



- لذا عاقبتك وعاقبت نفسي على حماقتي!

تبدل لونه لصفرة شاحبة، وزحف وهو يهتف ذاهلا:

- ماذا فعلتِ بنفسكِ يا (نرجس)؟!

- الوداع يا (جرير)! سأنتظر روحك لتلحق بروحي في الطرف الملعون من جهنم!

صرخ (جرير) وعيناه تجحظان حتى كادتا تخرجان من محجريهما، وتدلى لسانه وهو ينوح كالنساء، ورددت دهاليز عقله دوامة من الأصوات الشيطانية العابثة، وتمنى الصمت ولو أصيب بالصمم، لكن الأصوات ظلت ترتفع وترتفع، ساخرة منه، متهمة إياه بالكراهية، بدفع خطيبته إلى هوة الانتحار!

كادت الأفكار الجنونية السوداء تمزق عقله تمزيقا، فتمنى لو أن سلاحا كان بيده ليحشره حشرا في حلقه، ومن ثم يطلق النار بيأس وألم!



12

ذات ليلـة، سـأل (ملاك) وهو يراقب تناوله طعام العشـاء بشـهية مفتوحة:

- هل تحلم أنت يا (ملاك)؟

- بالطبع!

- بم تحلم بالضبط؟

تنهـد السـفاح المليح بحرارة، ووضع كسـرة الخبـز على الصينية مجيبا بوجل:

- أحلم بالعودة..

- العودة إلى أين؟

- إلى حيث أنتمي، ولربما حيث أتمكن من إيجادها!

- إيجاد من؟

صارحه (ملاك) بحكاية حزينة عن طفلة شاطرته جُلَّ همومه، صارحه بالعاطفة التي دفعته للبحث عنها دون تمكنه من إيجادها لغاية الآن، فتمتم (جرير) بوجه عابس ونبرة باردة:

- كان هذا هدفا أسمى من سلسلة القتل المروع..

هنا برقت عينا (ملاك) مدمدما بغموض:

- لأجل ذلك الهدف تحديدا قتلت!

- ما قصدك؟

- «أين بإمكانك إيجاد عشرات الوحوش الثائرة الساعية وراءك؟ كلاب شيطانية وساحرات أحرقن ومشعوذون؟»..

- ماذا قلت؟!

وارتسم تعبير مضحك على وجه (جرير)، فابتسم (ملاك) قائلا وهو يغمز بعينه اليسرى:

- لو عرفتَ الإجابة لانكشف لك سري على الفور!

للأسف لم يُجب، وحتى اليوم بحث (جرير) عن إجابة مقنعة فلم يجد سوى إجابة واهنة: إن (ملاك) مجرد مخبول لا أكثر!

كان (جرير) يفكر في تلكم الأمسيات الباردة وهو يراقب خارطة الدوائر الحمر مترامية الأطراف.. كل القرى والمدن والأحياء التي زارها السفاح سابقا كي يرتكب جرائمه العجيبة..

كان واقفا بسترة بنية، ومن حزامه تدلت مدية الجيش التي حازها بجدارة عقب إنهائه الخدمة العسكرية، وعلى السرير وضع حقيبة جلدية ملأها بطعام معلب..

ثم استخرج من صندوق أحذية قديم مسدسا من نوع «براونينغ بي دي إم» الحاوي لخزينة تتسع لعشر طلقات ولخيارين.. أحدهما تحويل آلية خاصة موجودة علي جانب السلاح الأول، وهو وضع حركة الزناد المزدوجة التقليدية، والآخر كان وضع حركة الزناد المزدوجة اليدوية..

دسَّ خزانة الطلقات في سلاحه، ثم ألقاه على السرير واتجه للخارطة المعلقة على الجدار..

ببطء شرع ينزع دبابيس الخارطة متذكرا جنازة (نرجس) التي حضرها مستترا بجدران المقبرة، تذكر مشاعر مندمجة مختلطة ما بين الحزن والذهول كانت تتلاعب بعقله المشتت، دافعة إياه لمحاولة اللحاق بها للعالم الآخر كعقابٍ عادل!

ترى هل زارته في زنزانته ليلة ألقت بنفسها من شرفة البناية؟

هل كانت تنذره بمصير أسود ينتظره؟

هل كان السبب حقا في موتها؟

والاهم من هذا كله.. هل لديه الشفافية الكافية لتكرار تلكم الصور الروحانية الغامضة، لكي يتمكن من الوصول إلى حيث يختبئ (ملاك) الجهنمي؟!

كان يفكر في أجوبة لكل تلك الأسئلة المخيفة وهو يطوي خارطة جرائم السفاح بعناية، قبل أن يدسها في جيب سترته الداخلي..

تناول الحقيبة من على فراشه، وألقى بنظرة أخيرة مودعة على شقته..

وقبل أن يخرج قام بإطفاء الأنوار..

■ ■ ■

يوم من أيام الربيع

جلس (ملاك) شارد الذهن وقد بدا عليه الوجوم..

لم يلحظ اقتراب (هايا) منه إلا حينما حجبت له بصره بكفيها الصغيرتين هامسة برقة:

- احزر من؟

- لا يمكن أن تكوني مس (جليلة) مثلا!

أزاحت كفيها عن عينيه، وضحكت قائلة له:

- فيم تفكر؟

- بالحياة التي نحياها.. وبالحياة التي سنحياها..



سألته وهي تجلس إلى جواره:

- ما الذي تقصده؟

- أقصد الحاضر والمستقبل..

- والماضي؟

- أحاول نسيانه بشتى الوسائل.. ما فائدة تذكر أن والدتي قد حاولت التخلص مني وأنا بعد مولود؟

- أتصدق هذه الحكاية يا (ملاك)؟ أتصدق أن أما تفعل ذلك بطفلها؟

- ولِمَ لا؟ البشر ليسوا ملائكة!

صمتا لوهلة تأملا خلالها زرقة السماء الصافية، ثم همست (هايا):

- يوما ما سأكون أما جيدة..

ابتسم لها وهو يمسك يدها البضة الرقيقة بحرص قائلا:

- ستكونين أعظم أم!

وعاودا النظر للسماء قبل أن يتابع قوله متفائلا:

- لعل الغد يكون أكثر إشراقا.. لعل المستقبل يخبئ لنا بعضا من مسراته التي لم نعرفها لغاية الآن!





قرية الخرافات





13

الشـمس تظهر فينـة وتتوارى فينـة، بين الغيوم البيضـاء المتكاثفة بعض الشيء، في السماء ذات الزرقة الباهتة..

ووسـط الحقول البديعـة مترامية الأطراف، والتـي أضافت مزيدا من اللمسـات الفنية لهذه اللوحة الطبيعية، المرسـومة بريشة الخالق فـي ذات صبـاح يسـبح بحمـده، سـار ذلك الشـاب المنهـك حاملا حقيبته الشبيهة بحقائب الجيش بذراع متصلبة العروق..

لم تتسـرب قطرة عـرق واحدة من جبينه، رغـم الجهد الذي بذله في حمل تلك الحقيبة الثقيلة، ودون توقف ولو للحظة يلتقط خلالها أنفاسه..

ثمـة كهل فـلاح يمتطي حمارا يسـتحثه بعصا مـن الخيزران على الاستمرار في السير، رفع الفلاح رأسه وحركه بتحية قصيرة للشاب، صائحـا بصـوت مبحوح بعض الشـيء وهو يهدئ مـن خطى حماره حتى أوقفه تماما:

- أنت أيها الشاب، أنت غريب عن قريتنا، أليس كذلك؟

هز رأسه دلالة على صحة القول، فانتزع الفلاح من الخرج قربة تجرع منها الماء بنهم، قبل أن يمسح فمه بظاهر كفه..

- «من أي الديار أنت؟».

- «من أرض الله الواسعة!».

قالها متنهدا، فطالعه الفلاح بفضول قبيل سؤاله:

- أتريد مساعدة؟ تبدو تائها!

- شكرا لك..

لكز الفلاح حماره وابتعد.. ابتعد عن الشاب الذي أصلح من وضع الحمل الثقيل قبيل معاودته السير..

وهنا وقعت الجلبة، فاستدار الشاب ليجد أن الفلاح الكهل قد فقد توازنه فوق حماره، فسقط أرضا، ثم أمسك كاحله بكلتا يديه وهو يئن من بين أسنانه!

■ ■ ■

من بعيد، لاح كوخ كان من الواضح أنه مبتغاه، فسار حتى بلغ بابه..

دفعه برفق ودلف قبل أن يغلقه وراءه، واتجه لحجرة ضيقة ولجها ببطء..

الفـلاح الكهل كان راقدا على سـرير نهش السـوس خشـبه، وقد تلحف فوقه ببطانية ثقيلة وخشـنة، لاح عليه شـيء مـن الوهن، لكنه تمكن من الابتسام بإنهاك لدى رؤيته الشاب الذي دخل عليه..

- «كيف أصبح كاحلك يا عم (جابر)؟».

- «لا بأس، الحمد لله..».

فتح الشاب الصرة الملفوفة بعناية، فقال الكهل باسما:

- أراك تبتسم!

- كيف لا ونحن في هذه القرية الخلابة؟

ضحك الكهل الراقد ضحكة قصيرة، ثم قال متمطيا:

- قريتي هي جنة الله على الأرض!

- كلهم يقولون ذات الشيء، لكنني ميَّال لتصديقك أنت!

والآن انهـض، أتيتك ببعـض الطعام، خبز وبيـض وبعض الجبنة البيضاء..

- من أين؟

- من بعض الأهالي، كم هم طيبون! قالوا أنهم سيأتون لزيارتك، وحملوني دعواتهم وتمنياتهم بالشفاء العاجل لك.. إنهم كالملائكة!

تبدت بسمة باهتة على ثغر الكهل الراقد، وبنبرة متهدجة همس:

- أنت كالملاك يا (جرير)! والمصادفة السعيدة جمعتني بك..

بدت ابتسامة (جرير) أكثر بهتانا، وهو يناول الكهل رغيفا قائلا بوجوم:

- كل وكفاك مضيعة للوقت..

تجاهل (جابر) الرغيف وهو يقول بثبات:

- لكنك ملاك تائه!

وضع (جرير) الرغيف جانبا، فقد أدرك أن العجوز يرغب بالحديث فحسب، فقال بوجل:

- أبحث عن شخص..

- عزيز عليك؟

- جدا!

- قريب لك؟

- صديق..

- ولماذا تبحث عنه؟ ألهذه الدرجة مشتاق إليه؟

- جدا!

ضحك (جابر) وهو يمد يده أخيرا لالتقاط الرغيف، وببشاشة تساءل وهو يقضم منه:

- تبدو صداقة متينة!

أجاب (جرير) باسما بهدوء:



- بالطبع هي صداقة متينة.. متينة لدرجة القتل!

■ ■ ■

إبريق الشـاي يطلق نفيره المحتقن، فيسـارع عم (جابر) إلى رفعه من فوق نار الموقد القديم..

يقول وهو يضع بعض الميرامية مع الشاي في الماء المغلي:

- قصة عجيبة..

- إنها قصتي..

- أنت مظلوم يا بني، ولكن حان الوقت لكي تنسى..

- أنسى؟!

نطقها (جرير) ساخرا، فحدَّجه (جابر) بنظرة عتاب قائلا:

- أجل تنسـى! كم آسف أن يضيع شـاب مثلك حريته في مطاردة سراب كابوسي.. إن ذاك الوغد لا يستحق أن يصير دفة لحياتك!

- كلام لطيف، لكنه لن يقنعني مع الأسف..

قالها مشـعلا لنفسه سـيجارة، فطلب (جابر) واحدة، وباستخدام لهب الموقد أشعلها.. ثم قال وهو ينفث الدخان بإفراط من منخريه:

- هل لي بسؤال؟ كيف ستجد قاتلك هذا بحق الله؟

- في الوقت الراهن أزور ذات الأماكن الذي زارها قبلا حيث اقتنص أرواح ضحاياه، أحيانا يعود القاتل إلى مسرح الجريمة، وأحيانا أخرى..

- ماذا؟

- أحيانا أراه في المنام، أكاد لا أتبين ملامحه، يناديني وسط الظلال وسحب الضباب، أحاول أن ألحقه لكنني.. لا أقدر!

- كلام مخيف.. لِمَ تقول هذا يا بني؟

- يخيل إلي بأنه ينتظرني!



14

كانـت غايته مكانا مهجورا في بقعة شـبه منعزلـة، إقطاعية قديمة دمرهـا حريق ما، متصلة ببعضها بما يشـابه المتاهة، وقد بدت البقعة مبهجة بالخضار والأشجار، لولا منظر تلك الإقطاعية المهجورة..

لماذا قصد تلك الإقطاعية؟

الواقـع أن وراء ذلـك حكايـة.. فقـد اطمئـن علـى حـال الفـلاح (جابـر)، وقضى يوما كامـلا في القرية، علـى أن يغادرها في الصباح الباكر مع أولى نسائم الفجر..

قرابـة المغرب وبينما كان يتمشـى مستكشـفا أرجـاء القرية، رأى مجموعـة مـن الأطفـال المرحيـن، وقد التفوا بحماسـة حول شـيخ نحيل ظريف المعشـر، يضع كحلا لعينيه، يرتدي ثيابا زاهية الألوان، وطاقية مزركشة مضحكة الشكل، وقد أخذ يتواثب كالسعادين ومعه الأطفال يتضاحكون بجذل..

توقف (جرير) ليتأملهم راسما بسمة على ثغره الجاف.. كان يرى بعين الخيال مجموعة من الأطفال المرحين، يتدافعون حول كهل مرح ينادي على صندوق الدنيا المليء بالحكايات المسلية، ومن بين أولئك الأطفال، واحد لطالما كانت قرة عينه مشاركة أترابه متعة النظر من خلال فتحة الصندوق المهتريء في شغف!

كان هناك عم (زكريا) وصندوقه الملون الذي يحوي حكايا ألف ليلة وليلة، ذكريات لن ترجع، لكنها ستبقى في عقله وقلبه مدى الحياة..

أخذ الشيخ المرح يقهقه بأعلى صوته كمارد القمقم حين يخرج منه، مربتا على رؤوس الأطفال وهو يهتف بحماس:

- سأخرج الآن هذا المنديل الملون من أذن (سؤدد) الكبيرة، فراقبوا جيدا..

وشرع يسحب المنديل من أذن الصبي الضاحك..

- «ثم أدس المنديل في قبضتي هكذا..».

وعقب انتهائه، بسط يده لتخرج حمامة بيضاء رفرفت بجناحيها عاليا، فصفق الأطفال فرحين بما حصل!

هذه القرية لم تفسد بعد عن طريق وسائل الإعلام المختلفة كالتلفاز بقنواته الفضائية، أو عن طريق «الانترنت» لحسن الحظ!

كان الشيخ في تلك اللحظة عاكفا على إخراج فقاقيع الصابون من أذنيه بغزارة! وهو مشهد طريف حقا، جعل الأطفال يتضاحكون بأعلى أصواتهم، ثم توقف عن نثر الفقاقيع، وطفق يتأمل الوافد الجديد باهتمام ملحوظ..

بالأحرى كان موليا اهتمامه كله لجرير الآن، الذي حدق في عينيه الكحيلتين ببصر شارد، والغريب أن عرقا غزير بزغ على جبهته، لكنه لم يرفع يده لمسحه، ولم يحرك ساكنا..

- «عم (شحرور)! عم (شحرور)!».

كذا تصايح الأطفال ملتفين حول الشيخ النشيط، لكنه تجاهلهم هذه المرة وهو يقترب من (جرير)، ومدَّ يده إليه قائلا بمودة:

- في هذه القرية الكل أصدقاء العم (شحرور) حارس الأطفال!

نظر (جرير) إلى يده قبل أن يلتقطها مصافحا وهو يقول متبسما:

- من الواضح أنك بارع في عملك، فالأطفال يحبونك..

ربت على رؤوس الذين اقتربوا منهما متسائلا بحبور:

- وكيف هي حالك يا بني؟

ردَّ (جرير) متفرسا في ملامحه:

- هل تعرفني أيها الرجل الطيب؟

- وهل من الضروري أن أعرفك كي أسأل عن حالك؟

ثمة أمر غير مفهوم متعلق بهذا العجوز البشوش، أمر يصعب إدراكه، فقد بدا مبتهجا كمن وجد ضالته أخيرا بعد بحثٍ مضن، نظراته تشي أسرارا مخفية في نفسه، و(جرير) ساكن منتظر..

تساءل العم (شحرور):

- ما الذي تريده يا بني؟

- ما الذي أريده؟ أنا لا أفهم..

- ما الذي تريده حقا؟ النجاة من اختبار عقيم؟ أم تحقيق أعظم أمر؟

- ماذا تقصد؟

قاطعه (شحرور) وهو ينظر للسماء:

- الشمس شارفت على الرحيل، يجدر بي أن أحذو حذوها الآن!

كان الأطفال قد تفرقوا من حوله منذ فترة، ومدَّ يده بغية مصافحة (جرير)، الذي مدَّ يده هو الآخر تلقائيا.. كانت يد الشيخ باردة كالجليد، ولما حاول (جرير) تخليص يده سمعه يقول:

- انتظر يا بني..

وسدد بنظرة هائمة شاردة عندما همس كأنه يناجي نفسه:

- اقصد الأطلال القديمة للقرية حيث الإقطاعية المهجورة، هناك ستجد مبتغاك بإذن الله!

- ماذا قلت؟!

أفلت الشيخ يد الشاب المذهول، ثم ابتعد بخطوات واسعة قائلا وهو يرفع قبضته:

- أرجو أن تجد ما تبحث عنه يا فتى!

- انتظر.. ألن تطلعني على سر ما ذكرته على الأقل؟

لكن الشيخ غريب الأطوار سرعان ما ابتعد ملوحا لجرير بذراعه، دون أن ينظر إليه وهو يرفع عقيرته بالغناء..

سمعه فقط يهتف:

- في الأطلال القديمة ستنال مبتغاك!

■ ■ ■

دخل (جرير) من إحدى الفجوات، وسار ذات اليمين وذات الشمال متنقلا بين حجرات ذاك «اللابيرنث»..

لقد أطلع العم (جابر) على حكاية ذاك «الشحرور»، فضحك الأخير قائلا وهو يدور سبابته جوار صدغه:

- إنه مجرد عجوز مسكين خرف، ومعظم الأهالي هنا سذج لدرجة التبرك به!

ألح (جرير) عليه أن يوجهه إلى حيث تلكم الأطلال التي قصدها شحرور بكلامه، فقال (جابر) بدهشة:

- لا تقل لي بأنك صدقت ترهاته!



- لم أصدق، اعتبرني سائحا يبحث عن آثار قديمة بغية معاينتها، كالدهاليز الداخلية لأهرامات الجيزة!

- يا لك من أحمق! ليكن..

■ ■ ■

أخيرا بلغ حجرة بلا سقف، في إحدى زواياها سلم حجري ممتد لفوق، مما جعل المكان بادٍ كقلعة مهجورة، فجلس على الأرض مسندا ظهره للحائط كثير التشققات، وشرع يتأمل من كوة واسعة في الجدار المقابل الخضرة البهيجة في الخارج، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة متهدجة..

■ ■ ■

- «كيف تلعب هذه اللعبة؟».

كذا تساءل الصبي (نزار) باهتمام، فوجَّه (جرير) الذي يماثله عمرا بصره نحو الصبية العشرة الذين التفوا حوله، قائلا لهم وهو يلوح بسعف نخلة كان في يده:

- الأمر بسيط، ينطلق فريقان في الخرابة بعد تسلح الجميع بالعصي، وإذا لمست عصا واحد من الفريق جزءا من جسم واحدٍ من أعضاء الفريق الآخر يخرج من اللعبة، ويفوز الفريق الذي يتبقى فيه واحد على الأقل من دون أن يمس..

تبدت الحماسة في وجوههم، فهكذا هم الصبية، يحبذون الألعاب المتعبة في الأماكن الخطرة، لكم نهتهم أمهاتهم من الذهاب إلى الخرائب مرارا وتكرارا ولم ينتهوا، ولكم حاولت جداتهم إخافتهم بحكاية الصبي الذي ذهب إليها ولم يعد أبدا، وكيف أن رجال القرى المجاورة شاركوا في البحث عنه طويلا، ولم يجدوا سوى طاقيته وأحد نعليه، فرجعوا كي يشيعوا بين الناس أن «ملكة الجان» قد اختطفت الولد إلى مملكتها! وحكوا للصغار حكايات مروعة عن قدرة تلك الملكة على تغيير صوتها لنبرة يألفها السامع، فيهرع إلى مصدره ظنا منه أنه شخص يعرفه!

ورغم ذلك كله عاود الصبية الذهاب، وقد رسموا خطة طريفة في حال حاولت الملكة خداع أحدهم، فقد ابتدعوا كلمة سر فيما بينهم للتأكد من هوية من ينادي على أحدهم وهم متفرقين عن بعض!

تعددت زياراتهم للخرائب لما اتضح لهم أنها آمنة، وصار ذلك سرهم الدفين والثمين، الخرائب قلعتهم الحصينة والمسلية..

- «هل نبدأ اللعب؟».

- «ولِمَ لا؟».

ويمسك (جرير) عصاه كمن يحمل سيفا استعدادا للمبارزة..

كان غارقا في ذلك الكم من الخواطر والذكريات، فلم يدر متى أو كيف غفا في مكانه..

وجـد نفسـه واقفـا فـي دربٍ ضبابـي شـديد البـرودة، واسـتطاع بصعوبة تبين ظلال مبهمة لأجسـاد ملتوية كأنها تتعذب، ولما اقترب منها وجدها مجرد أشـجار، تنعق على أغصانها المتكسـرة عشـرات الغربان السوداء..

ثم سـمع صوتا أنثويا يناديه، صوتا مألوف النبرة، وإن شـابه شيء من الصدى، فاسـتدار ليجدها معلقة في الهواء، مرتدية عباءة سـوداء فضفاضـة، وشـعرها الأسـود الثائر يتطاير حول رأسـها كمـا لو كان مجموعة من الثعابين، وجهها مختبئ في الظلال تستحيل رؤيته، وقد أشارت له كي يدنو منها بأنامل معروقة ذات مخالب سود شيطانية!

«ملكـة الجـان» كمـا تخيلها تماما في عقله، وشـاهدها في أسـوأ كوابيسه..

- «بني!».

تصلب شعر رأسه لدى سماعه صوتها..

- «ألا تهرع للقاء أمك؟».

تذكر حكايات الجـدات عنها، وكيف أنها تغير صوتها بآخر يألفه السـامع فيصدقـه، فحـاول الابتسـام معلنا فشـل حيلتها معـه، إلا أن عبراته سبقت عباراته وهو يدنو منها قليلا، ثم تساءل حائرا ضائعا:

- أماه؟!

راوده الحنين لصدرها الدافئ، وتملكته الرغبة لإراحة رأسه المثقل بالهموم والهلوسات في حجرها الحبيب ثانية..

- «بني!».

- «أماه!».

- «ألا تهرع للقاء أمك؟»..

وانخفض جسدها العائم في الهواء، فاقترب منها وهو يقول بفكر مبلبل:

- لكنكِ ميتة؟!

فما إن صار على قيد أنملة منها حتى أطبقت مخالبها على عنقه بإحكام، وتلاشى الشعر والجسد لتبقى المخالب، ثم تلاشت الظلال المعتمة لذلك الوجه المبهم ليتبدى واضحا جليا الآن..

وجد نفسه في بحر من الدماء تتقرقع بين أمواجه المتلاطمة عشرات الجثث العارية، فصرخ بصوت مختنق:

- من أنت؟!

- أنا الذي تكلم عنه الأعوان بهمس غير مسموع!! أنا علة نصف البشر!!

رأى (جرير) ابتسامة غارقة بالدماء البشرية الطازجة، وأبصر خطاطيف معدنية سوداء متدلية من السماء، تتأرجح هنا وهناك كي تصطاد الجثث من البحر الدموي كالصنانير التي تقتنص الأسماك!

وصرخ (جرير) أقسى صرخاته وأعنفها لبشاعة المنظر.. كانت صرخة مروعة، تردد صداها مطولا في أجواء العالم الكابوسي..

ثم تلاشى كل شيء من حوله كما لو كان في عالم قبل ولوجه آخر، ولهث بشدة عندما تناهى لمسامعه صوت يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم، لا بد وأنه كابوس يا بني فاهدأ!

■ ■ ■

التفت (جرير) إلى محدثه بوجه غارق بالعرق، وبإنهاك تساءل:

- أين أنا؟

- أنت في داري التي هي دارك يا بني..

كان رجلا طيب الملامح، يمسح له جبينه بخرقة مبلولة بماء بارد، وبالقرب منه تجلس فتاة مليحة حاملة وعاء الماء..

قال الرجل مواصلا عمله:

- لقد داهمتك حمى ليومين بقيت تهذي خلالهما بكلمات مبهمة..

- ماذا قلت؟

أهو حلم جديد؟ كابوس جديد؟

والرجل لا زال يتكلم:

- وجدتك (أحلام) ابنتي في الخرائب القديمة، وهي التي سهرت على رعايتك ومداواتك بأعشابها الطبية..

كان (جرير) قد هدأ لحد كبير الآن، فالتفت إلى الفتاة قائلا بامتنان:

- أنا مدين لها بحياتي إذن..

تخضب وجهها بلون وردي نضر لما همست بحياء:

- أشكر الله الذي لطف بك أيها الغريب..

حاول النهوض من رقاده، لكن دوارا مزعجا وعنيفا هاجم رأسه جاعلا إياه يترنح بعض الشيء، فاستند إلى كتف والد الفتاة ممسكا جبهته بأصابع قاسية وهو يقول بوهن:

- أشعر بأنني خائر القوى تماما..

تبسم الرجل الطيب وهو يرد قائلا:

- هذا لأنك لم تأكل، هلم فابنتي (أحلام) قد أولمت لك وليمة تنتظر أسنانك!

وفي الهواء الطلق وعلى حصيرة من قش، وأمام حمل تم شيه بعناية، جلس (جرير) ولعابه يسيل للمنظر والرائحة، في حين تربع والد الفتاة بجواره مشمرا عن ذراعيه وهو يقول:

- بسم الله يا بني، الضيف ضيف الله والبخيل عدو الله..

- بسم الله الرحمن الرحيم..

غـرف (جرير) بيده من صينية الطعام ومـلأ فمه بنهم، كان الطعام شهيا للغاية، وصاحب الدار يقول مجاريا ضيفه في الأكل لتحفيزه:

- كل يا بني، فعيار الشبعان أربعين لقمة..

وفـي الختام صـار الحمل هيـكلا مجردا مـن اللحـم.. قد كانت أطيب أكلة تناولها (جرير) في حياته كلها!

- «الحمد لله، ربنا أدمها علينا نعمة..».

قالاها كل على حدة برضا الشبعان، ثم نهض صاحب الدار داعيا ضيفه لكي يغتسـل.. وبعـد أن فرغا وضعت لهمـا (أحلام) طبقا من الفاكهة الشهية، فجلسا ليأكلا منها ويتبادلان الأحاديث..

قال (جرير) لمضيفه المنهمك بتقشير برتقالة:

- الحقيقة يا سيدي أنك أخجلتني بكرمك الزائد، ولا أدري كيف أرد لك المعروف..

ناوله البرتقالة مقشرة بالكامل مجيبا:

- بأن تصمت وتأكل حتى تستعيد عافيتك بالكامل..

- ألن تسألني على الأقل عن اسمي؟ عمن أكون؟

- أعلم من تكون، أنت ضيفي!

- على العموم اسمي هو (جرير).. على اسم الشاعر!

- حياك الله يا (جرير) في دارك!

صمت (جرير) برهة قبل أن يتمتم مرتبكا:



- هل تأذن لي بالخروج قليلا؟

- افعل ما يريحك وأنت مطمئن البال..

وهكذا وجد (جرير) نفسه خارج الدار أخيرا، فسار وهو يملأ بصره بالمشاهد البديعة للأشجار المثمرة، والمساحات الشاسعة للحقول الخضراء، تذكر تلك الأيام العصيبة، لما كان راقدا داخل زنزانته التي أولجه (ملاك) إياها، والآن فقط شعر أنه تحرر..

سار متأملا الشمس وقد شارفت على المغيب.. غروب حزين، يا له من منظر آسر ومحير، ما القوة التي تعصر فؤاده مجبرة إياه على العبوس لدى مشاهدته الغروب؟ ألأنها تغرب دائما ومعها أحباب وأصحاب؟ أم لأن ذاكرته عن الغروب حملت أقسى ملامح الحزن التي عرفها في حياته؟

كان هنالك راع صغير السن يعزف على نايه، وخرفان تجتر العشب هنا وهناك من أمامه.. يجلس أسفل شجرة كبيرة دون أن يهتم بمراقبة حيواناته العجماء، كما لو كان يركز على الألحان التي يعزفها بحس مرهف، فشعر (جرير) أنه سيبكي.. ما أعذب تلك الألحان وما أجملها! شعر بها تنطق كلمات مريرة معتمرة في قلبه..

أنصت بقلبه أكثر من أذنيه، وأغمض عينيه طويلا لتلافي مشاهدة المزيد من الغروب الحزين..

ارتفع صوت أذان صلاة المغرب بغتة، فكفَّ الراعي الصغير عن العزف، ثم نهض ليقتاد قطيعه الصغير في رحلة العودة..

شعر (جرير) بالراحة، أذان المغرب بدل حزنه العميق باطمئنان أعمق، شاعرا بذلك الارتياح الغامض الذي يداهمه كلما أنصت للأذان، فجعل سمعه دليله إلى حيث مسجد القرية، حيث صلى مع الجماعة بخشوع أقوى من أي وقت مضى، وعقب الصلاة رفع كفيه بالدعاء متضرعا إلى ربه كي ينجيه من الكوابيس ومن مخالب الشيطان..

فرغ من دعاء طويل، فمسح وجهه بكفيه، ثم نهض خارجا مع باقي المصلين.. شعر ببهجة لم يكدرها سوى تفكير عابر بأن القرية تبدت له مختلفة بعض الشيء.. وأبصر في الساحة والد (أحلام) واقفا بصحبة رجلين يكبرانه سنا، لمح والد (أحلام) يشير له ببشاشة، فدنا باسما..

صافحه قائلا:

- تقبل الله يا بني، أعرفك على شقيقي الحاج (عبد الجليل الرهباني)، هو مختار قريتنا أيضًا، وهذا جارنا (شعلان)..

- تشرفنا..

حدَّجه المختار بنظرات متفحصة، قبل تساؤله بنبرة اهتمام:

- أبـو (أحلام) قال أنها وجدتـك في الأنقاض القديمة للإقطاعية المهجورة شمال قريتنا، فما الذي كنت تصنعه هناك يا بني؟

- سمعت بوجود شيء هناك..

- شيء؟ شيء مثل ماذا؟

- حكايات غريبة عجيبة، عن..

وصمـت كأنمـا اسـتصعب إيجـاد تعبير مناسـب، فهتـف الرجل (شعلان) بنبرة حادة:

- ومـن أخبـرك بوجود شـيء هناك؟ وكيف صدقـت ذلك وأنت رجل بالغ؟

حدَّجه (جرير) بنظرات مسـتنكرة، في حين هدأ المختار من روع الرجل بقوله:

- تريـث يا (شـعلان)، دعنا نتبيـن الأمر بترو.. وأنـت يا بني، ألن تخبرنا عن الذي أخبرك بهذه الأمور؟

- الحكايات تتناقلها القرى الأخرى منذ زمن، ثم إن..

صاح (شعلان) مقاطعا إياه بسخط:

- أنت تكذب! لا أحد يعلم حكاية الأغا غيرنا!

وضع المختار راحة يده على كتف (شعلان) قائلا له بحزم:

- اهدأ، لا بد وأنه يقصد حكاية الشبان الذين اختفوا منذ زمن!

قال (جرير) وعقله يكاد ينفجر من فرط الأسئلة المحتشدة بداخله:

- أجل، أجل، بالضبط!

- ما الذي رأيته هناك وجعلك تفقد وعيك؟

قرأ فضولا نهما في وجوههم، فتظاهر بمراقبة خطوط النمل السائرة على التراب مجيبا:

- أخبركم إذا حكيتم لي عن الأغا.. من يكون بالضبط؟

تحركت قدما المختار فتحرك ثلاثتهم معه، وقال مخرجا من جيبه غليونا خشبيا:

- دعنا نشرب الشاي في داري وبعدها نتحدث..



15

جلسـوا على كراس يدوية الصنع من الخيزران، يشـربون الشـاي فـي جو لطيف النسـائم وتحـت ضوء القمر.. لكـن وجوههم نطقت بالعبوس لما سيقال، وكان المختار هو أول من تكلم:

- كان ذلـك على أيـام والدي المختار - رحمـه الله- حين كنتُ صبيا صغيرا..

فـي تلـك الفترة عمل أهالـي قريتنا في أراضـي إقطاعي تركي من أصـل يهودي، وهـو الأغا الذي كان (شـعلان) يقصـده.. كان رجلا قاسـيا وبغيضا لأبعد الحدود، يحتكر جهود الفلاحين البسطاء مقابل أجـور زهيدة، بالكاد تسـد جوعهم وجوع أطفالهـم، وقد اعتاد الأغا على إقـراض الناس بالربا الفاحش، وإقامـة حفلات تغضب الله في إقطاعيته تلك، التي صارت اليوم مجرد أنقاض مهجورة..

كان كشيطان جامح، خلق في الأرض ليعيث بها فسادا..

أما ابنته فقد كانت صورة طبق الأصل عن والدها في شره، فاتنة شقراء ذات عيون خضر، اعتادت الخروج إلى الحقول ممتطية حصانها الأبيض لتلهب قلوب وعقول شباب القرية، فتجعلهم يقتتلون أملا بالظفر بابتسامة منها!

وفي أحد الأيام قدم للقرية شاب مسلح ببندقية، نزل ضيفا عند والدي وجدي - رحمهما الله- فقاما بإطعامه وإيوائه.. علمنا أنه مجاهد مطلوب من قوات الاستعمار، ففتحنا له قلوبنا وبيوتنا، لكنه أصر على العمل في الحقول لقاء ذلك كله..

وذات يوم خرجت ابنة الأغا على صهوة جوادها إلى الحقول لمعابثة الشبان كالعادة، وهناك وقع بصرها على الفتى الذي كان وسيما مشدود الجسم، فكان عشقا من النظرة الأولى، لكن من طرف واحد فقط!

صارت تأتي كل يوم لرؤيته حاملة معها أطيب أصناف الطعام والشراب والحلويات، إلا أن الشاب احتقرها ونبذها لمعرفته بصنائعها مع فتية القرية، أما عنها فلقد كانت على أتم استعداد لترك حياة الرفاهية، وحتى الديانة اليهودية كلها في سبيل الحصول عليه! أخبرته أنها ستهرب معه حيث يشاء إن صار لها للأبد، لكن الحقيقة التي لم تعرفها الطفلة اليهودية المدللة إلا فيما بعد، هي أن الفتى كان متيما بهوى فتاة حسناء من قريتنا، وهب لها قلبه منذ اللحظة الأولى

التـي وقع بصـره عليها، فكم من مـرة رمقها بنظـرات الحب، قبل أن يحمر وجهها وتهرع إلى دار أهلها!

ثـم جاء ذلك اليوم المشئوم الذي خرجت فيه ابنـة الأغا لملاقاة حبيبها متلهفة، كانت متأنقة ومعتنية بتبرجها كي تبهره، وعندما بلغت الحقل شاهدته معها..

كانـا ينظران لبعضهما بحبٍ وشـوق، وقد كان ذلك كافيا لاندلاع نيران الغيرة في قلب الطفلة اليهودية بلا هوادة، فانتظرت ريثما يحمل الفتى فأسه، ويشرع في مساعدتنا في الحرث، وذهبت فتاته لمساعدة النسوة في تحضير الزاد للفلاحين..

ثم وقعت أبصارنا جميعا على المشهد المروع لحظة وقوعه..

فقد اندفعت ابنة الأغـا بجوادها والكراهية تطل من عينيها كلهب النار، فقضت على غريمتها المسـكينة بدهسها بين سنابك الحصان، ثم انطلقت عائدة للمنزل مخلفة جثة خالية من الروح!

جـن جنـون الفتى المسـكين، وبكى بكاءا مريرا وهـو يحمل جثة حبيبتـه بيـن ذراعيـه.. ماتـت والدة الفتـاة كمـدا وحزنا علـى ابنتها، واعتلـت صحة الوالد بشـدة قبل لحاقـه بزوجه وابنتـه، فاعتبر الفتى المفجوع نفسه السبب فيما أصاب تلك الأسرة المنكوبة..

قرر الانتقام بشراسـة من الأسـرة الإقطاعية بالمقابل، فاختار ليلة من الليالي الحالكة، وحفر في بقعة من الأرض كي يسـتخرج بندقيته

التي دفنها هناك، وكذلك حزام الطلقات، ثم اتجه إلى الإقطاعية عازما على إغراقها بدماء من يقطنوها.. في تلك الليلة الهوجاء سمعنا صوت إطلاق رصاص عنيف، ثم فوجئنا بالنيران تندلع في الإقطاعية.. انطلق والدي وعدد كبير من الفلاحين إلى هناك بغية إخماد الحريق، وإنقاذ من يمكن إنقاذه، فوجدوا جثث الأغا وزبانيته وقد أتت عليها النيران، في حين وقفت ابنته بجوار جثة أبيها وهي لا تكف عن الصراخ، وقد فقدت عقلها تماما..

أنقذوها، لكنهم لم يجدوا أي أثر للفتى أو حتى لجثته عقب إخماد الحريق، وتردد بأنه قد رحل بعد أن أتم انتقامه المروع..

لكن الحكاية لم تنته عند ذلك الحد، أو أنها انتهت قبل أن تبدأ عقب إيجاد جثة ابنة الأغا متدلية من شجرة عبر حبل شنقت نفسها به!

إذ انتشرت لاحقا حوادث لاختفاء شبان القرية بطرق غامضة، وأشيع يومها أن الغيلان هاجمت أولئك الشبان ليلا، وحملتهم إلى مملكتهم الرهيبة تحت الأرض لتعذيبهم أو التهامهم!

■ ■ ■

ويواصل الشيخ (عبد الجليل) سرد الحكاية بتأثر واضح:

- استمرت حوادث اختفاء الفتية، حتى لم يتبق منهم سوى فئة قليلة، نمنعها بقدر هائل من الجهد والحزم كي لا يخرجوا في جنح الظلام، فيلاقوا نفس المصير.. خبر ضيفنا عن ولدك يا (شعلان)..

قال الرجل بملامح مكفهرة:

- كان ولدي (سعفان) يسألني بإلحاح عن الأشباح التي تقطن إقطاعية الأغا المهجورة، فأنذرته ألا يفكر بالذهاب إلى ذلك المكان لأنه ملعون، ولأن الممنوع مرغوب فقد التحق هو الآخر بركب الفتية المفقودين!

قال (جرير):

- إذن فشبان القرية يحاولون كبح جماح فضولهم بزيارة الإقطاعية المهجورة، فلماذا لم تدمروها عن بكرة أبيها إذن؟

ردَّ المختار بشرود ذهن:

- لأن أهالي القرية يؤمنون بأن أبناءهم سيعودون يوما، لذلك عارضوا بشدة تدمير الإقطاعية.. ثمة شائعة بين النسوة بأن شبح ابنة الأغا يواصل ألاعيبه مع الشبان، حيث يختطفهم من ذويهم، ولذا فهم يأملون عودتهم!

- يا لها من حكاية!

- أرجو من الله أن تكون حكايتك أعجب!

ابتسم (جرير) برغمه صامتا، فقال المختار متأملا إياه:



- ما الذي رأيته في الإقطاعية المهجورة؟

رأى أبصار ثلاثتهم مثبتة عليه بانتظار الإجابة، فردَّ ببساطة تامة:

- يا سادة لا تتوقعوا من حكايتي الكثير، حاولتُ بدافع الفضول اكتشاف شيء لسبر أغوار أسطورة اختفاء شبان قريتكم، فكان ما نلته الإصابة بغيبوبة داء السكري الذي أعانيه!

تساءل (شعلان) بخيبة أمل:

- أهذا كل شيء؟

- مع الأسف..

حدَّجه المختار بنظرة طويلة متفحصة، ومن ثم قال بوجل:

- لا بأس، حمدا لله على سلامتك..

- الله يسلمك..

لكنه لم يكف عن رمقه بتلك النظرات غير المصدقة لكلامه..



16

في تلك الليلة نال الأرق من (جرير)، فتسلل إلى الحوش محاذرا إيقاظ أحدٍ من أهل الدار..

رفـع بصـره ناظـرا إلى وجـه القمر الباسـم كمـا ذكـرت الحكاية القديمة، وفي ذهنه التمع سـؤال أزلي.. أين تراه يكون (ملاك) الآن؟ هل يواصل سلسلة القتل القديم والشنيع؟

أتراه ينتظره؟

لكـن بعض الخـواطـر ضايقت وجدانه بشـدة، كعجزه عن الإتيان بشـيء يحول دون حدوث ذلك، قد كان خطبا مزعجا وبغيضا لأبعد الحدود أن يشعر بالعجز إلى ذلك الحد..

وتنهد (جرير) شـاعرا بألمه النفسـي ينقلب لسـقر يكوي بدنه من الداخل..

سدد بناظريه للسماء، فأبصر القمر من جديد..

سرح بأفكاره في دهاليز يلجها للمرة الأولى.. في الكراهية تفكر، كيف أنها تعشش في القلوب، فتميت المشاعر جاعلة إياها سوداء هامدة..

وعن الحمق البشري تفكر، وكيف أن أفكارا بحد ذاتها هي ما تصنع مصائر الرجال..

وبينما هو على تلك الحال أبصر ظلا تراءى أمامه على الأرض، فالتفت ليعرف صاحبه، فوجد الفتاة (أحلام) واقفة!

سألته:

- عاجز عن النوم؟

- إنه الأرق اللعين!

- أطلعني والدي على ما دار بينكم عند عمي المختار..

- وما رأيكِ أنت؟ أتراها الأشباح سبب اختفاء فتيانكم؟

رمقته بنظرة طويلة قبل أن ترد:

- أخشى أن تقول عني مجنونة..

- عنكِ أنتِ؟ أقسم بالله العظيم ألا أنعتكِ بذلك أبدا!

تورد وجهها قليلا، فشعر بالحرج من حماسته، وبدا وكأنها تغالب شعورها بالخجل بصعوبة وهي تهمس:

- أعطني يدك!

كانت تلك أمنية بالنسـبة له، فلم يكن يتوقع أبدا مثل هذا المطلب الرائع منها، فلباه بكل سرور ودون تساؤلات..

تناولت كفه بأناملها، ورسـمت خطـا بإصبعها على خطوط راحة كفه المبسوطة، فتبسم قائلا بتهكم لم يتمكن من السيطرة عليه:

- ماذا؟ ستطالعين لي البخت؟

ابتسمت هي الأخرى قائلة بخجل:

- شيء من هذا القبيل!

أغمضـت عيناهـا كأنما تتخيل، فصمت وهـو يملأ بصره بملامح وجهها النضرة..

- «قدمتَ عبر رحلة شاقة وصعبة..»..

قال مستشـعرا لـذة ملمس أناملها الرقيقة في كفه الخشـنة الكبيرة نوعا:

- أصبتِ يا زرقاء اليمامة!

تجاهلت سخريته متابعة بنبرة حائرة:

- أرى قاتلا.. وأرى قتيلا!

■ ■ ■

بدا تعبير خواء على وجه (جرير)..

- «أثمة خطب ما؟».



أجاب شاردا:

- ماذا؟

ونظر فوجد (أحلام) تراقبه وقد ارتسم القلق في محياها الجميل..

تأملها مليا كالمنوم، فتبسمت برقة وهي تهمس مرتبكة:

- هل أنت بخير؟

- بخير؟

شعر بصعوبة الإجابة على تساؤلها، بريق الحياة في عينيها دفع عقله إلى إعلان التوهم بأنها شاهدت لمحات عن قتل!

اصطنع ابتسامة مريرة على شفتيه مجيبا:

- أنا بخير..

نظرت له بثبات قائلة:

- بدوت وكأنك رحلت من جديد!

وجدها تحدق في وجهه بلا خجل هذه المرة، فارتبك قليلا قبل أن يرد:

- راودني شعور أن الدنيا لن تكون كما الآن..

- الدنيا بأسرها؟!

- أجل..

خفضت بصرها وهي تهمس متسائلة:



- ألهذا علاقة بما قلته لك؟

- موهبتكِ دقيقة لحدٍ مثير للشك..

- ماذا تعني؟ أنني أتعامل مع العفاريت مثلا؟

- ألا تفعلين؟

- وهل أبدو ممن يتعاملون مع العفاريت؟

- وكيف يبدون بالضبط؟

قالها وصمت مبتسما بسمة خافتة، فتساءلت هي الأخرى بفضول:

- ماذا كنت تفعل في الإقطاعية المهجورة؟ حقيقة؟

- حقيقة؟ وهل أبدو ممن يكذبون؟

- بصراحة نعم!

- يا لها من إهانة صريحة وجارحة!

- لا زلتُ بانتظار الإجابة..

رفع وجهه للسماء دون أن ينطق..



17

أثناء سيره في ساحة القرية عقب صلاة العشاء، فكر بأن أوان الرحيل قد آن، فقد أثقل على أولئك الناس الطيبين، وهو الآن بأفضل حال..

سار ببطء والأفكار تتعارك داخله، جزء منه يحاول إغراءه بالبقاء والبدء بحياة جديدة، بعيدا عن أعين رجال الصحافة الذين افترسوا سمعته افتراسا، وأهالي الضحايا الذين أهدروا دمه، لكن جزءاً آخر صوَّر له بطلا عائدا إلى مسقط رأسه، وقد حمل بين ذراعيه جثة القاتل الشيطان، صحيح أنهم سيسجنونه، لكنه سيصير في أعينهم بطلا حقيقيا!

كان يحلم بالمجد الذي ينتظره لدى عثوره على (ملاك)، عندما أبصر ظلا يتحرك بعجلة وخوف، فتوارى خلف أحد جدران المنازل..

أطل بوجهه، فلمح (أحلام) تتسحب متلفتة حولها، فكر بمناداتها، لكن طريقة تلفتها الخائفة قليلا دفعته إلى الالتصاق بالجدار أكثر، وهو يراقبها باستغراب..

سارت على عجل وسار وراءها، ظلت تسير حتى اقتادته لحدود القرية، فتفكر هنيهة في كنه السر الذي تخفيه، قبل انطلاقته متتبعا خطاها..

■ ■ ■

لهث (جرير) وقبض على صدره بأصابع مشدودة، محاولا ألا تتنبه الفتاة الرشيقة إلى ملاحقته لها خفية.. لم تهدأ لحظة مغادرتها القرية، فقد بقيت تهرول بحيوية ونشاط، كما لو كانت تسارع للقاء من تحب، في حين شعر (جرير) برغبة في الجلوس قليلا لإراحة قدميه بعض الوقت، لكن الفتاة لم تمهله ولو ثانية..

شعر في تلك اللحظة بمقت عارم للسجائر اللعينة التي قضت على رئتيه، وودَّ لو يتمكن من بصق القار الأسود الذي يتصبب في كيانه، ويصعب عليه المشي والركض وحتى التنفس، وصبَّ جام لعناته على حماقات ابن آدم ورعونته وطيشه، وعلى شياطينه التي تبارك أفاعيله السوداء..

أخيرا بلغت (أحلام) غايتها.. الإقطاعية المهجورة! تماما كما توقع (جرير)، كان يجهل موقعها بالضبط، لكن (أحلام) أرشدته لحسن حظه..

تـوارت (أحلام) داخل الإقطاعية، فسارع (جرير) إلى اللحاق بها..

■ ■ ■

كان الظلام هو الآمر الناهي بالداخل، لكن ضوء القمر ساعد (جرير) على تبين سبيله بين أكوام الحجارة والصخور المتناثرة هنا وهناك..

فكر بالأشباح، هذا مقرها الحتمي، ظلام وأطلال وشباك عناكب، بزوغ الأشباح هو اختبار حقيقي لرباطة جأشه..

كان الممر ضيقا ومعتما للغاية، فاستعان بقداحته..

اقتادته الفتاة إلى قبو لم يكتشفه من قبل، حيث درجات حجرية مؤدية لأسفل بشكل حلزوني طويل، كأنها درجات في جوف قلعة من قلاع العصور الوسطى، وظلَّ يهبط ويهبط حتى فكر بأنها مؤدية إلى قاع الكرة الأرضية!

ولربما إلى مملكة الجان والعفاريت التي تخطف شبان القرية!

ثم تبين له ضوء خافت، فتنهد محاولا التماسك..

توقـف بغتة، وبدا منشـغلا في محاولة يائسـة لتفسـير ماهية تلكم الأفـكار التي تسـللت لعقله كالغـاز المخدر.. أفكار بـاردة.. كئيبة.. مظلمـة لحـدٍ لا يمكـن معـه معرفة خصـال المفكـر.. أتراهـا أفكار الأشباح وتحاول مشاطرتها معه؟!

عاود النزول لأسفل، لكن ببطء أشد من السابق..

وجد نفسـه الآن في ممر ممتد، رائحة القِدَم زكمت أنفه، فاسـتمر بالمضي بلا أدنى اضطراب هذه المرة وكأنه سلم بالأمر!

أخيرا بلغ نهاية الممر، وولج قبيل توقفه..

فغـر فاه ذاهـلا، ونطقت عينـاه بلغة الفـزع في أقوى صـوره.. لم يصـدق مـا رآه، كأنـه كابـوس حقيقـي انحدر مـن عوالـم الكوابيس الجهنمية!

قاعـة عملاقة قديمة تحوي عشـرات الفتية! لكن مشـكلة بسـيطة اعترتهم..

- «إنهم.. إنهم أموات!».

مـن الواضـح أنهـم أمـوات! نظـرات خاوية مـن معانـي الحياة، ألـوان الجلـد داكنة مغبرة، شـباك العناكب المعششـة فـي أجزاءٍ من أجسادهم.. لوحة مرعبة بحق!

ولكن كيف لم يتعفنوا؟ إنها لمعجزة حقيقية!

ثـم من قال أنهم موتـى؟ لربما كانوا الآن في سـبات عميق كأهل الكهف!

بـدت تلك الفكرة أشـد إرعابـا.. ما الذي أتى بهؤلاء الشـبان إلى هنـا؟ أهم حقا شـبان القريـة المفقوديـن الذين تحدث عنهم الشـيخ (عبد الجليل)؟

وما هذا الصوت بحق الله؟!

بـدا كصوت خربشـات قلم علـى صفحات ورقيـة، أو حتى على الجـدران، لكن قوتها غير طبيعيـة، وصداها يتردد في أرجاء المكان، وحتى في أعمق أعماق سراديب عقله..

وجد نفسـه يقبـض صدغه بكلتـا يديه، ثـم حاول سـد أذنيه وهو يصرخ، فقد صارت الخربشات ضجيجا شنيعا لا يمكن احتماله..

كان هذا قبل أن يسقط مغشيا عليه..

ومن دون أن يتنبه بأن ثمة شخص يقترب منه..



البحيرة المتجمدة





18

الهواء البارد يرتطم بوجهه كما لو كان خارج نافذة سيارة مسرعة..

أفـاق متأوهـا، كان هـذا قبـل أن يشـهق شـهقة عاتيـة كالصرخـة المكتومة، فقد وجد نفسه فوق بحيرة مترامية الأطراف وقد تجمدت مياهها تماما!

وأسفل تلك البحيرة، لمح كائنا مروعا عملاقا بصورة مفزعة كأنه راقد في سبات عميق..

وفوق رأس ذلك الكائن أبصرها.. (أحلام)! بشحمها ولحمها!

خطـا بحذر ورهبة فوق سـطح البحيرة، وبصـره لا يكاد يتزحزح عن المخلوق الرهيب القابع أسـفلها.. ولاحـظ أنه كلما اقترب أكثر مـن موقـع (أحلام) كلمـا زاد ضجيج تلـك الخربشـات اللعينة التي صدعت رأسـه، فأدرك (جرير) بـأن مصدرها ينبعث من هناك.. على الأرجح من المسخ النائم أسفلها!

كائن أسـود غزير الشعر، مخيف السـحنة رغم عدم تبينه تفاصيل ملامحه بفضل شـعره المنسـدل على غالبية وجهه، لكنه ميز أجنحته الأربعة الشـبيهة بأجنحة الخفافيش، كما أن قرنيـن رماديين نبتا فوق مقدمة جبهته العريضة!

بدا كالتجسـيد الشعبي للشيطان في كتب الشـعوذة المتحدثة عن طقوس عبادة الشـياطين وإحراق السـاحرات، فتنفـس بصعوبة قائلا بصوت مخنوق من أثر الصدمة:

- بحق المولى الرحيم.. ما يكون هذا الشيء؟!

- «يسمونه (الرئبال) في الحكايات الشعبية!»..

التفت (جريـر) وراءه كالمنتفض، فوقع بصـره على فارس عربي مليـح التقاسـيم، يتقلد سـيفا عجيب الشـكل كغصن شـجرة طويل، وعلى كتفه الأيمن تشـبث شـاهين جارح بمخالبه، بدت عيناه كعيني صاحبه، حادتين صارمتين!

لا شـيء بـه يتحـرك، حتـى رداءه.. بـدا مـع طائـره كقطعتين من الرخام، نحتتا على شكلي إنسان وطير جارح..

قال (جرير) أخيرا محاذرا تحشرج صوته:

- من أنت؟ وما الذي يحدث هنا؟!

- أدعى «الفارس»!

وصمت مدة وجيزة قبل أن يردف:



- وأنا هنا لعونك!

نظر (جرير) إلى حيث تجلس (أحلام) قائلا برهبة:

- هـذا مستحيل! لا وجـود لحياة مثل هـذه الحياة سوى في الآخرة.. أو الأحلام!

- وها أنت ذا تصيب كبد الحقيقة!

- ماذا تعني؟!

قالها وهو يدنو من (أحلام) ببطء.. كانت ممسكة بدفتر مهترىء مصفر الأوراق، وقد أمسكت بقلم وشرعت تكتب بسرعة جنونية..

ولكن ليس هذا ما أثار فزعه..

أولا كان صوت الخربشات المفزع والذي يتردد بضجيج صادرا عن صرير قلمها، وهو يخط الكلمات على صفحات ذلك الدفتر!

وثانيا.. كانت مقلتاها ناصعة البياض تماما.. كما لو كانت ممسوسة!

■ ■ ■

- «تمشى معي قليلا..»..

بـدا التردد في سحنة (جرير)، لكنه لم يلبث أن سار ببطء برفقة الفارس الوسيم، وسبابته تشير إلى (أحلام) متسائلا:

- أهي بخير؟



- أجل، لا تقلق..

عاود التساؤل متوجسا وبصره القلق معلق بالكائن المخيف النائم أسفل البحيرة المتجمدة:

- أهو حقيقي؟

- في ذهن الفتاة فحسب! كما أخبرتك سابقا نحن في بحيرة غير عادية.. قد حضر من قبلك كثر، بعضهم صدق مع الأسف، والبعض الآخر تيقن من الحقيقة واستيقظ كي..

وتمهل في كلامه، ثم استرسل بحزن تبدى في عينيه السوداوين:

- كي يرحل للآخرة الحقيقية!

- ما هذه الطلاسم التي تحدثني بها؟ أنا لم أفهم شيئا لغاية الآن..

قاطعه الفارس:

- عندما أتت هذه الفتاة إلى هنا سقطت في هوة الخيال، فالهوة لا تفتح إلا لذوي المخيلة الخصبة، والفتاة امتلكت مخزونا هائلا من القصص الشعبية التي نقلتها عن أفواه العجائز، وأولها أسطورتي.. كانت تأتي إلى هنا لتدوين تلك القصص عندما سمعت الصوت يناديها، فاستجابت للنداء، وعندئذ.. عندئذ صارت تكتب لصالحه هو!

- لصالح من؟

- لا أحد يعلم ما إذا كان كيانا منفردا أو عدة كيانات! لقد تحولت الفتاة إلى أديبة حقيقية! كتاباتها قد تبدل التاريخ نفسه! والدليل أنها غيرت من تاريخ قريتها، بأن دونت حكاية ابنة الأغا مع الشبان المفقودين!

- أتعني أن (أحلام) هي التي..؟!

- بالضبط! إنها لا تكتفي بنقل الرواية، بل تصيغها بقلمها، في أسطورة ابنة الأغا تنتهي الحكاية برحيل المجاهد بعد أن حقق انتقامه لمحبوبته، لكن الفتاة صنعت نهاية مفتوحة وأسطورة سحرية جديدة، تتحدث عن شبح الفتاة المنتحرة الذي عاد ليتصيد شبان قريتها الأبرياء!

نظر (جرير) إلى حيث جلست (أحلام) لتدوِّن قصصها بتلك الطريقة الجنونية، وبصعوبة تمتم ذاهلا:

- إذن فالشبان داخل الإقطاعية هم ذاتهم شبان القرية! لبوا نداء الأسطورة، وولجوا - حسبما خط قلم (أحلام)- ليصيروا في عداد المفقودين!

لماذا لم يتمكن أهالي القرية من إيجادهم؟

- لأن الهوة انفتحت لك يا (جرير) أنت الآخر! انفتحت لواحدٍ آخر من ذوي المخيلات الجامحة، وقد حان الوقت لكي تحجز مقعدك إلى جوارها أنت الآخر!

وأشـار إلى رأس (الرئبال) داعيا (جرير) للاقتراب، فصنع الأخير ذلك بساقين معوجتين من شدة الفزع..

ألقى بنظرة أراد لها أن تكون خاطفة، ولكن سرعان ما تسمر على تلك الوضعية لفترة طويلة..

لقـد أبصر سـحنة الرئبال التـي تصاعدت من داخلـه، رأى وجهه الذي لطالما اعتبره الوجه الحقيقي للشيطان..

وجه غريمه (ملاك)!



19

تبدت نظرة رعب في عيني (جرير)..

- «لابد أن أخرج من هنا!».

- «ولابد من إنقاذ الفتاة!».

قالها الفارس بلهجة تبدت لأذني (جرير) حزنا بالغا!

سار بخطوات متمهلة حتى بلغ رأس (الرئبال) النائم في سباته المخيف، ثم امتشق سيفه العجيب من غمده، وطوَّح به بمهارة قائلا:

- أتريد الخروج حقا؟

- مادام هذا كله زيف..

- كله؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الخروج قد لا يرضيك أيضًا..

- لم أفهم..



تنهد الفارس رامقا السماء، وبنبرة عابسة قال:

- إذا خرجت سترى أمورا عالقة بالذهن مدى الحياة، لن تفارق مخيلتك، وسيختلط واقعك بخيالك، وعندئذ.. إما التعايش بصبر، أو الجنون المؤدي للانتحار!

لاح تردد على محيا (جرير)، ولكن سرعان ما تلبسه عناد مطبق، فاندفع إلى الفارس صائحا:

- أخرجني من هنا!

- أنت شجاع.. خذ السيف..

تناوله (جرير) متسائلا:

- وماذا أصنع به؟

أشار الفارس للرأس المغيب أسفل صفحة المياه المتجمدة، قائلا:

- مفتاح الخروج من هنا!

احتدت نبرة (جرير) لما صاح بسحنة محتقنة:

- كان الحل بيدك طيلة الوقت ولم تتمكن من نجدتها؟!

تبسم الفارس للمرة الأولى قائلا بأسى:

- أنا شخصية وهمية من صنع مخيلتها الخصبة! شخصية كالفراغ، لا تقوى على فعل شيء!

وأشار للغول النائم مضيفا بحزم:

- هذا الشيء يقتات على أحلامها، والآن يُعِدُ نفسه لوجبة متخمة بأحلامك السوداوية، إنه يعشق الكوابيس، فهي بمثابة التوابل على وجبته!

كان (جرير) يتأمل رأس الكائن الضخم شاردا، وعندما عاد ببصره تجاه الفارس، وجده ممتطيا صهوة جواد أبيض ناصع البياض بارع الجمال!

كان من الواضح أنه بزغ من العدم، تماما كفارسه المجهول!

- «حظا موفقا!».

نطقها الفارس، ثم وثب بجواده الأبيض في الهواء كالطلقة!

وهناك.. تلاشى كأن لم يكن!

بحث عنه (جرير) بجزع هناك.. في السماء.. قبل أن يعلن استسلامه الصامت، فعاود النظر إلى الرأس المخيف الذي كان بحجم سيارة صغيرة، وداهمه التردد فلم يدر ما يصنع..

قال لنفسه شاعرا بالعرق يتكاثف من مساماته وبرعشة في أطرافه:

- الكرة الآن في ملعبك!

مرت دقائق قبل أن يحسم تردده أخيرا، فرفع السيف عاليا بكلتا قبضتيه، موجها طرفه المدبب إلى قمة رأس الوحش النائم!



20

فرغت (أحلام) من مطالعة تلك الحكاية المصاغة للمرة المائة..

كانت قد آوت إلى فراشها الدفيء قابضة الدفتر المصفر الذي حافظت عليه قدر استطاعتها.. ذاك الذي أهداه جدها لها في عيد ميلادها العاشر، والذي لا تسأم مطالعة فحواه من الحكايات الشعبية التي صاغها قلمها الناشئ، والتي سرد بعضها عليها في ليال لا تفارق ذاكرتها ومخيلتها الحالمة الشغوف بكل جديد ومثير..

رقدت على الفراش متناولة بأناملها البضة القمحية مجلدها الأثير، ثم التفت لتصير بذلك راقدة على ظهرها..

وبعد تردد، فتحته على الصفحة حيث دسَّت زهرة ياسمين، مطالعة نهاية الحكاية التي تتجاهلها في كل مرة..

ثم أرقدت الدفتر على صدرها متنهدة، وتأملت ببصر شاخص سقف غرفتها القديم، تاركة العنان لأفكارها الخيالية، تتقاذفها بلا هوادة كقارب وسط عاصفة ضارية..

وللمـرة المائة، تحـرك ثغرها الجميـل بشـفتيه الناضجين مكررة بتهدج محزن:

- لقد حطمت لي قلبي!

■ ■ ■

شـعر بكـفٍ على كتفـه تربت، وبأنامـل على جبهته تمـرر، فأفاق ليجده جالسـا بجواره ومنحنيا فوقه.. الفلاح العجوز(جابر) بشحمه ولحمه!

أراد الصـراخ وقـد بدا مصعوقـا لتلـك المفاجأة، في حيـن ناوله (جابر) قارورة ماء قائلا ببسمة:

- أرى أنك قد أفقت أخيرا! حمدا لله!

«أكنـتُ أهذي أم مـاذا؟!»... كانت تلك كلمات عقله، أما لسـانه فقد جرت الكلمات عليه بحشرجة وحنق:

- ماذا تفعل هنا؟

- قدمتُ للاطمئنان عليك! اشرب الماء..

تجـرع بنهـم حتى كاد أن يشـرق، فأبعـد (جابر) القنينـة برفق عن شفتيه وهو يربت على ظهره، في حين سعل (جرير) وهو يهتف بنبرة مختنقة:

- ماذا.. حدث؟!

- جئـتُ لتفقـد أحوالـك، فوجدتـك قابعـا علـى الأرض تتلفظ كلمات غير مفهومة، لوهلة حسبتك أصبت بالصرع!

نهض (جرير) مستندا إلى كتف الفلاح قائلا بملامح منهكة:

- كنتُ هناك! في القرية حيث المختار (الرهباني) و(أحلام) و..

قاطعه (جابر) ضاحكا بدهشة:

- (الرهبانـي)؟ أتقصد المختـار (عبد الجليـل الرهباني)؟! لابد وأن الصدمة كانت أشـد من المتوقع يا فتى! فأنت تتحدث عن تاريخ قديم يخص قريتنا! كيف عرفت باسمه؟

حدَّجه (جرير) بنظرة حانقة، لكن (جابر) تجاهلها مردفا:

- الحـاج (الرهبانـي) كان مختار القرية أيـام طفولتي! رحمة الله عليه! الرجل توفاه الله بعد أن عهد بالمخترة إلى (سعفان) ابن الحاج (شعلان)!

صاح (جرير) بانتصار:

- لحظة واحدة، إن ابن الحاج (شـعلان) مفقود إثر حكاية قديمة عن فتاة يهودية مخبولة و..

- أتقصد حكاية ابنة الأغا؟ رباه! ذكرتني بالذي مضى يا فتى!

لقد اختفى شـبان القرية الواحد تلو الآخر بطريقة عجيبة ومخيفة، ولكنهم وفي نهاية المطاف عاودوا الظهور.. جميعهم!

أذكـر أن احتفالا عظيما أقيم ليلة رجوع الشـبان بالسـلامة، رقص وغناء حتى مطلع الفجر!

- يا للطرافة.. وكيف عادوا؟ ألم تسألوهم؟

- سألناهم طبعا، لكنهم لم يذكروا شيئا.. كانت حادثة ولا أغرب!

أسند (جرير) ذقنه على سبابته مبهوتا..

ونظـر مراقبـا القرية مـن بعيـد، خائفا، مذهـولا، متوجسـا.. ظلَّ كذلك حتى بللت أرنبة أنفه قطرة ماء هوت من السـماء، ثم تلاحقت القطرات ليشرع المطر بانهماره الجنوني..

- «حلـت علينا بركة السـماء! هلم إلى داري يـا بني فرحيلك عن هنا في هذا التوقيت أمر مستبعد تماما.. هاييييي! إلى أين تذهب؟!

لكن جريراً سـار كالمترنح تحت شـلال المطر ملقيا بحقيبته على ظهره..

- «عُد يا فتى! ما خطبك بحق الله؟!»..

تجاهله مواصلا رحلته الحثيثة، فيأس (جابر) من مناداته، واكتفى بمراقبته حتى توارى عن ناظريه.. بين قطرات المطر الثائرة!





ثلاثة تأرجحوا بحبال المشنقة!





21

في منتصف مفترق الطرق المقفر، والذي يشابه الصليب أو علامة + ، وقف (جرير) مريحا متاعه عند ساقه اليسرى، ورمق بمنتهى بصره السبيل الممتد أمامه محاولا سبر أغواره بمخيلته، حيث سينطلق به بعد قليل إذا ما كانت الحافلة تمر من هنا كما قيل له..

منح ظهره للطريق الذي جاء منه، وتجاهل كلا من الطريقين على يمينه وشماله.. بصره متشبث بالدرب الأمامي، حيث الغبار الذي يهب بين الفينة والفينة مشكلا غمامة ضبابية داكنة، ولا شيء غير ذلك..

المحطة نفسها مثيرة للاهتمام.. فقد كانت عبارة عن منصة خشبية مهترئة، تنتصب على سطحها ثلاثة أعمدة عشش السوس في خشبها بنهم، على قمة تلكم الأعمدة عوارض خشبية مثبتة بزوايا قائمة، منتهية بحبال ثلاثة أيضًا، اثنتان منهما عبارة عن أنشوطتي شنق!

والثالثة واضح أنها ممزقة الطوق.. تؤرجحها الرياح معا برتابة مثيرة للقشعريرة..

- «أنت.. أنت بانتظار..».

جفل (جرير) ناظرا للوراء بسرعة قصوى، فوقع بصره على عجوز قصير غريب الهيئة، وقد أردف ذلك العجوز مكملا جملته بعقيرة خفيضة:

- «الحافلة؟».

تنفس (جرير) الصعداء، ومتماسكا أجاب:

- «أجل..».

- «أنا.. أنا كذلك!».

- «مرحى! إذن سننتظر معا!»..

- «أجل.. أجل!»..

رمقه (جرير) بنظرة جانبية وهو يعكف الآن على لفِ سيجارة بتأن، وقد جلس القرفصاء..

كان مبرقشا بتلك البقع البنية المثيرة للغثيان، وخصوصا على صلعته التي تشبثت بمؤخرتها بقايا شعر رمادية.. كانت ثياب العجوز عبارة عن بدلة رمادية بالية، وقد تدلت من عنقه ربطة عنق سوداء متسخة ببقع الطين، أم أنها موضة تلك الربطة؟!

أخرج العجوز لسـانا داكنا بطول لسـان الضفـدع، كي يلعق ورق لف السـيجارة ويحكم إغلاقه، تبدت بقايا أسـنانه، مزيج من السواد والصفار، ولما بصق خرج ذلك المزيج على شكل سائل شبه ثخين، فتقلصت ملامح (جرير) في شيء من اشمئزاز..

■ ■ ■

- «سيجارة؟»..

نظر (جرير) إلى زميل الانتظار ذاك وسـيجارته يدوية الصنع التي يعرضها عليه، وبتؤدة دمدم مجيبا:

- «لا شكرا..»..

هـز العجوز كتفه مشـعلا سـيجارته بعود ثقـاب، فرمقـه (جرير) بنظرة ثابتة قائلا له:

- «لم يفت الأوان لتركها يا جدي، صحتك لم تعد..»..

سـعل العجوز مقاطعا، ولما هدأ صدره قليلا سـحب نفسا شديد العمق هامسا باستهزاء:

- «لم يفت الأوان؟!»..

وأطلق سـراح الدخان من منخريه، فتحـول إلى ثور عجوز ضامر ينفث الدخان بكثافة، وبتجهم تابع القول:

- «أنا كما يقولون: قدم هنا وقدم تخطو هناك.. تجاه القبر!»..

- «يا لك من متشائم!»..



- «بل واقعي لحدٍ لا يصدق..»..

وشـرد ببصره على قارعة الطريـق، ثم صعد به إلى حيث المنصة، وبتـؤدة تسـلق حتى اتسـع علـى مشـهد الحبـال الثلاثـة المتأرجحة المخيف..

بصق مجددا، ثم سعل.. بعدها دمدم بالقول:

- «أتصدق أن بيتا بأكمله كان مبنيا هنا؟»..

- «هنا؟ هنا أين؟»..

- «محل تلك المنصة بالضبط!»..

- «أنت تمزح!»..

- «أقسـم لـك!، كان بيتـا خشـبيا صغيـرا، لكنه تبدى مـن أجمل البيوت في تلك الأيام..»..

نظر (جرير) بدوره، وثبت بصره على الحبال هو الآخر متسائلا:

- «وما قصة تلك ال.. ؟»..

رمقه العجوز بنظرة سريعة مُعقبا:

- «الحبال؟ قصة غريبة.. غريبة حقا..»..

وتنشق عبر العقب متنهدا، فأدرك (جرير) أنه سيسرد الواقعة - إذا ما كانت كذلك- لا محالة.. لا بأس بتسـجية بعض الوقت في سماع ما سيقوله!

■ ■ ■

تنفس العجوز بتؤدة وهو يمط بشفتيه واجما، فبدا كسلحفاة طاعنة بالسن..

راقبه (جرير) وهو يسدد ببصره تجاه العوارض الخشبية، ثم سمعه يقول بنبرة خفيضة لكنها مسموعة:

- «البيت كان يضم عائلة صغيرة، رجل وابنته فحسب.. الزوجة ماتت عقب ولادة الابنة مباشرة، يعلم الله سبب التعاسة التي طاردت الرجل، والذي اختار أن يربي ابنته بنفسه، دون معونة من أحد..

كان له شقيقات وأشقاء، أعمام وأخوال وأولادهم.. ضوضاء لا يمكن احتمالها! دفعته لاعتزال الجميع في شقته المتواضعة، تجاهل زياراتهم وتخلى عن الهاتف، ولما وجدهم يتابعونه بصورة شبه دائمة بلزوجة لا توصف، احتمل ما قدر على احتماله من متاع، ثم ارتحل مع ابنته التي صارت في السابعة من عمرها، حتى بلغا مفترق الطرق هذا!

هنا، توقف الرجل متفحصا المكان، وبعد معاينته صار على يقين من أنه المكان المنشود.. فأخبر ابنته أنهما سيقيمان على مفترق الطرق، وسيبني لهما بيتا بسيطا من الأخشاب المتناثرة هنا وهناك!»..

أرجح (جرير) برأسه مدمدما:

- «قصة غريبة.. لكنها معتادة نوعا..»..

حدَّجه العجوز بنظرة متهكمة مردفا:



- «ثم بدأ الرجل ببناء البيت..»..

تبسم (جرير)، فالعجوز لم ينه قصته.. عليه بالكف عن مداعباته القاسية والإنصات حتى النهاية، فالحافلة ستتأخر كما يبدو.. المهم ألا يجلس إلى جواره داخلها متابعا أحداث قصته الرتيبة..

- «أنهاه في غضون شهر ونيف.. وأثناء ذلك كان ينام مع ابنته داخل خيمة، المنطقة مقطوعة من البشر تماما، وبالأخص من أولئك الذين يؤمنون أن الشيطان يبزغ في مفترقات الطرقات، كان ذلك يريحه، حتى ابنته كانت ذات همة عالية، تمازحه وتساعده، لم يحدث أن شكت له الوحشة قط، لا بل على العكس تماما، فقد كانت مسرورة..

انتهى البيت، وعاشا معا حياة هي البساطة بعينها، كان الأب يمتلك بندقية لصيد الطيور والأرانب البرية، وصنارة يذهب بها برفقة صغيرته إلى البحيرة البعيدة لاصطياد بعض الأسماك، ناهيك عن الغابة التي تمدهما بما تيسر من ثمار وبقوليات..

لم تكن أفضل معيشة، لكنها تبدت كذلك لكليهما.. كانا حقا سعيدين، ولم يؤرق عليهما سوى زيارة ذلك الشخص..»..

وتبدت نظرة قاسية في مقلتيه الغائرتين، فتأملهما (جرير) مليا..

تساءل (جرير) وهو يهرش ذقنه:

- «نظرتك تكاد تقول أنه كان شخصا سيئا للغاية!»..

- «كذا تقول الحكاية، تصفه بشابٍ يحمل حكمة الشيطان!»..

- «وهل الشيطان حكيم؟»..

ضحك العجوز مردفا بسماجة:

- «هل الشيطان حكيم؟! كيف له إذن أن يدير ملايين الرؤوس، ويقنع العالم بأمور لا يتوجب عليهم الاقتناع بها؟ ألم يعش قرونا وما زال أمامه مزيدا من القرون؟ إنه أكثر حكمة من البشرية جمعاء!»..

- «أختلف معك!»..

- «لا بأس! لكن دعني أقل لك أن الشيطان يظفر بما يريده من البشر متى أراد ذلك، وبالنسبة للبقية التي تحسبها راسخة كالطود الشامخ متسلحة بالضمائر، فتلك مسألة وقت فحسب!»..

لم يحبب (جرير) ما سمعه للتو، وكاد أن يجادل لولا رؤية العناد في تقاسيم العجوز، فأرجح يده قائلا:

- «أنهِ قصتك يا رجل واعتقني!»..

- «حبًا وكرامة.. كنتُ أتحدث عن ذلك الشاب الذي زارهما في تلك الليلة، وقد تفاجأ الأب - بل وتضايق بشدة- للظهور المفاجئ لذلك الغريب، لكن ابنته بدت متحمسة للغاية، فعرض مضطرا على الغريب المكوث لليلة واحدة معهما..

وافق الغريب.. وتناول معهما طعام العشاء، سامرهما وسرد لهما عديدا من القصص المثيرة، ورويدا وجد الأب نفسه يحب ذلك

الشـاب! فعـلا! وخصوصا عقب نـوم الابنة وبقاءهما سـاهرين معا، كان شابا معسول اللسان، له وجهات نظر فريدة من نوعها في الحياة، وقـد قرأ عقل مضيفه بخصوص ارتحاله إلى هذه البقعة النائية، بعيدا عن مرأى ومسمع باقي البشر لابتناء بيته، وأيده في ذلك بشدة..

هكذا، ومن دون أن يشـعر، صار ضيفه الشـاب فردا ثالثا من أفراد عائلة البيت الخشبي على مفترق الطرق!»..

تبسم (جرير) بسخرية قائلا:

- «بتلك البساطة؟!»..

سرح العجوز ببصره مجيبا:

- «أجل.. بتلك البسـاطة! رحبت الابنـة بوجوده بحرارة، لدرجة مناداتـه بشـقيقها الأكبر، وعاش الثلاثة كأسـرة واحـدة، ينامون معا، يستيقظون معا، يصطادون ويأكلون ويشربون معا..

إلـى أن وصلت أذرع الحكومة الأخطبوطية أخيرا إلى هنا، مقررة بناء محطة انتظار الحافلات!

إلـى جانـب المحطـة، كان مـن المقـرر كذلـك بنـاء عـدد مـن الحوانيت، واسـتراحة، ووجد الأب نفسه يعيش كابوسا لما أدرك أن حلمه باعتزال البشر قد شارف على نهايته، والذي زاد الأمر سوءا أن الابنة مرضت بالحمى لدى معرفتها بالخبر..»..

- «وماذا كان موقف الشاب؟»..

- «إليـك ما حدث.. اسـتيقظ الأب ليجد ابنته سـليمة معافاة كأن لم يمسسـها سـوء! تهللت أسـاريره لتلك المعجزة، فأخبرته ابنته أن الشاب هو السبب، فقد أعاد لها الأمل مجددا!

بالطبع لم يفهم الأب مقصدها، شـكر الشاب وسأله عما فعله كي يعيـد لابنته نضرتها، فأخبره أنه قد وعدها بأخذ الأسـرة إلى مكان لا يمكن لبشر الوصول إليه!»..

بنظرة جانبية تفحص (جرير) ملامح العجوز كما لو كان يدقق في تجاعيده الغائرة باحثا عن شيء ما، لربما انفعال، أو خلجة تدله على ما يخفيه من سرائر.. لم يتنبه العجوز لذلك بل واصل السرد:

- «ما هو ذلك المكان؟ كذا تسـاءل الأب.. جزيرة وسط المحيط مثلا؟ وإذا كان كذلك فكيف السبيل للوصول إليها؟ لربما كهف بين ثنايا جبل، لكن ابنته لا تجيد التسلق..

إلا أن الشـاب طمأنـه إلـى أن ذلـك المكان بمتناول أي شـخص يزمع الهروب.. سيهربون ثلاثتهم من هذه الدنيا بأسرها!»..

■ ■ ■

شـعر (جريـر) بضربات قلبه تتصاعد بعنف، ورمـق برهبة حقيقية منصـة العـوارض الخشـبية، حيـث حبـال المشـانق المتأرجحـة، وارتعشت شفته السفلى لما غمغم:

- «هذا.. مستحيل!»..



- «وما المستحيل بالضبط يا بني؟»..

- «أتريد القول بأن الثلاثة قد..؟!»..

- «هذا ما أحاول قوله فعلا!»..

- «قصة غير معقولة على الإطلاق!!»..

- «ولماذا؟»..

حدَّجه (جرير) بذات النظرة التي نطالع بها أي مجنون، وهتف بلهجة شديدة الاحتداد:

- «لأن الأب لن يوافق على مصير ابنته الشنيع ذاك بتلك البساطة اللامتناهية!»..

- «بعض البشر قد يفاجئونك بما يقدرون على فعله..»..

- «ألم يكن يحبها؟!»..

- «وبالذات باسم الحب!»..

- «ما الذي تحاول قوله؟!»..

تنفس العجوز رافعا وجهه لفوق، وتأمل السماء الغائمة مجيبا بكآبة:

- «قيل أن الخلاص أحد أفضل النماذج الهامة في وصف القلق للنفس للبشرية، وتم الاقتباس من روحه آلاف حالات الانتحار هربا من خلق الإثارة العصبية الواقعية، تلك مقومات لشخصية مضطربة وغير متزنة تلعب في داخله.. يقابلها في ظاهره شخصية

أخرى تفرز لنا تلك الخصائص السلبية المتمثلة في خليط من الطباع السيئة والصفات القبيحة والمستهجنة، مما يجعله مكروها من الناس، ومُبعدا – قسرا– عن الاختلاط بهم، أو أن يكون جزءاً منهم.. بالإضافة إلى كونه يشكو من ضياع هويته، وفقدان إحساسه وحماسه وحيويَّته تجاه الحياة، حيث لا يعرف تماما ماذا يريد أو كيف يحققه.. فحياته أشبه بالروتين القاتل الذي يسيطر على نظام حياته، ويصنع منه شخصا باردا متصلبا وفاقدا للإحساس الشعوري، أو التجاوب الطبيعي مع العوارض العاطفية..».

في هذه المرة كانت نظرة (جرير) للعجوز ذاهلة بالمعنى الحرفي للكلمة..

وقد طال صمته وهو يتفحص العجوز بنظراته المتسعة، قبيل أن يهتف:

- «ماذا تقول بحق الله؟! ومن تقصد بكلامك هذا؟ الأب أم الشاب؟!».

عاود العجوز التبسم، فصاح (جرير) ذاهلا:

- «لقد تحدثت للتو كما لو كنت طبيبا نفسيا! لكن لحظة.. أهذا هو؟ أهكذا عرفت بالقصة؟ أأنت طبيب نفساني؟».

- «ليس بالضرورة أن تصلني القصة لمجرد أنني كذلك..».

ونظر إلى عقارب ساعته الفضية في معصمه الأيسر، وقال:



- «لم يتبق الكثير على موعد وصول الحافلة..»..

- «أين وجهتك؟ إلى أين تذهب؟».

- «أنا؟ أنا.. لن أذهب إلى أي مكان.. المهم أين تذهب أنت!»..

بـدا (جرير) مضطربا وهو يتراجع بضع خطوات للوراء، وامتدت يده ببطء وحذر ناحية المسدس المخبأ أسفل حزامه، متسائلا بتحفز:

- «مالك ومال وجهتي أيها العجوز؟»..

- «دعني أفرغ من القصة يا بني..»..

- «لا أريـد قصصا.. أريد معرفة الحقيقة.. من تكون؟ وماذا تعلم عن وجهتي؟»..

لكن العجوز تجاهل تلك الأسئلة متابعا كأن شيئا لم يكن:

- «فـي تلـك الليلـة البـاردة، تحـول البيـت الجميل الهـادئ إلى منصة إعدام بحبال المشـانق! بمسـاعدة الشاب الغريب تم هدم بيت الأحلام، وبمسـاعدته تمكن الأب من بناء هذه المنصة، أترغب حقا بمعرفـة الأمـر المرعب فـي ذلك كلـه؟ أن الابنة البائسـة ظلت على حماسـتها، فالغريـرة لم تكن تملك أدنى فكرة عمـا يبنيانه، وقد خيل لها أنها مجرد لعبة مسلية كالأرجوحة..

والآن إليك ما هو حتى أرعب..

اتخـذ الثلاثـة أوضاعهـم فـوق المنصـة بأعنـاق مطوقـة بحبـال المشـانق، وقاموا بتوديـع بعضهم البعض بغبطة.. فهـم راحلون إلى

عالـم يبعـد كل البعد عن عالم البشـر المقبض، بعيـدا عن الحكومة، وشـتى الخصال البشرية البغيضة.. كانت هنالك ذراع خشبية بجانب الشـاب، إذا مـا قـام بدفعهـا للأمـام انفتحت ثـلاث فجوات أسـفل أقدامهـم، وبذلـك تهوي أجسـادهم بعنف مباغت، فـلا يوقف ذلك الاندفـاع الرهيب سـوى الحبـال التي طوقـوا بها أعناقهـم، فتتحطم فقراتهم العنقية ويرحلون للأبد..

ما حدث أن الشـاب مـا إن دفع بقدمه تلك الذراع الخشـبية حتى تهاوت أجسادهم بالفعل، الأب وابنته تأرجحا بحبليهما..

أما الشاب فقد..»..

وجد (جرير) نفسـه يتناسـى مسـألته مع ذلك العجوز، لما تساءل بإلحاح محتد:

- «فقد ماذا؟»..

- «فقد سقط على قدميه! أجل! كان قد استخدم بمكر سكينا على طوق أنشـوطة مشـنقته دون علم من الاثنين، فتمـزق الحبل القابض على عنقه، وانفلت ليسـقط على قدميه سـالما، ثم نهض ليقف مراقبا بهدوء الأب وابنته وهما يتلويان حتى الممات!»..

أحـس (جريـر) بربكة غير معتادة في معدتـه، وبصعوبة نطق قائلا كما لو كان سيتقيأ:

- «خدعهما؟!»..

- «أحسب ذلك ما حدث، ولكن أحسب كذلك أنه كان يعتقد بأنه يفعل الصواب!»..

هتف (جرير) ممتعضا:

- «فعلا! قد فعل الصواب مع ذلك الأب وابنته.. ولكن في رأيي أن الأب استحق ما حدث له، يا له من وغد! ما ذنب ابنته المسكينة كي يجرها معه بهذا الشكل الوحشي؟!»..

تنهد العجوز مردفا:

- «أنت على حق، لقد استحق ما حدث له.. أما ابنته الغالية فلا ذنب لها.. والآن اسمع يا فتى..

في نهاية الطريق الذي تسير به الحافلة آخر محطاتها على الإطلاق، الغابة التي تحيط تلك البلدة بما يشابه الأسوار..»..

- «بلدة؟»..

- «ستجدها حتما.. ولربما زرتها قبلا!»..

- «ماذا تقصد؟!»..

تبسم العجوز بحبور رافعا يدا متغضنة كفرع غصن شجرة، وبثقة قال:

- «البرج القديم!»..

أجل!

كان (جرير) يعي الآن ما يتحدث العجوز عنه، ولكن أيقصد كذلك أن غريمه ينتظر هناك؟

- «قل لي.. ما اسم ذلك الشاب الذي..»..

نظر إلى حيث كان العجوز يقف..

ثم - وبشيء من ذعر - دار حول نفسه باحثا ببصر جاحظ عن ذلك العجوز، فلم يجد له أثرا! اللهم سوى رماد السيجارة الذي كان ينثره أرضا بسبابته!

ظل يدور حول نفسه كمن فقد شيئا ما، ثم لم يلبث أن توقف عقلا وبصرا عند تلك المنصة الخشبية الرهيبة..

كان يفكر بعمق، بسوداوية.. ما خطر له كان..

- «يا سيد!»..

صوت نفير يصم الآذان ارتفع بغتة..

أجفل (جرير) مستديرا، لقد وصلت الحافلة ولم يشعر بتوقفها حتى!

بتمهل مشى، وصعد إلى متنها والسائق الكهل يهتف بعصبية:

- «هلم قبل حلول الظلام يا سيد!»..

ثم انطلق قبل إقفال باب الحافلة واتخاذ (جرير) مقعدا، فاختل توازن الأخير، وكاد يسقط لولا أن أمسك به المحصل ضاحكا..

- «لحظة كي.. لا بأس عليك!»..

جلس (جرير) مضطربا، وقد عاود بصره ملاحقة تلك المنصة الخشبية التي تبتعد عن بصره رويدا رويدا..

كان المحصل يتسلى بلوك نكاشة لتسليك الأسنان، مطالعا هو الآخر حيث يطالع (جرير) بالضبط، ثم غمغم قائلا بعبوس:

- «الحق معك.. منظر حبال المشنقة وحده يثير القشعريرة في البدن!»..

- «ليس المنظر وحده!»..

قالها (جرير) بخدٍ ملتصق بزجاج النافذة وسحنة شاحبة، فأرجح المحصل رأسه مؤمنا، ثم قال:

- «والقصة وراء تلك المشانق.. رباه! شيء لا يصدق!»..

تبسم (جرير) باستهزاء مرير، كيف لو علم هذا الفتى الطيب أنه قد أنصت لأصل الحكاية من..

- «يشاع أن عجوزًا وحفيدته انتحرا باستخدام حبلين من الحبال الثلاثة المخصصة للشنق، أما الحبل الثالث الممزق فالله وحده أعلم بحكايته.. رباه! لقد صار لون جلدك كقشر الليمون يا سيد! ألتلك الدرجة أرعبتك الحكاية؟!»..



البلدة المهجورة





22

راقب (جرير) الشارع من نافذة الحافلة التي استقلها، وقد بدا عليه استمتاع من نوع ما، ذاك الذي يراوده كلما أبصر الشارع خاليا من الحركة الحية ليلا..

ثمة أربعة أشخاص غيره داخل الحافلة، السائق والمحصل من بينهم، وشاب بالقرب منه يطالع مجلة قديمة خاصة بعالم السيارات، ورجل عجوز عالي الغطيط أثناء نومه..

سأله الشاب صاحب المجلة وهو ينظر صوب زجاج الواجهة الأمامية للحافلة:

- متوجه للبلدة؟

نظر (جرير) للشاب مجيبا بتؤدة:

- أجل..

- لا يوجد ما يستحق زيارة تلك البلدة، فهي قمامة!

وضحك باستهجان ودونما حرج، فتلون وجه (جرير) قليلا..

استرسل الشاب في كلامه مقلبا صفحات مجلته دون مطالعتها:

- إذن.. كيف كانت رحلتك؟

- رحلتي؟

- الرحلة التي قطعتها لزيارة البلدة!

بدا السؤال عجيبا، فلاذ (جرير) بالصمت دون أن يجيب، الشاب يريد الثرثرة فحسب، أما عنه فيرغب ببعض الهدوء..

■ ■ ■

كانت الحافلة قد توقفت لتقل فتاة ذات فتنة عجيبة، جلست خلف السائق بمقعد، وانشغلت عن الأبصار الشاخصة لها بمراقبة الطريق، فابتسم الشاب مخاطبا (جرير) بمكر:

- صنف الجمال الغامض! (إستر) التي فتكت بهامان لأجل شعب اليهود، (إليزابيث باثوري) التي شربت دماء العذارى واستحمت بها كي تحتفظ بالجمال الأزلي!

- تبدو كزير نساء عندما تتكلم بهذه الطريقة..

- زير نساء مثقف، أليس كذلك؟

- بلى!

وفـي تلـك اللحظة، نهض صاحب المجلة الشـاب، وسـارع إلى الجلوس وراء الحسناء، فتبين للجميع عرجه الظاهر، ولم يظهر عليه أدنى اكتراث وهو يهمس للفتاة بوقاحة:

- اسمي (تيمور) يا بدر البدور!

ردَّت عليه هازئة:

- (تيمورلنك)؟

- حلـوة! هـل لـي أن أتشـرف بمعرفة اسـمكِ ومـكان إقامتك؟ صدقيني أنا راغب في مفاتحة والدكِ الكريم بموضوع سيغير مجرى حياتكِ للأبد، فما قولك؟

التفتت إليه الفتاة صائحة بغضب:

- أتظنني مجنونة كي أرتبط بذي عاهة مثلك يا أعرج؟

- ألا يحق لذوي العاهات الارتباط؟ معذرة فقد خلتهم بشرا.. أم تراني أخطأت؟

توقفـت الحافلـة فـي المحطـة التاليـة، فنهضـت الفتـاة مبتسـمة باستهزاء وهي تقول للفتى الأعرج:

- ليس إذا كانوا مسلمين!

وهبطت من الحافلة تاركة الشاب يتساءل حائرا:

- ما الذي قصدته تلك اللعينة بكلامها؟

ردَّ عليه المحصل الذي شعر بالسأم أخيرا:

- قصدت أنها لا تناسبك في مطلق الأحوال يا فتى، فهي ابنة صائغ يهودي!

- يهودية؟ يا له من موقف! أهنالك يهود كثر في المنطقة؟

أجابه السائق الكهل هذه المرة وهو يبصق من خلال نافذته المفتوحة:

- إنهم ملء شعر الرأس هنا!

- ولماذا لا يشتري لها والدها الصائغ سيارة بدل التنقل بالحافلات؟

- الرجل أبخل من.. أبخل من أبخل يهودي عندهم في الجيتو!

وتضاحك الثلاثة بحناجر أضر بها التدخين المفرط، فتبسم (جرير) صامتا..

الواقع أنه لم يكن متأكدا من صعود فتاة على متن الحافلة، ثمة ما صور له بعين الخيال فتاة يهودية تصعد متن هذه الحافلة، حتى الحوار الذي دار بين شخوص تلك المسرحية الخيالية عقله ما تكفل بتدوين كل ما قيل في «السيناريو»!

لقد نال من القرية التي زارها سابقا خاصية هي أقرب للعنة، لعنة تغزل من خلالها المخيلة خيوطا تحرك عقليته كعروس «الماريونيت» لتضلله..

- «سأنزل هنا..».

فتوقفت الحافلة، وترجل الشاب الأعرج وهو يرفع كفه محييا الجميع، فبادلوه التحية بإشارات متعجلة من أياديهم قبيل معاودة الانطلاق..

اتجه المحصل إلى مقعده، فتناول من أسفله حقيبة سوداء يوحي مظهرها بأنها تحوي آلة موسيقية وترية ما، بالفعل قام بفتحها ليخرج منها كمانا فضيا بديع الزخارف والنقوش، يبدو كقطعة فنية لا تقدر بثمن.. ولم تنته المفاجآت عند هذا الحد، فقد فوجئ (جرير) بالكهل يترك عجلة القيادة مستغرقا في البحث أسفل مقعده!

- «سنصطدم يا معتوه!».

شعر (جرير) بأنه يخرف أخيرا، فقد وجد عجلة القيادة تتحرك من تلقاء نفسها! فتدفع الحافلة للانعطاف يمنة ويسرة، بل وأحيانا يتصاعد صوت النفير من دون أن يمسه السائق أيضًا!

أخيرا، عدَّل الكهل من نصفه العلوي حاملا بين يديه مزمارا غريب الشكل، يشبه غصن الشجرة لكنه من الفضة أيضًا، وتلتف حول قصبته أشكال كالنباتات المتسلقة، منحته مظهرا بديعا لا شك فيه..

قال المحصل ملوحا بعصا العزف:

- أعرفك على أفضل عازفين على وجه البسيطة.. أنا صاحب الكمان (شمنائيل)، وهذا شقيقي عازف المزمار (نورائيل)!



همس (جرير) ذاهلا:

- أشعر بتوتر مما يحدث! وبخوف مما سيحدث!

هنا، مرر المحصل على أوتار كمانه بعصاه الغريبة التي تشابه السيف، فتلاشى خوف وتوتر (جرير) كأن لم يكن، وحدق في وجه عازف الكمان المستغرق في عزفه بذهول..

وعندما مسَّ سائق الحافلة فوهة قصبة مزماره بشفتيه، وأنصت (جرير) إلى تلك الألحان التي خرجت منه، دمعت عيناه حتى تشوشت الرؤية لديه.. من المستحيل أن تكون تلك الألحان من صنع بشر، لقد هبطت من أفق آخر حتما!

شعر بحدقتيه تتثاقلان، فاستسلم لذلك مرحبا!

■ ■ ■

- «يا أخينا!»..

استفاق (جرير) متثائبا، فأبصر المحصل وقد عكف على هزه بنفاد صبر، في حين نزل السائق، وظلَّ الراكب العجوز النائم بمكانه!

نهض (جرير) وقد رسم على شفتيه بسمة ناعسة متمطيا، وبفاه مفغور عن آخره غمغم:

- يا له من حلم غرييييب!

- ماذا؟

لحق (جرير) بالمحصل كاتما ضحكةًعندما تخيله من جديد بذلك الكمان، كانت النكاشة لا تزال بين أسنانه، فلو أبصره في حلم يقطع السمك في السوق لما استغرب، ولكن أن يعزف كخريج بارز من جوليارد؟!

- «وصلنا المحطة؟».

- «وصلنا..».

ارتفع صوت السائق الأجش صائحا بالمحصل:

- املأ الحافلة بالوقود..

- حاضر..

كذا ردَّ عليه بخشونة منتزعا خرطوم الوقود من مكانه..

- «ونظف الزجاج جيدا!»..

- «حاضر! حاضر!»..

وبقطعة من الليف مبلولة بالماء، شرع المحصل يمسح زجاج الواجهة الأمامية للحافلة في همة، مدندنا مقطعا من أغنية لفيروز كي يتحمس أكثر أثناء أدائه عمله المضجر..

أشعل المحصل لنفسه سيجارة، متجاهلا تحاذير محطة الوقود المنذرة بعدم التدخين، وطفق يتأمل العجوز النائم في آخر مقعد داخل الحافلة بابتسامة باهتة..

في حين أخذ (جرير) بالتلفت حوله..

كانت الأفكار تصطرع داخل مخيلته الواسعة حول عديدٍ من الأشكال والأشياء، بعضها واقعي والبعض الآخر لا يمت للواقع بأدنى صلة! مَن مِن أقرانه قال عنه مضطرب الذهن؟ حقا لا يذكر!

كان يعلم أن الحافلة ستتوقف في هذه المحطة التي كانت أقرب نقطة إلى البلدة التي يقصدها، كان يحمل حقيبته الملأى باحتياجات رحلته الشاقة، ومن حزامه المغطى بسترته البنية، تدلت مدية الجيش التي لا يستغني عنها أبدا..

كانت المسافة لا تزال بعيدة، لذا انطلق في طريقه منصتا إلى عقيرة محصل الحافلة، التي تحولت الآن من غناء إلى صفير يشابه زقزقة العصافير!



23

بين الأشــجار المتكاتفة على حدود البلدة مباشرة، ووسط الظلام الذي بدد أكثره ضوء النار المشتعلة، قرفص (جرير) أمام ناره منهكا..

- «ما الذي جاء بنا إلى هنا بحق الله؟».

نظر (جرير) إلى رفيق رحلته التوأم قائلا له باستهجان:

- اهدأ أيها العقل السخيف!

كان يـرى بعين الخيال «جريراً» آخر يقـف بالقرب من النار كأنما يحـاول الظفر ببعض الـدفء! وقد كان (هذا الآخـر) أكثر عصبية إذ قال:

- «لســتُ أدري بـأي حق تحكمـون على عالم كامل بالسـخف، وأنتم جنس يمتلئ نصفه – على الأقل- بالسخافة والسخفاء!

سِـمه إعجـاز الخالق في خلقه! سـر من الأسـرار المبهمة، إلا أن تطلق عليه سخفا وما شابه ذلك..»..

- ربما تكون محقا..



- «أنتم قوم متعنتون حتى ولو رأيتم الصواب مجسدا!»..

- وأنت تحب أن تفلسف الأمور..

- «هذه مهنتي!»..

وهنا تعالت أصوات عواء الذئاب! فأسرع (جرير) الآخر يقول مغيرا دفة الموضوع بتوتر لاح في نبرته:

- «إذا بتنا الليلة في العراء فستكون الذئاب أولى زبائن هذا «البوفيه» المفتوح.. ماذا نصنع الآن؟ لا يمكننا البقاء هنا..»..

- شارفنا على الوصول، أنا أرتاح ليس إلا..

- «انهض واسترح في دارك إذن!»..

- يا لك من رعديد!

قالها وهو ينهض مستأنفا السير، وإن عجَّل في خطواته قائلا بسخرية:

- يقال أن الذئاب عفاريت متنكرة، أليس كذلك؟

- «ليس كلها.. لماذا تعشقون حكايات العفاريت والغيلان ليلا وحول النار المشتعلة؟»..

- طبيعة بشرية أرجو عدم محاسبتنا عليها..

- «تبا! هذا العواء يثير حفيظتي.. أتعلم؟ هذه الغابة صالحة لحكاية مفزعة من التي تسردها عليكم جداتكم، وبالمناسبة بعض تلك الحكايات حقيقي!»..



- مثل ماذا؟

- «خذ عندك مثلا حكاية الصبيَّان اللذان خرجا إلى الغابة للعب الغميضة في هذه البقعة تحديدا..»..

- دعني أخمن، لقد طالت فترة اختبائهما، أليس كذلك؟

اكتسى وجه (جرير) الآخر بتعبير الخطورة، وهمس مواصلا السرد:

- «لا أحد من البشر يعلم ما الذي حدث سوى الصبي الأول، فقد عاد للبلدة مع أولى نسائم الفجر وهو ملوث بالدم وقد جن كليا.. كان يصرخ قائلا أن الغيلان التهمت صديقه، وخرج الأهالي بحثا عن الصبي.. بحثوا في كل شبر من الغابة حتى كلوا، وأخيرا أعلنوا أن الغيلان هي التي خطفت الصبي فعلا كي تأكله!»..

- بصلاة سيدنا الرسول الكريم، هل هذه الحكاية حقيقية؟

تبسم (جرير) الآخر مجيبا بلامبالاة:

- «مجرد حكاية من حكايات الجدات يا صاحبي، من الواضح أنهن يسعدن بإثارة هلع أحفادهن بقصص العفاريت!»..

- عندما يصاب الواحد منا بالصرع، يسارعون بدق الطبول على أذن المسكين أياما بلياليها بحجة طرد العفاريت..

قال (جرير) الآخر ساخرا:

- «أي أن العفاريت أرحم!»..

صمت (جرير) قليلا، ثم قال متأملا دربه المعتم ببصرٍ شارد:

- ثمة شخص..

- «أين؟»..

- هناك!

■ ■ ■

بدا الظل من بعيد لشـخص بالغ يتحرك بصعوبة، بدا كالسكير من فرط ترنحه..

- من أين ظهر هذا أيضًا؟

قالها (جرير)، فهمس الآخر متوترا:

- «أي مجنون يتسكع في ساعة متأخرة كهذه؟».

- من حسن حظنا أنه مجنون، أليس كذلك؟

- «ماذا لو كان.. قل أعوذ برب الفلق!»..

- يبدو وأنك ممن يؤمنون بالأشباح!

- «بالعفاريت وليس الأشباح!»..

- أخيرا صرت تصدق قصص الجدات عنهم؟!

لكـن (جريـر) كان خائفـا حقـا، علـى الأقل في سـره، فلـم يكن مستعدا لإظهار خوفه أمام أي كائن.. حتى ولو كان من وحي خياله!

ابتلع ريقه وسار بخطوات حثيثة مناديا:



- أنت يا هذا!

كان الظل يسير ويهوي كالمتخبط قبيل استعادته توازنه، بدا وكأنه قد تنبه أخيرا لوجود كائن بشري في الغابة، وتساءل (جرير) عن سبب مجيئه إلى هنا بعيدا عن البلدة..

ثمة سبب، وهو أن يكون هذا الشخص مخبولا.. رباه! كم يكره رؤية مخبول! إنهم يصيبونه بالذعر أكثر من..

فوجئ به يظهر في دائرة بصره القريبة.. شاب مبعثر الهيئة، ملطخ بالدماء القانية الغزيرة! وقد رمى بنفسه على (جرير)، قائلا وهو يلهث كالكلب الظمآن:

- لا.. لا.. لام..!

- ماذا أصابك بحق الله؟!

لكنه عرف بخبرته ما أصابه، كان الفتى مطعونا في كل شبر من جسده بأداة حادة!

- «يا إلهي! إنك بحاجة إلى مستشفى! دعني..»..

قاطعه الشاب لاهثا وقد تبدت نظرة جنون طاغ في عينيه المتسعتين عن آخرهما:

- لام.. لامة..!

- ماذا؟!

- لاااااماااااا!!

ثم همدت حركته تماما وللأبد!



24

هل قال «لامة»؟

أهي هلوسة ما قبل الموت؟

حدق في الجثة الممدة بجواره وقد شعر بالضياع..

كانت صدمة له أن يرى الموت هكذا وجها لوجه، في الجيش أثناء تأديته الخدمة العسكرية كانوا يدربونهم على استخدام آلات القتل، يرددون بصرامة أن الجندي المقدام لا يهاب الموت.. هذا هراء!

حتى أثناء حراسة عنابر المحكوم عليهم بالإعدام، تبدت الأمور مختلفة تماما عن رؤية تنفيذ الحكم بهم.. اليوم فقط تعرف قابض الأرواح المخيف، ورأى كيف يعمل بسرعة وبلا هوادة..

شعر أن عليه دفن الجثة، فاحتملها محاولا التماسك.. اختار نقطة مميزة لدفن الجثة هناك بالقرب من منازل البلدة، لأنه سيعود حتما ومعه عناصر من الشرطة، الذين لن يجدوا سواه لإلصاق الجريمة

النكـراء به، وعاودت مخيلته العمل، فوجد نفسـه مجددا بين جدران زنزانـة رطبة مرتديا هذه المرة زي المحكوم عليه بالإعدام ذي اللون الأحمر الكئيب!

كانت عملية الدفن شـاقة وطويلة، فقد اسـتعمل مدية الجيش في الحفـر، وفـي النهاية أتـم عملية الدفن بنجـاح لا بأس بـه، ولم ينس وضع بضعة أحجار حول القبر المرتجل زيادة بالاحتياط، كي يسهل عليه تعرف القبر، ثم حاول إشـعال سيجارة، فاكتشف - مغتاظا- أن القداحة قد أصابها العطب، فأطلق سبة واستدار مواصلا طريقه..

■ ■ ■

حين نظر حوله استشعر طعم الرعب الذي ذاقه كل من وجد نفسه وحيـدا في بقعة منعزلة، حتـى ولو كانت هنالك بيوت، فما الفائدة ما دامت معتمة وكأنها مهجورة؟

سـار متلفتـا حوله في شـيء مـن هلع، كأنـه يرى شـياطين العتمة الدامسـة ترنـو إليـه بخطـى حثيثـة! وفكـر أن المنـازل بالفعـل تبدو مهجـورة، أيـن الأضـواء؟ أيـن النـاس؟ هل رحلـوا بمجـرد انقطاع الكهرباء؟

عاود تأمل المكان الرهيب وقد اسـتيقظ الطفـل الصغير الرعديد الكامـن في أعماقه.. بدا صـوت الزمهرير كعويل ألـف روح معذبة، أصـوات رهيبـة، منذرة بقـرب حلول كارثـة مخالفة لشـرائع الطبيعة

وقوانين البشر، كأنما ثمة كائن شيطاني يتنفس هذا الهواء البارد المجمد للدم في العروق، ويراقبه!

بعد ثوان استيقظت غريزة شعرية بداخله! فشرع يبحث عن وصف ملائم للرياح الباردة، والبيوت الساكنة، وشعوره بعدما قام بدفن جثة قتيل!

بالفعل بدت الطريقة ناجحة للغاية، فقد نسي أكثر مشاعر الخوف باحثا عن أبيات تناسب قصيدة جديدة، وأخرج قصاصة ورق صغيرة لتدوين بضع ملاحظات عليها، وأغمض عينيه لتذكر بعض تلكم المشاعر الرهيبة التي فقد أكثرها قبل قليل!

وهنا تذكر بأنه قد لمح شيئا وهو يمرر بصره على البيوت المتعددة، أحد تلك البيوت استرعى انتباهه، ذاك الذي قبالته بالضبط، يكاد يقسم بأنه قد رأى ضوءا شاحبا يمر خلف إحدى نوافذه!

لربما يستطيع أحدهم إفادته بما وقع هنا..

هكذا أسرع باتجاه ذلك المنزل، ووقف على بابه ليطرقه عدة مرات بقوة، ثم طفق ينتظر مجيبا..

شعر أن انتظاره قد طال نوعا، فعاود الطرق بقوة أكبر، لعلهم نيام..

أم لعله توهم رؤية ذلك الضوء؟

مدَّ يده لمقبض الباب وأداره ببطء، فاستجاب له وانفتح!

كانت دعوة قبلها على الفور، فدلف بلا تردد للداخل هاتفا:

- يا أهل الدار! هل من أحدٍ هنا؟

كان يحوي أثاثا صار لسُمك الغبار عليه وزن، ومع هذا كل شيء مرتب في مكانه، ولمح (جرير) الدرج المؤدي لفوق، فأسرع يعتليه وقد وجد نفسه يحاول ألا يصدر صوتا هذه المرة، فقد شعر بأن ثمة شيء ليس على ما يرام..

وهنا سمع تلك الموسيقى العجيبة.. بدت مشوشة قليلا، وكأنها صادرة عن مذياع سيء الإرسال.. نظر (جرير) إلى أنامله فوجدها ترتعد رغما عنه، مع أن المنزل كان دافئا!

تثاقلت خطواته أكثر وهو يلعن الأزيز الناجم عن الدرج الخشبي القديم حتى وصل لفوق، فأطل برأسه ليلمح حجرة تصاعد منها الضوء الشحيح، وكذلك الألحان التي صارت مسموعة أكثر من ذي قبل.. تقدم ببطء حتى بلغ الحجرة، ومن فرجة الباب الضيقة استطاع رؤية مذياع كئيب المنظر، أسود اللون، موضوع على كرسي..

لو أنه فتح الباب بأكمله ليجد ألا أحد هنا، فلسوف يهرع هاربا من البلدة بأكملها وبأقصى سرعته!

بقلب يدق بسرعة عدو الحصان قام بدفع الباب ببطء وحذر..



تنهد بشيء من الارتياح، فعلى ضوء شاحب لشمعة شبه ذائبة، جلس رجل ثلجي الشعر تماما على مقعد مريح، كان موليا ظهره لجرير وقد بدا كأنه لم يحس بقدومه..

دنا (جرير) من الرجل هامسا برفق:

- عمت مساء يا عماه..

ظلَّ الرجل صامتا، فتفكر (جرير) هنيهة.. إنه إما نائم أو ميت!

تأمل وجه الرجل العجوز، فوجد لحية رمادية كثة ذات حجم هائل، ثم انحدر بنظراته لأسفل، فرأى عند قدمي الرجل قطة رمادية - أيضًا-، وقد قتلت خنقا بحبل غليظ التف حول عنقها!

حاول (جرير) إيجاد تفسير مقنع لما وقع هنا، فتوصل إلى أن العجوز كان نائما، عندما باغتته قطته - علم أنها قطته لأن حول عنقها بخلاف الحبل القاتل طوق جلدي في مقدمته ميدالية فضية مزخرفة-، فثار العجوز لتلك المباغتة التي أفزعته حتما، وقام بخنق القطة في لحظة غضبٍ أعمى!

تفسير واه، لكنه أفضل ما أوجدته قريحته، وعلى العموم بإمكانه سؤال العجوز عما حدث بالضبط!

عليه أن يحاذر من إيقاظه بطريقة تجعله يثور عليه..

- «يا عماه!».

هزه برفق وهو يدعو الله بألا يكون قد أماته..



- «أفق بالله عليك..».

أخيرا، أظهر الرجل بعض لمحات الحياة حين اهتز جسده، ورفع رأسا متثاقلة ليواجه هذا الزائر الذي اقتحم عليه داره وخلوته، ويقف الآن بطريقة بريئة بعد أن قام بإيقاظه من غفوته!

- «اعذرني على إيقاظك يا عماه، لكن البلدة بدت..».

كانت ردة فعل العجوز مذهلة لحدٍ لا يصدق.. فقد شحب وجهه بصورة مريعة، ثم هبَّ واقفا وقد طار كل أثر للنوم من عينيه وهو يصرخ:

- ماذا تفعل هنا؟ اخرج عليك اللعنة!!

- ماذا؟!

- كيف دخلت إلى هنا؟!

- لابد وأنك نسيت إقفال الباب!

- اخرج!!

وبغضبٍ زائد عن الحد تحرك ليدفع بجرير في خشونة منفعلة، حتى لكاد يتعثر بجثة القطة المشنوقة، وحاول (جرير) قول شيء لتفسير موقفه، لكن الموقف بأكمله ألجم لسانه تماما!

كان الرجل يواصل صراخه:

- أخرج! أخرج عليك اللعنة! حتى قطتي الغالية! آخر ما تبقى لي من عائلتي، قتلتها كي أحظ بالخصوصية! ثم تأتيني - يا نكرة- لتدمر كل شيء؟!

- عن أي تدمير تتحدث بحق الله؟!

- ألم تفهم بعد؟ لقد ضحيت حتى بكتبي لأصير وحيدا!

أخرج عليك اللعنة! أخرج!!

وهكذا وجد (جرير) نفسه يطرد شر طردة من المنزل الذي كان أمله الوحيد لتحصيل بعض الأجوبة!

كان يقف حائرا بالخارج بعدما أغلق العجوز الباب في وجهه بكل صفاقة.. ألهذه الدرجة يكره الرفقة؟ ربما جعل هذا جيرانه يأنفونه، لكن ليس البلدة بأكملها! لابد وأنه مصاب بلوثة عقلية!

- «اذهب لجزيرة وسط المحيط يا معتوه!»..

وتلفت حوله متنهدا، كان قد شعر بشيء من الأمان بعد اكتشافه بأنه ليس وحيدا هنا، وإن وتره تصرف العجوز الأرعن المحب للانطواء..

ثم خطر له التالي: ماذا لو أن ثمة آخرين مثله في البلدة؟

هنا لاحظ تلك الخطوط على الأرض، خطوطا ذات لون قرمزي داكن تخرج من أمام باب منزل الرجل العجوز، ثم تنطلق كسجادة عنابية على الأرض حتى اختفت في قلب الظلام!

ترى ما الحكمة من رسم تلك الخطوط القرمزية المشوهة؟ إن منظرها ليحير الناظر إليها بشدة، لقد بذل راسمها مجهودا هائلا برسمها، فإلام يرمي بفعلته الغريبة؟

قرر (جرير) تتبع تلك الخطوط القرمزية، فقد شعر أنها دلالة على طرف خيط ما أو طريق، ولربما دلته على بشر..

هكذا، سار على الطريق القرمزي العريض وهو يتذكر - متهكما- حكاية ساحر «أوز»، حين كان يتوجب على (دوروثي) أن تسير على الطريق الطابوقي الأصفر كي تصل إلى قلعة الساحر..

كان البرد قارصا، فرفع (جرير) ياقة سترته الجلدية البنية لستر أذنيه، ثم أوثق بساعديه أمام صدره.. تذكر مسكنه غير المرتب، ودفء سريره ذي الملاءة الممزقة، وإناء القهوة السوداء الدافئة..

يا للشوق الذي اعتصر فؤاده لعالمه الهادئ المألوف!

فجأة، توقف عن السير وقد خطر له خاطر مفزع رهيب..

انحنى أرضا لتفحص تلك الخطوط القرمزية، حك بأظافره الأرض، قبل رفعها إلى أنفه كي يتشممها ويفركها ببطء وريبة..

وفي النهاية، تسمر متأملا الخطوط الداكنة وشعر رأسه ينتصب، وتصاعد الفزع من بين ثناياه متراجعا للوراء..

هذا ليس طلاء وإنما دماء متجمدة!



25

كان اللون الدموي العريض ينطلق عبر مساحة حرة، دون أن يمر أسفل منزل أو بناية..

راقبه (جرير) وقد فقد جزءاً ضئيلا من ذعره الآن، وفكر في أسباب تواجد هذه الخطوط في جميع أنحاء البلدة.. بالطبع لم يجد سببا واحدا مقنعا، فقد تم استهلاك كمية هائلة من الدماء لرسم هذه الخطوط المشوهة..

ورغم اكتشافه الجديد قرر تتبع آثار تلك الدماء، لعله يظفر بإجابة لكل تساؤلاته الملحة.. هكذا واصل سيره لكن بجوار الطريق ذي اللون القرمزي، فهو لم يحتمل فكرة السير فوق دماء!

البرد يشتد، والبخار الأبيض يخرج من بين شفتيه كلما زفر، حشد من الشتائم تكوم في رأسه على كل الظروف التي ألقت به في هذه المحنة، وعقله ماض في تخيل نهاية مناسبة لكل هذا الجنون..

جميع المنازل التي مرَّ بها لم تشجعه على طرق أبوابها لأنها كانت بلا أبواب أصلا! كما أن النوافذ مدعمة بألواح خشبية عريضة! ما أكد ظنه بأن أكثر أهالي البلدة قد رحلوا لسببٍ غامض، فمن المستحيل على أحد السكنى في منازل كهذه إلا لو كان مجنونا، وهو غير مستعدٍ لملاقاة أحدهم كي يثير ذعره بحركات لا معنى لها وكلمات بلهاء..

طالت رحلته نوعا مع أنه كان يفكر، فالتفكير لا يُشعر المرء بمرور الوقت، لكنه شعر به، ولاحظ بأنه قد سار طويلا فقد كلت قدماه..

توقف بغتة ملتفتا جهة اليمين، فلمح ما هو كافٍ بالفعل لجعل هذه الليلة ليلة رعب بحق!

أبصر مقابر البلدة! الشواهد الحجرية القديمة منتصبة كالأوتاد على التربة، تحوي في الجوف بقايا من كانوا يتمشون فوقها يوما متمتعين بالحياة، ورأى - في تعاسة- شجرة مسودة تعلق بأحد أفرعها غراب بينٍ أبقع، ابتدأ سيمفونية النعيق المقبضة!

لكن (جرير) لم يهلع، فقد شعر بجو من الاستخفاف المرير يحيط به وهو يواصل رحلته.. إن لديه أملا من نوع ما.. بأن كل ما يقع طبيعي حتى الآن، وسيستمر كذلك، لا شيء يدعو للرهبة أو الخوف، حتى الطريق المطلي بالدم له سبب، وهو سبب يعود لفترة طويلة مضت، لا شك أن من قاموا برسمه هم بضعة مخابيل لا أكثر!

ثم لمحها!



فتاة ترتدي قميصا بنفسجيا وتنورة كحلية اللون، ذات شعر ناعم طويل بلون الليل!

هل كان يتوهم؟ أهي موجودة حقا أم مجرد حلم؟ إن بصره لم يعد على خير ما يرام هذه الأيام، لذا قام بفرك عينيه، ثم رفعهما إلى ذات النقطة التي أبصر عندها الفتاة، وكما توقع لم يجدها!

لطالما شاهد شخصيات وهمية، لكنها كانت من نسج مخيلته، فقد كان التحذير الذي تلقاه سابقا من عوالم الوهم صحيحا!

إن أجواء هذه المقبرة تجعل الأوهام تتبدى كالحقيقة، فقد خيل إليه رؤية فتاة تتأمل شاهد قبر ما بنظرات حزينة!

صرخ عقله محتجا: ما الذي تحاول فعله يا أحمق؟ ما الذي تريد إثباته برعونة؟ أنت قد رأيت تلك الفتاة وتتظاهر بأنك تتوهم؟ أي عقلية بلهاء هذه؟ بل أي حمق هذا؟

وقبل أن ينصت للمزيد من اهانات عقله إليه، خفَّ (جرير) للمقبرة مترامية الأطراف محاولا ألا يفقد السيطرة فيذعر، كانت المقبرة بلا أسوار كما لو كانت متنزها عاما، وبحث طويلا في الأرجاء عن تلك الفتاة، لكنه لم يجدها كما توقع، فركل حجرا صغيرا بغيظ، ثم تأمل الشاهد الذي كانت الفتاة تنظر إليه..

كانت هنالك عبارة مكتوبة بالدم على الشاهد، تقول:

الوشاية كالقتل!

من كتب هذه العبارة؟ أتراها الفتاة؟ أم أنها كانت تتأملها فقط؟

قـرر (جرير) الالتـزام بطريقه الموسـوم بالـدم، إن البلدة ليسـت بالكبر الذي يحسـبها الداخل إليها، لكنها كافيـة لأن يتوه فيها المرء، خصوصا في الظلام مع عدم وجود إنارة..

وقبـل أن يرحل حـك بأظافره موضـع العبارة المدونـة، فوجدها جافة، مما دله على أنها كتبت قبل فترة طويلة كذلك..

واصل (جرير) طريقه لاعنا حظه العاثر الذي جعله يحمل سجائره مـع قداحـة معطوبة، شـعر بحاجة ماسـة لنفث خواطره السـوداء مع الدخان السـام خارج رأسـه، وعاودت ذاكرته اسـترجاع ملامح تلك الفتاة المليحة والحزينة، وفي أعماقه تسـاءل عن سـبب تواجدها في المقبرة المقبضة..

ثم انه توقف ليخرج قصاصة الورق ليسـجل العبارة الدموية فيها، فهـو بحاجة لتذكر مثل تلك العبارة المبهمة، لأنها قد تفيده مسـتقبلا في قصيدته القادمة!

كانت عبارة مألوفة، لربما طالعها سـابقا في كتاب ما، ولـم يستطع التذكر..

أما من نهاية لتلك الخطوط البغيضة؟

أجل.. إن لها نهاية!



26

كان منزلًا أقرب إلى فيلا راقية، واحدة من نوافذه مضاءة!

لاحظ (جرير) كذلك ملاحظة هامة: الخطوط الدموية انتهت عند عتبة الباب، ثم ابتدأت من هناك مجددا، راسمة طريقا جديدا لا يعلم إلا الله من قام برسمه!

فليؤجل التفكير في موضوع تلك الخطوط الكريهة، وليجرب حظه مع هذا المنزل..

طرق الباب وهو يدعو الله ألا يكون قاطن المنزل من محبي الانطواء هو الآخر، ثم طفق ينتظر مجيبا..

لحسن الحظ سمع صوتا رجوليا مطمئنا ينادي:

- لحظة.. أنا قادم حالا!

شعر باستغراب شديد.. صوت الرجل يدل على الاعتياد، وهو أمر لا بأس به في أي مكان عدا هذه البقعة الكئيبة والمثيرة للمخاوف، إن

صاحـب هذا المنزل معتوه أو ذو أعصـاب مضبوطة ليقطن هنا بتلك البساطة!

كان يجتر تلكم الخواطر عندما فتح الباب بغتة..

رجـل مكتنـز يطل، له صلعة خفيفة، ويرتدي نظـارات طبية، لكنه غير مريح! ابتسـامته بها نوع من المداهنة أو التملق، ثمة مسـحة مكر على وجهه لا تخطئها فراسة الإنسان المدقق..

- «معذرة لتطفلي، وددت لو أن بالإمكان مساعدتي..».

تأمـل الرجل ملامـح (جرير) وكأنه يبحث عن شـيء مـا، ثم قال باسما بتخابث لا مبرر له:

- أهلا بك!

- لا أحد في البلدة كما يبدو، هل سافروا أم هجروها؟

- كل من يزورنا مرحب به لأن لوجوده معنى حتما، أما من يرحل فيرحل، إذ لا لزوم له!

وضحك بلا مبرر! لا يبدو من مدمني المسكرات إياهم، ربما هو معتوه!

- «تفضل!»..

شعر (جرير) بغتة بأنه زاهد أشد الزهد في هذه الدعوة، إن ليلة في العراء لأهون عليه من ليلة تحت سقف هذا المعتوه صاحب السحنة الماكرة!



- «لا أريد إزعاجك..»..

- «ادخل فالجو بارد للغاية..»..

دخل (جرير) وهو يهدئ من روعه، ليست مشكلة الرجل في أن وجهه غير مريح، إن من يقطن هنا لكفيل بأن يتعكر مزاجه تماما إذا لم يجن!

لكن منظر المنزل من الداخل أراحه كثيرا، فأثاثه نظيف ومرتب، كل قطعة معتنى بانتقائها وتركيبها وترتيبها، كما أن تجانس الألوان بديع حقا، وهذا يدل على الموهبة وحسن التفكير لحسن الحظ!

- «منزلك جميل..».

- «مجاملة جميلة أشكرك عليها..».

- «ليست مجاملة، لابد وأنك مهندس ديكور!»..

- «الحقيقة أنني أعمل مسجلا لعدادات استهلاك الكهرباء!»..

غريب أمر مسجل العدادات الذي يمتلك منزلا كهذا مع أثاث يشي بغلاء الثمن، لكن إذا عرف السبب..

- «لابد وأنك ورثت من أحد أقربائك إذن..»..

- «لا، أيتوجب علي؟»..

- «إذن وضعت مالك الشحيح في مشروع ناجح؟»..

- «لا..»..

- «ربما في البورصة أو..»..



- «لا أفهم إلام ترمي يا فتى..»..

لكن ابتسامة الرجل غير المريحة أخبرته بأنه يفهم ويفهم جيدا..

قال (جرير) في شيء من حرج:

- اغفر لي وقاحتي، ولكن.. هل أنت مرتش أم لاعب قمار؟

أطلق الرجل ضحكة مجلجلة، ثم صبَّ لجرير القهوة في قدح بدا غالي الثمن، قائلا بلا تحفظ:

- كل من قابلني وعرف وظيفتي أدرك بأنني إما ورثت، أو أنني وغد نال المال الحرام لقاء ما هو محظور.. لا ألومهم على تفكيرهم، فهو يروق لي في الواقع ويسليني كثيرا!

- وهل أثقل عليك لو سألتك من أين لك هذا؟ يمكنك اعتباره فضولا يا سيد..؟

- (جبر)، (جبر الفاهم)، لا داعي للألقاب التافهة هنا، فأنا أمقتها بشدة، وأفضل عليها التبسط..

وأخرج علبة سجائره وقداحة - أخيرا-، وعرض سيجارة على (جرير) الذي أخرج إحدى سجائره ليدسها بين شفتيه، ثم استعار قداحة الرجل ليشعلها قبل أن يردها له شاكرا..

قال (جبر الفاهم) وهو يشعل طرف سيجارته هو الآخر:

- الحقيقة أنني كنت كما هو متوقع من مسجل العدادات أن يكونه، بصعوبة بالغة كنت أجد لقمة العيش، وبصعوبة أكبر كنت

أدفع ثمن إقامتي في حجرة ضيقة، كل صباح أستيقظ لألعن الحياة والحال التي تأبى التغير، وأطمح دوما إلى سبل تغييرها لأودع الفقر اللعين للأبد..

أخيرا اتخذت قرارا كان السبب في تغيير مجرى حياتي، من الآن فصاعدا لن أكون ذاك الحمل الوديع وسط حشود الذئاب النهمة، إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب!

- منطق لا أحترمه كثيرا في الواقع..

- هذا شأنك! لكن وسيلتي ابتدأتها مع أحد الموظفين الشبان في الهيئة، كان تافها مستهترا وثريا، يتظاهر بالعمل لأنه لا يجد شيئا آخر يفعله، وراتبه أعلى من راتبي بكثير، تفكيره ضحل، وكل ما يشغله هو كيفية العيش بسعادة أكبر، كيفية الاستمتاع بالحياة بكل ما تحويه من متع لماجن منحل مثله!

لقد ذكر (ميكافيللي) في كتاب الأمير بأن: «الغاية تبرر الوسيلة»، الحقيقة أنني اتخذته مثالا يحتذى به!

شعر (جرير) بأنه قد بدأ يتوتر في جلسته، إنه لم يكن مخطئا بخصوص عدم ارتياحه لهذا الرجل..

ويتابع (جبر الفاهم) حديثه الذي جنح الآن من الرزانة للتلهف:

- تقربت منه، ساعدته بمناسبة أو بغير مناسبة، كنت أستغل جهله لأوقعه في ورطات إدارية وهمية، ثم أقوم بإخراجه منها لأنه

يكـره الإحراج وأن يقال عنه غير كـفء للوظيفة (وتلك هي الحقيقة أصلا)..

فـي تلك الأثنـاء، كنت أمارس عملـي في التجوال علـى المنازل لتسـجيل اسـتهلاك عدادات الكهربـاء، فدخلت منـزلا فاخرا جميلا تقطنه امرأة مطلقة تعيش وحيدة بلا أولاد..

كانـت تلـك فرصتي، صحيـح أن الصلـع والنظـارات لا يمهدان الطريـق بيسـر، لكن المـرأة كانت بحاجـة لمن يقف إلـى جانبها في وحدتهـا، لمـن يؤنس وحشـتها، لمن يخبرهـا بأنها لا زالت حسـناء ونضرة رغم العمر الذي يمضي دون هوادة!

لـم تكن نوعي المفضل على الإطلاق، لكنني جعلتها تصدق أنها كذلـك، أمطرتها بعبارات الغزل التي تطرب لسـماعها كثيرا، جعلتها ترتاح لشخصي وتبوح لي ببعض أسرارها، علمت أنها وحيدة وثرية، زوجهـا الأول تزوجها طمعا بثروتها، كان يصغرها سـنا، وهذا يدلك على أنها أغبى من الحيوانات العجماء!

أفهمتهـا أن عليهـا معرفة من هو رائدٌ لمصلحتهـا، لمن هو أقرب لسِنها، عليها بالرجل الذي يبغي بحق منحها السعادة، منحها ما ترغبه المرأة بشدة، الأمومة والعيش باستقرار..

رفع (جرير) كفا مقاطعة وهو يقول بعصبية:



- لحظة، لعلك لاحظت استرسالك في قصة حياتك مع ضيفٍ غريب، ليس هذا فحسب، بل إنك تطلعني على أسرار تمُسُك شخصيا، اعذرني لكنك تصرفت مع الذين عرفتهم بطرق منافية للأخلاق!

- هل لاحظت هذا المكان؟ أقصد البلدة..

- لاحظت، ونويت أن أسألك..

- البلدة صارت مهجورة كليا، لا أثر لكائن حي واحد، لقد هجر الجميع المكان بسبب..

وهنا صمت الرجل قبيل ظهور تلك البسمة الغامضة على ثغره!

سأله (جرير) متوجسا:

- بسبب ماذا؟

- العلم عند الله يا بني!

تجاوز (جرير) تلك النقطة مع أنها تهمه بشدة، ثم قال وهو يشرب القهوة ليشعر ببعض الانتعاش:

- ليست البلدة مهجورة كليا، فقد قابلت رجلا، لكنه طردني لأنه يفضل البقاء وحيدا!

وهنا لاحت الدهشة على وجه (جبر) وهو يتساءل:

- هل قلت: يفضل البقاء وحيدا؟

- أجل!

التفت إليه (جبر) وهو على شروده، ثم بدا مستفيقا على حين غرة حين انتفض رأسه بصورة طفيفة، قائلا بوجل:

- ظننتُ أننا وحدنا في هذه البلدة..

- ماذا تقصد؟ أيوجد معك شخص آخر؟

- أستميحك عذرا؟

- أنت قلت: وحدنا! ومعنى هذا أن ثمة شخص آخر معك، أم أنك قصدتني ؟

- أنسيت زوجتي؟

- غريبة، ظننتك تعيش لوحدك..

- ما الذي دفعك للتفكير بهذا الشكل؟

- الجو العام للمنزل وطريقة كلامك أوحيا لي بذلك! ظننتها ميتة، أو أنها هجرتك!

ثم اعتدل (جرير) في جلسته قائلا بنفاد صبر:

- اسمعني يا سيد (جبر)، هنالك شيء غامض يحدث، شيء أقرب للتمثيلية، وهذه البلدة هي مسرح للأحداث الغريبة، لقد استرسلت في حكايتك مع شخص تقابله للمرة الأولى، قلت بأن من يأتي للبلدة وجوده مبرر، ومن يرحل يرحل، ثم أخبرتني عن زوجتك بطريقة غير مفهومة، وقحة إذا ما سمحت لي! فلا أحد يتحدث عن

زوجته هكذا، ولا أحد يمارس أساليبك التي قمت بها معها أو مع غيرها مثل الشاب الثري الذي غررت به ما لم يكن وغدا منافقا!

تبدت سعادة عجيبة على وجه (جبر) وهو يهتف:

- إذن فأنت تعترف بأني منافق!

- لو أن (عبدالله بن أبي بن سلول) هنا لمنحك شهادة على براعتك!

ولدهشته فوجئ بالرجل يقبض على كتفيه بقوة ويهزه متسائلا بلهفة:

- أتعني ذلك حقا؟

- أعني ماذا؟

- أنني منافق بارع؟

أزاح (جرير) يدا الرجل عن كتفيه قائلا باحتداد:

- هل جننت؟!

تأمله (جبر) مليا، ثم استعاد بسمته المتزنة قائلا بود غريب:

- أنت بحاجة للراحة..

حاول أن يخمن ما ببال (جبر)، لكنه عجز طبعا، فسأله:

- ألن تطلعني على حقيقة ما يحدث هنا بالضبط؟

- مـن قـال أن هنالك ما يحدث؟ الحياة أساسـها حـوادث، أهذا قصدك؟

- هل تسخر مني؟!

- نم الآن والصباح رباح..

نظر (جرير) إليه بشك.. كان مرهقا بشدة، ولكن كيف ينام بسكينة تحت سقف هذا الرجل البغيض؟

أجـل، إنـه بغيض.. رجـل يفاخر بأفاعيله السـيئة هكـذا هو حتما بغيض، لكن (جرير) مضطر للمبيت عنده للأسف..

قال باستسلام باسطا كفه:

- لو تكرمت..

- لفوق، آخر غرفة على يسارك..

- شكرا لك..

وصعـد تـاركا الرجل يرتشـف من قدحه فـي تلذذ، وهـو لا يكاد يخفي انفراج أساريره! كل هذا لأنه شهد له بالنفاق؟

■ ■ ■

غرق في دوامة أفكاره أكثر حتى بلغ باب الغرفة المنشودة، ففتحه ودلف للداخل..

كانت هنالك إضاءة قادمة من أباجورة بجوار السرير، إضاءة ضعيفة، لكنه استطاع بواسطتها أن يرى جسد تلك المرأة التي جلست على الفراش مرتدية ثوب نوم يفضح ساقيها، وقد طوقتهما بذراعيها، ودفنت وجهها فيهما مستسلمة لشرود تام أو غياب عن هذا العالم!

تراجع (جرير) مصدوما للوراء وقد تفاجأ بشدة لوجودها، وظن لأول وهلة أنه أخطأ بالحجرة المقصودة!

التفت للوراء، فوجد (جبر) واقفا وقد رسم بسمة قميئة على ثغره الجاف..

قال وهو يتأمل وجه (جرير) المنذهل:

- هي زوجتي، تفعل ما آمرها به لأنها تهابني وتحبني!

وهنا رفعت المرأة وجها شاحبا ذليلا، وبأشنع نبرة سمعها (جرير) في حياته دمدمت كالمنتحبة:

- اقتلني!

تحسست يد (جرير) مقبض مسدسه الذي انتشله من متاعه ليخفيه أسفل سترته، لكن الشيطان تراجع وهو يشهر مسدسا آخر في وجهه، وقال بصوت صارم وهو يحكم التصويب على جبهة (جرير):

- أيها المغفل! كفَّ عن هذه الحركات في منزل يرحب بك!

هتف (جرير) باستنكار رافعا يداه عاليا:



- مرحبٌ بي؟ كضحية مصاص دماء؟!

ثم تراجع قائلا بحزم للمرأة دون النظر لها:

- انهضي يا سيدة وارتدي ثيابك حالا..

جلجلت ضحكة (جبر) آفاق الحجرة وأرجاء الممر خارجا، قبل قوله باسما باستهزاء:

- يا لك من مغفل شجاع! لا بأس في ألا تهاب سلاحي، لكن لا تضيع وقتك مع زوجتي، فهي لن تبارح المكان!

وهنا تسمر (جبر) وقد ماتت بسمته..

لم يفهم (جرير) السبب إلا حين التفت للزوجة، فوجدها واقفة مرتدية الروب المنزلي، وقد تبدلت نظرة الخنوع في عينيها إلى حقدٍ جلي! فصاح زوجها محتدا:

- عودي لفراشكِ يا امرأة حالا!

دنت منه بخطى حثيثة، ولاحظ (جرير) أنها تخفي شيئا وراء ظهرها، كانت سكينا كبيرة الحجم!

- «أأنتِ صماء؟ قلت عودي لل..»..

وهنا أطلقت صرخة مباغتة وهي تشهر سكينها وتنقض عليه، فدفعت ثمن ذلك غاليا.. وانتفض (جرير) بشدة وهو يسمع ويشاهد الطلق الناري، الذي فجر صدر المرأة وأغرقه بالدماء القانية، قبل أن تهوي صريعة!



تراجع بذعر حتى التصق ظهره بالجدار، وهمس مبهوتا:

- لقد.. قتلتها!

ردَّ (جبر) بقنوط متأملا الجثة:

- هي ميتة منذ زمن، وقد كان لي شرف تحرير روحها من كل هذا الجنون!

والتفت ليرمق (جرير) بنظرة مخيفة، قائلا بحقد:

- اسمع يا هذا، لقد بدأت أشك بأنك مجرد دخيل على بلدتنا وفي الوقت غير المناسب، ولأني لا أزال في مرحلة الشك فلن أغامر بقتلك!

صاح (جرير) رغم دقة موقفه:

- ما الذي تتحدث عنه؟ ما الذي يحدث هنا بالضبط؟!

- أخرج قبل أن أفرغ رصاص مسدسي في رأسك اللعين!

وأحكم تصويب مسدسه تجاه (جرير)، الذي ألقى بنظرة أخيرة على الجثة الممدة أرضا قبل انسحابه بخطى متعجلة، واستطاع (جبر) سماع خطواته وهو يهبط درجات السلالم لأسفل، ثم صوت باب منزله يفتح ويصفق بقوة..

عندها فقط ترك مسدسه يفلت من بين أصابعه ليسقط أرضا، ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يتحسس جثة زوجته القتيلة مرددا بحسرة:

- آه يا زوجتي العزيزة!



27

أخيرا توقف (جرير) ليلتقط بعض أنفاسه..

أول ما خطر له بعدما هدأ هو أن قاطني البلدة حتما قد صاروا جميعهم من الحشاشين أو مدمني الكحول!

لا يوجد تفسير آخر، سوى أن يكونوا ثلة من المجانين لا يدري عنها أحد شيئا!

كان قلبه لا يزال يدق بعنف، وعرق «الأدرينالين» يتصبب بغزارة، وقد اشتدت رغبته في الرحيل أكثر من ذي قبل..

وهنا صمت، حتى أفكاره صمتت..

ركل خطوط الدم الجافة التي تبعها منذ بداية رحلته بشيء من مرارة، وتمنى الحل، أي حل!

شعر كذلك بالبرد يلسعه أكثر من ذي قبل، ومع مرور الوقت شعر أنه قادر على إشعال النار في جسمه لتلافي البرودة الرهيبة، وفكر بأنه بردٌ غير طبيعي البتة!

بعدما هدأت نفسيته قليلا رفع بصره للأمام كي يتأمل البناء الذي توقف أمامه، وكالعادة وجد الخطوط الدموية البشعة منتهية هناك، ومبتدئة طريقا جديدا من ذات الزاوية..

■ ■ ■

(النسخ)

كان انطباعه الأول والموفق عن المبنى أنه مدرسة للأطفال.. المراجيح والمزالق والدوارات في الحديقة، الرسومات على الجدران بألوان زاهية، والتي تمثل صورا لحيوانات تقرأ مرتدية نظارات، أو تلهو مع فراشات وأزهار لها وجوه ذات طابع هزلي، بغية غرس انطباع المرح في نفسية الطفل الخائف الذي يلج المكان للمرة الأولى في حياته..

دخل فناء المكان الذي بدا مهجورا..

تقدم للحديقة حيث تلكم الألعاب، ودفع إحدى المراجيح، فأصدرت أزيزا موحيا بالقدم، وقد انفضت عن المقعد كمية كبيرة من الأتربة، حينها أدرك أن هذه الأدوات لم تستخدم منذ فترة طويلة، كما أن الصدأ قد تمكن من كل قطعة معدنية في تلك الألعاب..

ظل يتأمل الأرجوحة المتحركة ببطء مصغيا لأزيزها الكئيب، عندما قرر أخيرا الدخول للمبنى..

كان البـاب مفتوحا على مصراعيه، والفوضى تعم أرجاء المكان، كتبٌ وأوراق ممزقة ومتناثرة، كراسٍ محطمة هنا وهناك كأن إعصارا قد دخل..

وعلـى الجـدار المواجـه لـه في آخـر الممـر، اسـتطاع لمح تلك العبارة..

تقدم أكثر كي يتأكد من الذي يطالعه..

سـامـر قتـل سمـيـرة !

ظـل يحدق في تلـك العبارة مليا، ثم نظر جهة اليمين حيث الممر الطويل الذي تواجدت أبوابٌ على جانبيه، ولم يقاوم الإغراء - وأي إغراء!- فقام بتفحص بعضها، فوجدها كلها موصدة يتعذر كسـرها، وللوهلة الأولى ظن باقي الأبواب كسابقتها، وبأن الرحيل من هنا هو أفضـل حل، لكنه لم ييأس حتى وجد أخيرا بابا يفتح، وبلا أدنى تردد دلف للداخل..

كانـت قاعة عـرض، حيث توسـطها تلفاز كبير الشاشـة مع جهاز «فيديو»، استغرب وجودهما في مكان مهجور كهذا المكان!

وأمامـه، وقـف قط بنـي أخـذ يرمقه بنظـرات ثابتـة أثـارت ريبته واهتمامه وخوفه بآن واحد!

■ ■ ■



(المسخ)

رمق الصبي أسود الشعر الواقف عند باب قاعة العرض بعينيه الزبرجديتين اللتين تومضان في العتمة، وبحزم وعزم فكر بأن ثمة طريقة وحيدة لاطلاع الصبي على حقيقة ما جرى هنا..

خفَّ بقوائمه الأربعة باتجاه جهاز الفيديو، وبواحد منها قام بدفع الشريط داخل فتحة الجهاز كي يرى بنفسه..

وهكذا اقترب الصبي وقد بدا عليه الخوف، ثم تشجع وقام بتشغيل شاشة التلفاز.. رأى الكاميرا تصور مجموعة من الصغار المرحين داخل أحد الفصول، الجميع يضحك ويمرح ويشير للكاميرا بشتى الوسائل الهزلية..

ثم ركزت الكاميرا عدستها على وجه طفلة جميلة ذات شعر كستنائي قصير وناعم، وسمع الصبي صوتا أنثويا ناضجا - صوت صاحبة الكاميرا- يقول للطفلة بمرح:

- (سميرة)، أسمعينا الأغنية غيبا، فأنتِ شاطرة وتحفظينها..

ضحكت (سميرة) كثيرا، ثم ابتدأت الإنشاد بالانجليزية ووجهها يحمر خجلا:

- «(جاك هورنر) الصغير..

جلس في الزاوية..

ليأكل فطيرة الكريسماس خاصته..



وضع فيها إبهامه..

وسحب للخارج لعقة..

ثم قال: أي صبي جيد أنا!».

- «برافو (سميرة)! برافو..».

تشوشت الصورة مع الصوت لبعض الوقت، قبل معاودتهما الظهور بمشهد جديد ومختلف كليا..

مشهد الطفلة (سميرة) جالسة وحيدة، وتنظر للكاميرا التي تصورها بثبات.. شيء ما خطأ بشأنها هذه المرة.. عيناها كانتا محمرتين.. وبنبرة رتيبة قالت:

- لقد أخطأتِ يا مِس! (بكسر التاء)

ومن ثم رجع التشويش ليبقى حتى نهاية الشريط!

نظر للصبي، فوجده ساكنا ممتقع الوجه، ثم وجده يحدجه بنظرات ملؤها الحيرة، قبل سماعه يقول محاولا الاقتراب منه ببطء وحذر:

- ما الذي تحاول إخباري به؟ إذا كنت تفهم كلام البشر فأعطني علامة ما..

علامة ما؟ خدش بمخالبه الأرضية مرة واحدة، ثم راقب ردة فعل الصبي.. ما قولك بهذه كعلامة؟

- «ألا يمكنك التحدث بلغتنا؟».

التحدث؟ فتح فمه الصغير ليموء عدة مرات.. لا، لا يستطيع! من الأفضل أن يريه بنفسه، في الصف الواقع آخر الممر..

سار بخطوات رتيبة حتى توقف عند الباب، ثم نظر للصبي طويلا..

- «أتريد أن تريني شيئا آخر؟».

خرج من القاعة إلى أحد الصفوف، فلحق به الصبي ملهوفا، بالداخل اصطدم بصره بالسبورة السوداء المغبرة، حيث دوِّن عليها بالطبشور الأحمر هذا العنوان باللغة الانجليزية: Jack Horner

ووسط المقاعد، جلس صبي جميل الملامح أشقر الشعر.. كان يعكف ببراعة منقطعة النظير على رسم وتلوين أصيص نبتة خضراء، موضوعة أمامه على طاولة المعلمة..

■ ■ ■

(الفسخ)

بعودها الأخضر وأفرعها الضئيلة ذات الأوراق الشبيهة بالمراوح البدائية، وقفت ثابتة بجذورها داخل تربة الأصيص الفخاري، كي يتمكن فنانها الصغير والجميل من رسمها!

قال مصوبا قلم التلوين الأخضر اتجاهها:

- ستكون صورة جميلة، لكنكِ الأجمل في الواقع!

شعرت بالإطراء، فحاولت ألا تتمايل كثيرا بفعل هواء النافذة المفتوحة، كانت عطشى قليلا، لكن لا بأس، غدا تقوم المعلمة بسقايتها، فبإمكانها الانتظار للغد..

قال رسامها الجميل وهو يلون الأوراق بالأخضر الفاتح:

- إنه العصر، وقتي المفضل، أقضيه في المدرسة لأني أعشقها صامتة خاوية!

- هذه المدرسة مهجورة! مهجورة منذ زمن طويل!

قالها الصبي أسود الشعر بخوف ملأ كيانه، فتبسم الأشقر قائلا بدعة:

- لا داعي للخوف!

شعَرَت بالوهن وهي ترقب ما يحدث.. وهن عجيب اعتراها من الجذور حتى الأفرع..

تذكرَت ما حدث فجأة.. هذا الصبي الجميل، فنانها الأشقر، ابن مس (هيام) التي كانت تعتني بها جيدا، تسقيها وتضعها تحت ضوء الشمس..

وتلك الصغيرة الحلوة.. ماذا كان اسمها؟ (سميرة)؟

والحادثة وقعت قبل سنين عديدة، إذن كيف..

اشتد الوهن أكثر، وشيئا فشيئا ابتدأت خضرتها آخذة في التلاشي، ليحل محلها لون رمادي كئيب..



كانت تذبل ببطء وصمت وأسى!

■ ■ ■

(الرســـخ)

برأسه المدبب أخضر اللون، شرع يلون الرسم الذي يمثل النبتة الخضراء البراقة، داخل الأصيص الفخاري أمامه..

كانت أصابع صاحبه الفنان الصغير الأشقر تحيط به إحاطة السوار بالمعصم، والنتيجة أن خرجا بتلك الصورة الجميلة، التي بدت نسخا لا بأس به بتاتا عن الواقع..

ثم ابتدأت عارضتهما الخضراء بالذبول تدريجيا حتى تلاشت تماما! لكن هذه المرة ليست ككل مرة، ففي هذه المرة ثمة شاهد بإمكانه إراحة الجميع..

كان الصبي صاحب الشعر الأسود خائفا لأقصى درجة، خصوصا عندما ذبلت النبتة وتلاشت، وزاد من هلعه أن القط البني بدأ يحذو حذو النبتة، لونه يبهت حتى تلاشى جسمه بأكمله!

أما عنه، فلا خوف عليه، لأنه الواقع الوحيد في كل ما يدور، كما أنه أهم شاهد فيما سيحدث الآن!

سمع الصبي صاحب الشعر الأسود يتساءل بنبرة خوف واضحة:

- من أنت؟

وهنـا تحرك فـي يد صاحبه، من ممسـكٌ بمن؟ هو حقـا لا يعلم، فالأمر يبدو كلوح «ويجا»، حيث لا يمكن معرفة أي من الأشـخاص الذين يمسكون بمحرك الأحرف هو الذي يحركه.. لكنه يرجح الآن أنه هو المحرك، لا أنامل صاحبه..

تحرك بسـرعة وهمة، شـرع يخـط كلمات بخـط رديء، لا وقت للخطوط المنمقة، فصاحبه سيتلاشى كذلك في أية لحظة..

وهنا سـقط على الورقة، لأن أصابع صاحبه باتت شـفافة.. سمعه يقول بحزن وأسى مخاطبا الصبي صاحب الشعر الأسود:

- سامحيني يا (سميرة)! سامحيني!

وتلاشى تماما!

بدا الصبي مصعوقا، وبتوتر جامح غمغم متراجعا للوراء خطوة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

أراد أن يلـوذ بالفـرار، لكنـه وقبـل أن يفعل اسـتجمع بقايا جرأته متقدمـا مـن طاولـة الصبي الأشـقر، فما إن تنـاول تلـك الورقة ذات الأحـرف الخضـراء، حتى أطلق سـاقيه للريـح والذعـر يتصاعد مع دقات قلبه!

■ ■ ■

إنه يخشى حتى مجرد التفكير في إمكانية حدوث ذلك..

لـم يكن (جرير) مؤمنا بتناسـخ الأرواح، لكنه وفـي تلك اللحظة آمـن بأنه كان شـاهد عيان لجرم وقع هنا منذ أعـوام، ومن وجهة نظر إنسان وحيوان ونبات وحتى جماد!

لقـد رأى من خلال أبصار صبي أشـقر، وقط بنـي، ونبتة خضراء، وقلم تلوين أخضر ما وقع هنا! سمِّه جنونا لا حدود له، لكنه وقع!

استشـعر وجـود ورقـة في جيبـه الأيسـر، فأخرجها برفـق وحذر مستغربا لوجود شيء داخل جيوبه الخالية سلفا..

كانـت صفحة من دفتر رسـم، خـط عليها بحـروف طفولية رديئة باللون الأخضر:

سامر قتل سميرة عندما دفعها بغير قصد من الشرفة.. ولولا والدته مس هيام التي أخفت جثتها لافتضح أمره!

ارتعد (جرير).. ارتعد وبشدة..

ثم سمع الغناء الطفولي البارد!

- «(جاك هورنر) الصغير..

جلس في الزاوية..

ليأكل فطيرة الكريسماس خاصته..

وضع فيها إبهامه..

وسحب للخارج لعقة..



ثم قال: أي صبي جيد أنا!».

أنصت برعب عميق كي يتأكد من سماعه الغناء، وحين سمعه مجددا وثب من على الأرض، وخرج من القاعة باحثا عن مصدره، فوجده آتيا من إحدى غرف التدريس المغلقة التي لم يجربها..

أمام الغرفة المنشودة وقف ليجرب الباب، فوجده مفتوحا، وهكذا لم يتردد أكثر..

لم يضطر للبحث مطولا، فقد وجد ذلك الصبي الأشقر الجميل جالسا وراء طاولته، وقد وضع على سطحها عدة أقلام تلوين أمسك بواحدة منها، وعكف على الرسم في دفتر مخصص لرسومات الأطفال، مترنما تلك الأغنية بالانجليزية..

وعلى السبورة المواجهة لمقاعد الدراسة، دَوَّن أحدهم بخط أنيق وبالطبشور الأحمر كلمة: «مولوخ»!

قرأ (جرير) تلك الكلمة بتعجب، ثم قرر أن يولي جُلَّ اهتمامه للصبي الذي لم يكف عن الغناء للحظة، ولم يُبدِ انفعالا يدل على ملاحظته وجود شخص في الغرفة..

- «أغنية جميلة، هل حفظتها هنا؟».

قالها (جرير) باسما للصبي بشيء من عصبية، فهو يعلم الآن أنه يحادث قاتلا رغم صغر سنه..

- «هل أنت وحدك؟».



- «جلس في الزاوية..».

ولم يكن ينظر إليه حتى!

- «أين ماما وبابا؟».

- «ليأكل فطيرة الكريسماس خاصته..».

- «ماذا حدث هنا؟».

- «وضع فيها إبهامه..»..

- «أأنت أصم؟».

- «وسحب للخارج لعقة..»..

- «ربما أنت أعمى كذلك!».

وتبدى الغيظ على وجه (جرير) للحظة.. عندما خطرت له فكرة ما بغتة..

نظر للصبي قائلا له بترفق:

- (سامر) أليس كذلك؟ أين (سميرة) يا (سامر)؟

وهنا كفَّ الصبي عن الغناء لحسن الحظ، فسأله (جرير) متوجسا:

- قتلتها؟

- لا، لم أفعل..

وهي إجابة رهيبة، كادت أن تقنع (جرير) لولا مشاهدته الحقيقة المفزعة برمتها!



- «أظنك فعلتها يا (سامر)..».

- «لا، لم أفعل!».

قالها الصبي بعصبية بالغة، فتساءل (جرير) ببرودة:

- كيف قتلتها يا (سامر)؟

- أنا لم..

- أين أهلك يا صبي؟ أين كل الخلق؟!

- هنا!

- هنا أين؟

أشار الصبي للورقة التي يرسم عليها قائلا بابتسامة ماكرة:

- يقابلون الغول!

تنبه (جرير) لرسم الصبي للمرة الأولى، فوجده رسما طفوليا لمخلوق بشع مسود السحنة، ذا أنياب طويلة قام بتلوينها بالأحمر على سبيل إبراز الدموية والوحشية في الافتراس، قام أيضًا بتلوين حدقتيه باللون الأحمر كي يبدو رهيبا..

ورغم أن الرسم بدا مضحكا لحدٍ بعيد، إلا أن (جرير) لم يستطع منع القشعريرة من التسلل لعروقه، فهمهم ذاهلا:

- الغول؟!

هكذا، تحولت القشعريرة في جسد (جرير) إلى رعب حقيقي..



نظر إلى (سامر) قائلا له باحتداد:

- إذن فقد رأيت الغول.. أليس كذلك؟

هـزَّ الصغير رأسـه إيجابا، مما زاد من جرعـة الهلع لدى (جرير)، فسارع للقول متلفتا حوله:

- عليَّ إخراجك أنت أيضًا، فهذا المكان خطر..

- أنا لم أقتل (سميرة)!

- بل قتلتها!

- أنا لم أقتل..

- كفَّ الآن!

وزمجر في غيـظ بعدما بات عاجزا عن الفهم.. عجوز مصر على الوحـدة، رجل منافق حقير، والآن صبي يصر على الكذب! فما سـر حماستهم الشديدة؟!

وقـع بصره مجـددا على الكلمـة المدوَّنة على السـبورة، بدت له غريبة ومنفرة لحد لا يصدق..

- «من دوَّن هذه الكلمة يا صبي؟»..

- «لا أعلم..»..

ولربما يكذب في هذا الأمر أيضًا!

وقبـل أن تعـاود الحيرة افتـراس (جريـر)، تذكر أخيرا أين سـمع بتلك الكلمة..

فقد طالع يوما عن (مولوخ) الشيطان، وهو اسم لإله أباح تلمود اليهود تقديم الأطفال قربانا له! ليست «المس» من كتبت اسمه على السبورة حتما!

ثم تذكر عبارة «الوشاية كالقتل»، ترددت بإلحاح في ذهنه لما ذكر موضوع التلمود، وبما أنه بطالع كثيرا، فقد تذكر أن عبارة «الوشاية كالقتل» من أحكام التلمود أيضًا، فما معنى هذا كله؟

هنالك سر في تصرفات الذين قابلهم، هنالك أيضًا خطر يتربص به لو أن موضوع الغول هذا حقيقي!

التفت للصبي صائحا به:

- هلم بنا!

- أنا لم أقتل (سميرة)!

- كفَّ عن تقليد الببغاء وتعال معي..

- أنا لم أقتل..

فانفعل (جرير) وهو يصرخ غاضبا:

- الكاذب يلج النار ولو كان صبيا مثلك! من الأفضل لك التفكير بعواقب جرمك يا صبي بدل الكذب المتواصل!

بهت وجه الصبي قبيل صياحه المنفعل:

- ومن قال أن ما فعلته خطأ؟

تلون وجه (جرير) وهو يسأل:



- ماذا تعني؟

ابتسم الصبي ابتسامة شيطانية مجيبا بجذل:

- أنا سعيد لأني صنعت ذلك لأجله!

وأشار لاسم مولوخ على السبورة وهو يضحك! هاهو ذا مجنون آخر، مجنون ثالث! مجنون صغير السن وينافس سابقيه في لعبة الجنون!

فجأة، هجم الصبي على ساق (جرير) مبرزا أسنانه، وكضبع صغير عضها بوحشية دفعته لإطلاق صيحة ألم، قبل أن يفلته الصبي وينطلق للخارج بأقصى سرعة.. لحق به (جرير) وهو يشعر بالدماء تسيل من موضع العضة الشرسة!

لكنه حين صار خارج الصف، لم يستطع إيجاده في أي مكان!



28

إنهم حمقى مخرفون لا أكثر!

قـرر (جرير) الإبقاء على هذه الفكرة كونها أكثر من رائعة، ولأنها تحمل التفسير الملائم لكل ما مرَّ به من جنون!

ولكن لِمَ كل تلك المصطلحات اليهودية اللعينة؟

أتراها هلوسـة جماعية ناجمة عن وباء؟ أم هي - لا سـمح الله- ديانة جديدة؟

- «أعوذ بالله!».

همس بها ساخطا، فهو بالتأكيد يفضل لقيا الغول على لقاء أتباعه، إذ يبدو وأنها ديانة منحرفة ما جديدة..

كان قد بحث عن (سـامر) طويلا دون جدوى، فقرر تأجيل عملية البحث لوقتٍ لاحق.. لقد قطع مسافة طويلة بجوار الخطوط الدموية التـي تتبعهـا منـذ بدايـة رحلته، فهـي تعمل لـه عمل خارطـة النجوم السماوية للبَحَّار، كي لا يضل طريقه في عرض المحيط..

من بعيد لمح منزلا بدا له مألوفا.. لم تطل حيرته أكثر، فقد كان ذات المنزل الذي ابتدأ منه رحلته، أي أنه كان قريبا من مكان دفن الشاب القتيل!

لقد عاد لنقطة البداية إذن! الخطوط الدموية قد شكلت له حتى الآن شبه مثلث بين ثلاثة أماكن، منزل العجوز الانطوائي، ومنزل (جبر) المنافق، ومدرسة (سامر) الكاذب!

إن من رسم تلك الخطوط يعلم أن تلك المواقع الثلاثة هي الوحيدة التي تحوي بشرا، لكن لماذا قام برسمها؟

أيعاود الاستكشاف؟ ربما لاحقا فقد نال منه التعب أخيرا..

كان الظلام دامسا، لكنه رآه.. يقف بالتحديد عند النقطة التي دفن فيها الشاب القتيل!

كان فارع الطول، ولم يسمح له الظلام برؤية المزيد، رآه فقط يمسك معولا، ويهوي به في ذات موقع دفن الجثة!

من تراه يكون؟ أهو أحد قاطني البلدة؟ أم أنه..

وتراجع (جرير) للوراء عندما رآه ينتزع الجثة انتزاعا من التراب!

ثم التفت إلى حيث يقف (جرير)!

جمد في مكانه كاللص الذي ضُبط متلبسا بالجرم المشهود، وارتعد بشدة وقد عجز عن الإتيان بخطوة، في حين تقدم ذلك الشخص رافعا المعول باعتداد!

ولـم يدر (جرير) كيف تذكر ذلك الموقف مع دقة موقفه الحالي، عندمـا كان فـي المرحلـة الثانوية يعكف - قبل مرحلة الشـعر- على كتابة قصة رعب فريدة من نوعها.. لا يهمنا معرفة اسـم بطلها، ولكن تهمنـا معرفة الظروف التي وُضع فـي خضمها، ولربما كيفية خروجه منها أيضًا!

مـاذا يحـدث لو وُضع شـخص مؤمـن أن الغـول أو البعبع مجرد خرافات في مواجهة شيء كهذا الذي يواجهه الآن؟ ما أول ما سيقدم عليه البطل؟

في قصته تلك حاول التجديد، لأن من الطبيعي أن أول ما سيصنعه بطل القصة هو الفرار..

لم يفهم لِمَ يتذكر هذه السخافات الآن، ربما لتبين له مدى حمقه.. إن الموقف الطبيعي الأمثل لهذه المناسبات المخيفة هو الفرار طبعا! فلو كان متسلحا بمدفع رشاش للاذ بالفرار أيضًا! صحيح أنه متسلح بمسدس ومدية، لكن..

هكذا ولى وجهه المرتاع شـطر طريق غير الـذي أتى منه، وأطلق لساقيه العنان!

كانت انطلاقته ذات سرعة مذهلة بفضل ضخ «الأدرينالين» طبعا، ذكرتـه بمواقفـه مع الكلاب الضالـة التي لطالما خرجـت له بغتة من قلب العتمة، لتطارده بطريقة يشيب لهولها الولدان وهي تنبح بجنون

مسعور، فكان يركض بسرعة خيالية تعجز حتى الكلاب عن مجاراته بها!

لم ينظر للوراء حيث الخطر يطارده، كان يركض حتى يكل، ثم يتوقف كي يلتفت للخلف وينظر، وعندها ليحدث ما يحدث!

مع الكلاب كانت تلك الطريقة ناجحة دوما، فعند التوقف عن الركض والنظر للوراء لا يجدها في أعقابه.. فهل تفلح مع الشخص - أو الشيء- الذي يطارده؟

لو أنها قصة رعب لجعل الخطر لا ييأس من مطاردته، بل ويفتك به أيضًا في النهاية بدموية!

■ ■ ■

شعر بالتعب يسيطر على قدميه، وبإفرازات الأدرينالين العنيفة تتخلى عنه أخيرا، فقرر التوقف..

وللخلف نظر لأنه سئم لعبة المطاردة ما بين القط والفأر..

وحين لم يجده تبسم في خلاص.. لقد نجا!

بعد ثوان ابتدأ يشك في أنه ابتسم كونه أصيب بالجنون!

لا.. لن يجن الآن.. عليه الهرب من هذا المكان المشئوم بأية وسيلة..

ترى هل كان (جبر) المنافق يقصد بكلامه المقبض عن رحيل الناس أن الغول هو السبب؟ ولكن ما سر بقائه هو والعجوز الانطوائي والصبي الكاذب؟ أتراهم جنوا من هول ما شهدوه؟

عاود جفنه الاختلاج وبشدة حتى اضطر للامساك به كي يتوقف، كانت لديه مشكلة رف مزعجة منذ طفولته في الجفن الأيسر لا يدري ما سرها، ثم نظر للأمام حيث منتهى بصره، مرددًا لنفسه دون كلل:

- ساعدني يا إلهي!

إن هذه البلدة قد صارت بالنسبة له كصندوق العجائب الحاوي لأغرب الأشياء، ولكن مع مرور الوقت تتجدد تلك الأشياء وتزداد غرابة، فمتى ينتهي العرض المفزع؟



29

مـا العمل؟ إن البرد يجمد خلاياه تجميدا، كما لو كان في القطب الجنوبي..

كانـت فكرة الفرار من البلدة بأسـرها مغرية، لكن هل يجرؤ على تحدي الظلام خارجا وسط العفاريت والذئاب؟

رمـق الأرض بغـم، فوجد الخطـوط اللعينة قد انتهـت من جديد عند نقطة جديدة.. فيلا فخمة اتصلت بها حظيرة للمواشي (وقد كان منظرهما معا متنافرا وغريبا)..

لم يتمهل كي يفكر، وأسـرع يعبر بوابتها الحديدية ذات القضبان، ومديتـه في قبضته تحسـبا للظروف الرهيبة التي سـتقع حتما! وتأمل الأرجـاء باحثا عن علامة تدل على وجود بشـر، لكنـه لم يجد، فقرر متابعة البحث لعل وعسى..

فليدخـل إلى الفيلا، لربما وجـد انطوائيا آخر يرفض الإعلان عن وجوده، أو منافقا أو حتى كاذبا جديدا!

■ ■ ■



تناهى لمسمعه صوت خوار آتٍ من حظيرة المواشي..

وثـب وثبـة خفيفة في الهـواء لأن الصوت أفزعه بشـدة، وبعد أن استعاذ باللـه من (مولـوخ) وكل شـياطين الأرض وغيلانها، دنا من باب الحظيرة الخشبي ليرى ما هنالك..

دفـع بقدمه الباب ودخل، فوجـد المكان خاليا من وجود مخلوق حي واحد، فمن أين انطلق ذلك الخوار بحق الله؟!

تهيؤات؟ ربما التحق بركب المجانين أخيرا..

ثـم انه وجد على الجدار المواجه له كتابـة جديدة باللون الأحمر المقيت (لقد بات هذا يثير جنونه بالفعل)، فهمس لنفسه بنزق:

- وهاهي ذي حكمة اليوم! لنرى ما هنالك..

لا تركـب على ظهـر الثـور المربوط فـي الحظيرة، لأن الشـيطان يرقص بين قرنيه !

بـدأ التفكيـر جديـا فـي فحـوى هـذه النصيحـة، لكـن الأمـر بدا مستحيلا، إذ لا توجد علاقة بينها وبين أي شيء لعين يحصل!

صرخ (جرير) وهو يضرب الجدار بنصل مديته:

- سئمت كل هذا الجنون!!

ولكن ما إن التفت كي يخرج من المكان حتى تصلب في مكانه.. وعجزت قدماه عن التحرك، وهو يشهق رعبا كمريض الربو..

فأمامه، عند باب الحظيرة تحديدا، رأى ما كاد يطيح بما تبقى له من عقلانية.. رأى ثورا.. ثورا أسود هائل الحجم بصورة غير طبيعية، وقد امتطاه صبي صغير ذا بشرة قمحية، كان عاريا كما ولدته أمه، ويملك ذات العينان الجهنميتان اللتان لدى الثور المخيف!

وكذلك ذات القرنين الهائلين!

كانا يبرزان من منتصف جبهة الصبي كهلالين عملاقين، ورمق جريراً ببرودة كثوره المخيف.. فالتصق الأخير بالجدار الذي يحوي التحذير، وهو يهمس لنفسه بأسلوب أقرب للتوسل:

- لابد وأنه كابوس بغيض! رباه، اجعله كذلك أرجوك!!

وهنا رفع الصبي رأسه للسقف مطلقا ذات الخوار الرهيب الذي سمعه (جرير) من قبل! وفوجئ المسكين بالثور ينقض عليه مصوبا بقرنيه المدببين كرمحين اتجاه خاصرته، فصرخ (جرير) آخر صرخاته قوة وهو يلوذ بكلتا يديه، متخيلا الرمحين يخترقان معدته، ويبعثران أمعاءه في جميع الاتجاهات!

تأخر حدوث ذلك كثيرا في الواقع..

وحين أزاح (جرير) يداه عن وجهه، وفتح عينيه ببطء، اتضح له ألا أحد أمامه!

يا للوهم الشيطاني البارع!

ثمة شـر ظهر في بلدة الشـؤم هذه، شر تسبب في رحيل أو اختفاء الجميع (والحق أنهم كانوا مصيبون في قرارهم ذاك)

ثمة كائن وحشـي يتحرك كالأخطبوط هنـا وهناك، أذرعه في كل حدب وصـوب، يمكنه خلق الأوهـام، والقتل، وجعل البشـر الذين اختاروا البقاء يسعدون بمزاولة بعض صفات الشرور!

ثمة شيء يمتلك مقدرات تضاهي قدرات غول..

ثمة شيطان هنا، شيطان حقيقي!



30

صيحة أنثى تلك التي سمعها تدوي بغتة..

ومن دون التفكير مرتين وثب من مكانه منطلقا لخارج الحظيرة بأقصى سرعته..

من أين أتت تحديدا؟

لم تطل حيرته هذه المرة، فقد انطلقت الصيحة مجددا من داخل الفيلا..

وبجسارة مثيرة للدهشة، اندفع (جرير) إلى داخل الفيلا شاهرا مسدسه استعدادا للقتال والقتل، صعد السلالم المؤدية للطابق الأول واقتحم أول حجرة..

لا أحد هنا لسوء الحظ!

وهنا عاودت الصيحة ظهورها، فالتقطت أذنه مصدرها..

خرج من الغرفة الخاطئة واقتحم الصحيحة هذه المرة.. فماذا رأى؟

شــابة حســناء تقف حافية القدمين فوق ســريرها، وتشير بهلع إلى زاوية الحجرة وهي تصرخ:

- أنجدني أرجوك!

- ماذا هناك؟

- فأر!

- فأر؟!

- أجل! مختبئ هناك، إذا نظرت وراء الخزانة لربما..

- سحقا!

ولكم الباب بكل قوته، مما دفعها لإطلاق صيحة هلع أخرى!

قال وهو يحاول كظم غيظه بصعوبة:

- كل هذه الهستيريا لأجل فأر تعس؟

راقبته بخوف قبل أن تصيح:

- إذا لم تذعر المرأة من فأر، فمم تذعر؟

ردَّ مغتاظا وهو يصنع من إصبعيه قرنان وهميان فوق رأسه، ليبدو كالثيران أو الشياطين كلاهما سواء:

- من الغول! من الصبي ذي القرنين الذي يمتطي الثور الأسود!

بدا كالمجنون، ربما جُن أخيرا.. لكن نظرة مدققة منه لوجه المرآة جعلتـه يدرك مدى تماديـه، وبأنها قد باتت خائفة منـه أكثر من فأرها المزعوم!

قال مهموما وهو يخفض يديه:

- آسف..

- لا عليك..

قالتها بارتباك كأنها قدرت موقفه، ثم نزلت من على السرير لتنتعل حذاءيها..

- «أنا (درة)، تشرفت بمعرفتك!»..

- «(جرير).. على اسم الشاعر!»..

وتأمل الحجرة المنسقة، ثم سألها:

- تقيمين وحدكِ؟

- أجل، بعد موت زوجي وابني..

- وبالطبع لم تلاحظي ما حدث في البلدة..

- ما الذي حدث في البلدة؟

قالتها متبسمة بروتينية.. فنظر إليها طويلا، ثم قال ببطء:

- لقد هجرها الجميع..

- ماذا قلت؟



- كما سمعتِ بالضبط!

- كيف لم تخبرني (ازدهار) و(ميساء) و(هيام)؟!

- من يكن؟

- جاراتي وصديقاتي..

- يا للصداقة! يرحلن من دون إخبارك؟

- اللعينات! لابد وأنهن انتوين الخلاص مني!

- ولِمَ يردن الخلاص منكِ؟

- يغرن على أزواجهن من أرملة تعسة الحظ مثلي، فقط لأن الله وهبها الجمال والثروة..

صرخ (جرير) فجأة:

- كفى!!

انتفضت (درة) بشدة وهي ترمق (جرير) بفزع.. في حين قال لها بغضب:

- سَئمتُ من مجاراة سخافاتك! إما أن تخبريني بما حدث في هذا المكان اللعين أو..

- لا أدري عم تتكلم!

- بل تدرين! استغفالكِ قد يجدي مع طفل! تريدين إقناعي أنكِ تعيشين هنا دون دراية بأن سكان البلدة قد رحلوا جميعا بسبب الشر الراتع في..



- شر؟!

- أجل شر! شر أسود وقاتل!

- أنت مجنون!

- قلت كفي عن استغفالي!

بدت غاضبة هذه المرة، بل بدت وكأنها ستطرده شر طردة..

إلا أنها هدأت تدريجيا، ثم باغتته بقولها:

- ما الذي تريد معرفته بالضبط؟

حقا كانت مفاجأة.. لم يعلم أن انفعالاته ستصيب إلى هذا الحد!

- «كل شيء..»..

هزت رأسها، ثم همست ببرودة:

- هل لك أن تنتظرني بالأسفل؟ أريد تبديل ثيابي..

- لكِ هذا..

ومن دون كلمة زائدة، ترك لها الحجرة ليهبط إلى صالة الجلوس..

■ ■ ■

كانت الصالة منسقة ومرتبة بشكل ملفت للأنظار، إلا أن (جرير) المجهد بدنا وأعصابا لم يلق لذلك بالا..

اتجه للستائر لينظر من خلالها إلى البيوت المتعددة، واستعاد في ذاكرته شيئا من مشاهد الفزع التي لن ينساها قط..

وهنا، لمح في إحدى الزوايا خارجا ورغم تعسر الرؤية في الظلام أحدهم يتحرك كالآلة، واستطاع رؤية معول في يده اليمنى!

ارتجف (جرير) وهو يتوارى خلف الجدار، وبعد ثوان استرد شجاعته، فأطل بوجهه مجددا وبحذر..

لم يجد أثرا لأحد، فقد رحل الشخص الرهيب، أو بالأحرى ذهب ليواصل بحثه في بقعة أخرى!

ابتعد عن النافذة، وشرع يقلب في تحف وصور الصالة لتناسي الفكرة المرعبة.. رأى صورا موضوعة داخل إطارات صغيرة مزخرفة ومذهبة، وقد اتخذت أماكنها بين التحف والفضيات بلمسة يد أنثوية لا شك فيها..

الصورة الأولى لرجل ذابل واهن يبتسم بإنهاك، بدا كالمصاب بمرض عضال..

أما الثانية فكانت لدرة، بدت ساحرة أخاذة، تبتسم باستعلاء ملكي، ولم يرتح (جرير) لتلك الابتسامة التي رسمتها على شفتيها..

لكن الصورة الثالثة!

كاد (جرير) يفقد وعيه، لكنه تماسك.. كانت الصورة لولدٍ في العاشرة من عمره، قمحي البشرة.. ذات الولد المرعب الذي كان يمتطي ظهر الثور الأسود في الحظيرة!

ما معنى هذا؟!



- «هل راقت لك صورنا؟».

انتزعته كلمات (درة) من العالم المخيف الذي كاد يبتلعه، فالتفت نحوها قبل أن يَنشده.. كانت - والحق يقال- بارعة الجمال بكل المقاييس، فقد زاد فستانها الأزرق من حسنها وأناقتها، حتى بدت مختلفة كل الاختلاف عن صورتها الأولية التي رآها بها!

- «جميلة!».

ابتسمت متسائلة بخبث:

- الصور أم أنا؟

قال وقد شعر بأنه أطال النظر أكثر من اللازم:

- كلاكما..

- شكرا على المجاملة!

أشار إلى صورة الصبي قائلا:

- ابنكِ الراحل أليس كذلك؟

- بلى..

- كيف مات؟

- قتل وزوجي في حادث سيارة مروع.. تصور! رحلا معا في ليلة واحدة!

وغطت وجهها بكفيها، ثم شـرعت تنهنه بحرقة، فصمت (جرير) على سـبيل الاحترام للمشاعر، وإن شـعر بأن لوعتها مصطنعة، لكنه لم ينطق..

عاود السؤال بعدما هدأت:

- منذ متى؟

- ثلاثة أعوام.. لماذا لا تجلس؟

جلس على أريكة مريحة، أما (درة) فاتجهت إلى خزانة مزخرفة، فتحتها لتكشـف عن بار صغير أنيق، اصطفـت على أرففه العديد من زجاجات النبيذ من عدة أنواع، وكؤوس بلورية من مختلف الأحجام!

قال بنفور:

- لا أشرب هذه «الأوساخ»!

ضحكت وهي تفتح إحدى الزجاجات قائلة:

- يا لك من وقح!

قال في سـره: أهذه من كانت تنوح على ولدها وزوجها الراحلين قبل قليل؟

لكنـه ذكـر أن بعض النـاس الذيـن تصيبهم المصائب سـرعان ما ينغمسـون في موبقات كالخمور والقمار والمخـدرات، في محاولة يائسـة لنسـيان من فقدوهم.. لكن هذا لم يشـعره بإشفاق من أي نوع لحالها..



سمعها تقول وهي تصب شيئا من الشراب في كأس لها:

- ربما معك حق.. لكنني لا استطيع الاستغناء عن هذه «الأوساخ» الآن..

- بل تستطيعين، إن إرادة المرء..

ضحكت وهي تسأله مقاطعة:

- تدخن؟

- أجل..

- أقلع عن التدخين وأثبت لي أن إرادتك حديدية، أقلع أنا عن معاقرة الشراب!

انتشل من جيب سترته العلوي علبة السجائر، وببساطة رماها على الطاولة قائلا بثقة مصطنعة:

- ها قد أقلعت!

- يا لك من مكابر! وما الذي يضمن لي أنك لن تعاودها؟

- ما الضمانات التي تريدينها؟ عَقدٌ مثلا؟

اقتربت منه، وجلست بالقرب منه هامسة:

- أنت!

- لم أفهم..

زحفت لتدنو منه أكثر، ثم عاودت الهمس:



- أريدك أنت!

كان من الواضح أنها محاولة إغواء، فهبَّ واقفا وهو يصيح:

- كفى! ما لهذا جئنا للتحدث يا امرأة!

نهضت ببطء، واقتربت منه قبل لمسها وجنته بأناملها وهي تهمس:

- هل تعلم أنك وسيم؟

قال بخشونة وقبضته تمسك معصمها بقوة، غير آبهٍ لصيحة التأوه التي أطلقتها:

- ما حقيقتكِ يا (درة)؟ وما حقيقة هذه البلدة؟

ما هي الحقيقة في كل هذا الجنون؟!

- أخبرتك أنني لا أعلم شيئا..

- تكذبين! الأفضل أن تخبريني يا امرأة وإلا..

صاحت متحدية:

- وإلا ماذا؟ ستضرب امرأة أيها الرجل؟

سكت (جرير) وقد شعر بتماديه أكثر من اللازم، ولكن ماذا يفعل؟ قد أخرجته المرأة عن طوره..

■ ■ ■

- «(درة)!!».

باغتته الصرخة، ونظر للمرأة الحسناء فوجدها متفاجئة بدورها! ومعا اشتركا في النظر لفوق، فأبصرا رجلا يرتدي روبا منزليا ويجلس على كرسي مدولب للمعاقين، وقد حدَّج (درة) بنظرة تألم صريحة!

بدت ملامحه مألوفة، وسرعان ما تذكر (جرير) أين شاهد تلك الملامح الواهنة، التي يبدو صاحبها كالمصاب بمرض عضال!

التفت إلى (درة)، وباستهجان قال لها:

- دعيني أخمن، أوليس زوجكِ المرحوم الذي من المفترض أن يكون قد لقي مصرعه في الحادث مع ابنه؟

كان الرجل المُقعد يرتجف من فرط الانفعال، أما (درة) فقد تجرعت من كأسها بنهم قائلة بلامبالاة:

- هو بعينه!

- وما تفسيركِ؟!

- تريد تفسيرا؟ لا بأس، سأخبرك، ولكن حاول ألا تنصدم كثيرا..

إن النسوة في العادة يخن أزواجهن في السر، لكنني وبعد الحادث الذي أصاب زوجي بشلل نصفي، قررت خيانته في العلن! صار الرجال يتوافدون إلى هنا، فأختار منهم أمامه دون أن يملك فعل شيء لي!

قال (جرير) وقد صدمه ما سمع:

- ايتها الغانية! لِمَ صنعتِ ذلك به؟ هل آذاكِ يوما؟



ضحكت كما لو كانت تسخر من سذاجته، ثم هتفت:

- بالطبع لا! لم يكن يقوى على إيذاء حشرة! وهي صفة أمقتها في الرجال!

ارتجف (جرير) وهو يفكر في مدى غلاظة قلبها، هذه المرأة شيطانة إنسية!

وسألها بتقاسيم محتقنة:

- وابنكِ؟ أموته كذبة أيضًا؟

- طبعا لا، لقد مات وشبع موتا..

- كيف؟

تبدت نظرة مهمومة في عينيها وهي تقول:

- شنق نفسه.. في الحظيرة!

- انتحر؟!

لكنه تذكر (سامر) الذي يصغر صبي الحظيرة بسنوات، فتراجع مدمدما بحذر:

- إنه الشر..

ضحكت (درة) وهي تصب ما تبقى من الشراب في جوفها، ثم ألقت الكأس ليتهشم إلى قطع، وهي ترقص «الفالس» مع نفسها صائحة بنبرة متحشرجة:

- تعال أيها الشاعر! وسأكون لك خير عشيقة!

في حين ارتسـمت التعاسـة علـى وجه الزوج في أشـنع صورها، حتى بدا أقرب للذبول والبهتان!

أما (جرير) فلم يعد له وجود في الفيلا بأكملها..

لقد خرج راكضا وهو يردد مرتجف الفرائص:

- إنه.. الشر.. بعينه!



31

ظلَّ (جرير) يركض حتى خرج للشارع..

مولـوخ الجهنمـي، شـيطان عُبد في أزمنـة غابرة، فلِـمَ يظهر الآن وهنا؟

جنون جماعي كأنه الوباء، والشر سيد الموقف هنا، أيكون الغول هو ذاته مولوخ؟

ثـم هناك اليهـود، أصحاب البـاع الطويـل في الخـراب والتدمير وحتى السـحر الأسـود، هـل قطنوا هـذه البقعـة يوما؟ بـل هل قطن سـحرتهم هذه البقعة واسـتخرجت كتب سحرهم شـرًا عبدوه باسم مولوخ؟

كلهـا أفـكار وليدة مخيلة جنونية، لا التفكيـر المنطقي، ولكن من قال أن ما تعرض له خاضع لمنطق محدد؟

مولـوخ.. مولـوخ.. والبقيـة تأتـي! جنـون لا حصر لـه، لكنه لن يتمكن منه..

سيذهب الآن لمنزل جيد التحصين وينام ملء الجفنين، بعد الاستعاذة والمعوذات حتى مطلع الفجر..

عندها «مولوخات» الدنيا بأسرها لن تجسر على إيذائه..

لم يطل بحثه، إذ وجد منزلا لا بأس به.. في الواقع لم تكن عبارة (لا بأس به) واردة حتى، هو منزل مثل غيره من المنازل، لا يميزه شيء، باستثناء كرسي هزاز تؤرجحه الرياح الباردة ببطء مخيف..

كانت جميع الأبواب موصدة بإحكام، لكن ثمة نافذة مفتوحة بإمكانه بلوغه بقليل من الجهد، إذا ما تماسكت ماسورة المياه الصدئة القريبة منها..

لم يكذب خبرا، إذ شرع يتسلق حتى وصل إلى النافذة، فتعلق بحافتها وتسلل للداخل، سيكون مكانا آمنا بسبب تحصينه المرتجل..

ولكن ماذا لو لم يكن المنزل مهجورا؟ عندها تلوح الطامة الكبرى، فعقله غير مستعدٍ لتحمل مفاجأة أخرى!

هكذا قرر تفتيش المنزل أولا..

فتش بدقة، كل ركن وزاوية من كل حجرة، كان من الواضح أن أصحاب هذا المنزل قد هجروه بدورهم، ليس من مدة طويلة، فالأثاث في مكانه.. ونظيف.. تماما؟

لا أثر لذرة غبار واحدة حتى!

أمر غريب ومريب حقا..



يوجد بعض الطعام في البراد لم يفسد بعد فالتهمه بنهم واضح..
فليكن الشيطان ذاته من قام بطهيه، لا يهم، فقد نال الجوع منه..

■ ■ ■

في الصالة وجد صورا للعائلة، واحدة للأب، والثانية للأم، والثالثة.. للصبي المدعو (سامر)!

إذن فهذا هو منزله.. يا لها من مصادفة!

في الردهة بضعة حقائب موضبة للرحيل كما يبدو، وهنالك آثار دماء على الأرض!

دماء في الحمام أيضًا.. هذا غريب!

قال له عقله بعد عملية تفكير سريعة أن والدي الصبي رحلا بعدما يئسا من إيجاد وحيدهما، فتركا بعض الأغراض التي لم يكونا بحاجتها..

ولربما قتلهما الغول! وهذا منطقي أكثر لوجود الدماء.. من يدري؟ قد يكون الصبي المسكين قد شهد مصرعهما، ولهذا فقد عقله..

وهنا لاحظ (جرير) أمرا ما..

اقترب أكثر حتى تأكد، الدماء كانت تشكل عبارة ما!

احذر الجهنمي بارغوست !

بارغوست؟ يا للاسم الغريب! أتراه لشيطان أيضًا؟



مولوخ ثم بارغوست، ولربما يظهر عزازيل فيما بعد!

قال (جرير) لنفسه:

- رباه! احمني من كل هذا الجنون!

لقد سقطتُ في جحيم من الأسماء اللاتينية والسنسكريتية للشياطين!

ذهب إلى المغسلة ليبلل وجهه المرهق بالماء كي لا ينام، فهو يجهل مدى خطورة بارغوست هذا، وكلما طالع تحذيرا ظهر له الخطر بصورة شنيعة تكاد تفتك به لولا لطف الله..

اقشعر بدنه لما تناهى لمسمعه صوت ترنيمة حزينة طفولية، صوت الصبي (سامر)!

كان الصوت ذا صدى خفيف، ويتردد بعمق في أرجاء المنزل..

ارتجف صوت (جرير) وهو يقول لنفسه بعد أن تنفس بعمق:

- تهيؤات..

غسل وجهه من صنبور الماء البارد، ومسحه بمنشفة نظيفة مكررا بعصبية:

- مجرد تهيؤات..

خرج بعدها ليجلس على الأريكة المريحة في الردهة..

حيـن يغمـض عينيـه يتذكـر مسـكنه، وأوراقـه، وقهوتـه الزكيـة، وعزوبيتـه التي بات معتادا عليها.. وحيـن يفتحهما يتذكر المجانين، ومطارده المتشبث بمعول، وخطوط الدم، وكل ما هو كريه ومشوه!

حقا لا يُقدر المرء قيمة الشـيء إلا عند فقدانه! لقد صارت حياته التي لطالما اعتبرها رتيبة بائسـة شـيئا عزيز المنـال، وبعيدة كل البعد عن متناول يده..

طفق يحدق في خطوط راحة يده بشرود ذهن، ثم أنصت لصوت الرياح خارجا.. أهو سـلطان الرعب؟ وهل للرعب سلطان؟ النوم له سلطان، فما بالك بالرعب؟

ظلـت خواطره المضطربة تتدفق كشـلال ثائـر المياه داخل عقله، وفي أعماق مخيلته، حتى شعر بالنعاس أخيرا..

وفي اللحظات التي كاد خلالها يستسـلم لنـوم عميق اختلج أحد جفنيه، ذاك الذي يؤرقه منذ الصغر.. لكن لماذا؟

أتاه الجواب عبر أصواتٍ شـبه خافتة لخطوات سـريعة قادمة من فوق!

انتصب الشعر في رأسـه وساعديه، واصطكت أسنانه وهو يفكر: لقد فتشت المنزل بدقة وكان خاليا تماما، وأقسم على ذلك!

ثم إن الخطوات ابتدأت رحلة الهبوط على درجات السلالم..

لـم يتمكن (جرير) من تمييز ذلك الشـيء الـذي يهبط، لأنه أضاء أباجورة بجواره فقط وسط الظلام، وذلك الجسد الضخم يملك لون الظلام ذاته، ويتحرك برشاقة كلب..

هذا.. لأنه كلب!

كلب أسود هائل الحجم، التمعت عيناه في الظلام!

■ ■ ■

ألجم الرعب لسـان (جرير) وقد عجز عن الإتيان بأي تحرك، في هـذه المرة لن يكون هنـاك ركض ثم تعب والتفـات، فقط المواجهة غير العادلة ولاشيء آخر!

كانـت عينـا الكلـب مروعتيـن، فقـد كانتـا علـى شـكل قرصيـن مضيئين، مشـهد شـنيع قـادر على إيقـاف دقات القلـب، خاصة وأن الوحش الأسود يكشر عن أنياب فضية تقاطر منها اللعاب!

وهنا انقض الكلب كفهد صياد..

صـرخ (جرير) وهـو يقفز من مكانه كالجنـدب، فاصطدم الكلب بالأريكـة منشـبا أنيابـه ومخالبـه فيها، وشـده (جرير) متخيلا نفسـه مكانها، ثم قرر بيع حياته غالية..

أخرج مسدسـه، في حين التفت الكلب الجهنمي إلى حيث تقف ضحيته مكشـرا عن أنيابه مجـددا، والعجيب أنه لم يصدر أي صوت على الإطلاق، ولا زمجرة من أي نوع!



- «هلم تقدم أيها المسخ البشع!».

تقـدم الكلب بغية الحصول على العشـاء، فتراجـع (جرير) ناحية الباب متلمسا مقبضه..

تبـا! لقـد نسـي أن البـاب موصـدٌ بإحـكام! لا منـاص إذن مـن المواجهة..

وهجم الكلب المتوحش..

وفي هذه المرة، كان هنالك جرح غائر في ساعد (جرير)، وطلقة طائشة في الهواء..

اسـتعد الكلـب للهجـوم مـن جديد، وقـد أثـارت شـهيته الدماء المتقاطرة..

وفجأة تحطم الباب إثر رفسة قوية للغاية..

تراجع (جرير) مذعورا لما اكتشف أن من فعل ذلك هو المجهول المخيف صاحب المعول!

وفي ذات اللحظة هجم الكلب الضاري..

تجاهـل ذلـك الشـخص جريـراً، وتقـدم مـاداً كفه اتجـاه الكلب صارخا:

- «أكلا أكلا!!».

وصرخ (جرير) وهو يحمي وجهه بذراعيه من انقضاضة مهلكة..

■ ■ ■



فتح عينيه ببطء، ليجد أن الكلب قد تلاشى!

- «أين.. أين اختفى؟!».

أجاب الرجل الضخم بحزم:

- رحل.. أنت في أمان الآن!

وتقدم مردفا:

- لقد أرهقني البحث عنك كثيرا!

بدت ملامحه جلية الآن، كان رجلا في أواخر الخمسينات، ومع هذا كان متين البنية، لحيته رمادية كثة، ويرتدي نظارات طبية..

- «وكيف رحل بالله عليك؟».

ابتسم الرجل مجيبا بإنهاك:

- أمرته بالرحيل فحسب!

- كيف؟!

تنفس الرجل ببطء، ثم مدَّ يده لجرير قائلا بلا ود:

- دعنا نداوي هذه الذراع المصابة أولا، بعدها أجيب على كل تساؤلاتك..



البرج القديم





32

كان الرجل قد اقتاد (جرير) إلى البرج الأثري القديم ..

وبعـد صعودهما حوالي ثلاثمائة درجة حجرية، وصلا قاعة مليئة بشـباك العناكب، خاوية على عروشـها إلا من كرسـي خشبي، ثبتت عليه شـمعة توهج لهيبها ليضيء المـكان.. طلب الرجل من (جرير) أن ينتظره ريثما يبحث عن عدة الإسعافات الأولية..

القاعـة بأكملهـا تطـل علـى البلـدة بأسـرها، عـن طريق شـرفتها بالإمـكان مراقبة كل مخلـوق حي متحرك، وكل منـزل.. ولربما كل ظاهرة عجيبة تقع!

فـي الماضي كان كثيرا ما يـزور هذا البرج لمراقبة المنازل الكبيرة والصغيـرة متراصة جـوار بعضها البعـض، كعلب الكبريـت مختلفة الأحجام والألوان.. شـارع واحد فقط امتد ليخرج كالثعبان من تلك البلـدة متصلا بالشـارع الرئيسـي الطويل، الذي يوصلـك بدوره إلى

المدينة البعيدة، عندها قد تكون بلدة منعزلة، ولكن ليس إلى ذلك الحد..

على جانبي الشارع الوحيد غابات كئيبة من أشجار الشوك الرمادي، الذي تأكل منه الجمال بأفواه ذات شفاه مشققة..

وعندما تنطلق بالسيارة في ذلك الشارع ليلا قاصدا البلدة، تبصر أضواء المنازل من بعيد في جوف الجبل، فكأنها لآليء ذات بريق ساطع يخطف الألباب والأبصار، والجبل عبارة عن محارة عملاقة لاستيعاب تلك الكمية من اللآليء شبه المتناثرة..

في شمال المقبرة يقع البرج شاهق الارتفاع، ذو زخارف ونقوش قديمة، كفيل بإغراء كافة السياح لارتياده كي يلتقطوا له الصور، ورغم ذلك لم يهتم أحد لموضوع ترميمه أو الترويج له كمَعلمٍ سياحي يستحق الزيارة..

كان (جرير) يجلس في الماضي على الحاجز الصخري للشرفة ممسكا بدفتر محاولاته الشعرية الخرقاء، وقد أطل على البلدة بأسرها، مستنشقا الهواء البارد، ومتأملا المنازل مليا قبل أن يقول:

- كأنها علب كبريت!

وعندما كان لا يزال محتفظا بوظيفته كسجان، كان (ملاك) يطلب منه أحيانا إلقاء بعض من تلك المحاولات الشعرية على مسامعه، لكنه وفي كل مرة يبادر إلى الرفض القاطع..

ولطالما ألقى - في الماضي- بنظراته صوب المقبرة المخيفة، التي احتشدت شواهدها القديمة على شكل دائرة، لكنه دقق ببصره الثاقب على ذلك الشاهد الأسود المغروس في تربة الأرض، وقد بدا وكأنه طيف نذير يأمر الناس بعدم الاقتراب..

كان الآن يقف بعيدا عن رفيق رحلته مراقبا تلك المناظر الكئيبة.. سمِّه (جرير) الآخر، العقل الذي جسده الخيال، الأخ التوأم – الأكثر من الشقيق- الذي كان يناظره دائما!

إذن فهو حلم جديد من أحلامه المخيفة!

نظر إلى (جرير) قبل أن يقول باستهجان:

- «أكنت تتظاهر بأنك شاعر أم أنك تهوى الشعر حقا؟»..

- أهوى الشعر أكثر من أي شيء آخر..

- «كيف لا تتقنه إذن وأنت في وادي عبقر؟»..

- ماذا؟!

- «أردت ذكر موضوع وادي عبقر، حيث يستلهم شعراء الجاهلية قصائدهم من الجان، هذه البلدة أشبه ببلدة للجان!»..

- وهل رأيت بلدة للجان من قبل؟ يا لك من..

يبدو وأنك ممن يصدقون موضوع إلهام الجان للشعراء..

- «ويبدو أنك لا تميز المزاح حين تسمعه!»..

حاول مقاومة الانزعاج الذي يعتريه كلما لمح ذلك القبر الأسود اللعين، لكن محاولاته باءت كلها بالفشل، فقال مخاطبا ذاته الساخرة:

- هذا المكان يبعث على الاكتئاب..

- «وبخاصة ذلك القبر الأسود، أليس كذلك؟»..

- كأنه قبر (إبليس) شخصيا لو أنه مات! ما حكايته؟

- «ثمة حكايات!»..

- ألا تدري أيها أقرب للصواب؟

- «لا أحد اقترب من الحقيقة يوماً..»..

- أنا أسألك أنت..

- «لك مطلق الحرية في الإدلاء بفرضيات، لكن لا تفرضها علي!»..

■ ■ ■

قال الرجل الضخم وهو عاكفٌ على تضميد جرح (جرير) البليغ بشاش طبي، جلبه من حقيبة إسعافات أولية كانت في ركن الحجرة:

- «أكلا» هي أوائل الحروف لأربع كلمات تؤلف جملة عبرية تقول: «أنت قوي وأبدي يا إلهي!».، وإذا تم النطق بها مرتين - كما صنعت أنا- أبعدت الشياطين..



- شياطين؟!

- أجل، مثل بارغوست الكلب الأسود، كائن شيطاني يملك قوى خارقة، قيل أنه قد شوهد كثيرا قرب ساحات الكنائس في بريطانيا وفرنسا ليلا!

- وما الذي أتى به إلى هنا؟!

- في هذا المكان قوى لن تستطيع استيعابها يا فتى، إن الأمر خطير لدرجة لا تعقل!

ثم قال ممددا رجليه على البلاط الحجري بعدما فرغ من مهمته:

- أنا (مرتضى كاشاني)، أستاذ التاريخ القديم في الجامعة الأمريكية بولاية ميسوري..

- (جرير).. على اسم الشاعر!

ابتسم (مرتضى) وهو يشعل سيجارة بقداحة ماسية غالية الثمن، وبلا فضول تساءل:

- (جرير) هه؟

وفجأة انقلبت سحنة الرجل، وبصوت قاس سأل (جرير) وهو يقبض على ياقة سترته:

- لابد وأنك أحمق أو مجنون كي تأتي إلى هذا المكان بمفردك..

احتدت نبرة (جرير) وهو يرد مبعدا قبضة الرجل عن ياقته:

- اسمع يا هذا، لقد أنقذت حياتي وإني ممتن لذلك، لكن كونك دار وعالم بكل ما يدور في بلدة الرعب هذه لا يمنحك الحق بإهانة من لا يعلم، وتلك هي كل جريرته.. أخبرني ودعنا نصر بذلك متعادلين!

ابتسم (مرتضى) لدى انتهاء (جرير) من حديثه، ثم قال له:

- ربما كنت ذكيا كفاية مادمت حيا لغاية الآن، ولكن هل ستصدق ما سأخبرك به؟

- بكل تأكيد!

- ودون اتهامي بالتخريف أو الجنون؟

- ليلعني الله إذا فعلت! فقد شهدت من الأهوال ما لا يصدقه عقل!

مدد الرجل ظهره على البلاط بالكامل لإراحة عظامه المنهكة، قائلا:

- ألديك فكرة عن المسريميين؟

- عن المصريين؟!

- عن المسريميين يا أصم!

- لا أظن..

حدَّجه (مرتضى) بنظرة مبهمة، بعدها حك ذقنه مكملا حديثه:

- المسريميون طائفة تعلمت السحر الأسود اليهودي المسمى «كابالا»، إن أتباع مذهبهم يزعمون أن السحر منزل من عند الله عن طريق الأنبياء، الذين نقلوه بدورهم للحكماء!

- وكيف وصلوا إلى هذه البلدة؟

- ليسوا بالضبط هم!

وشرد بصر الرجل كمن يستعيد ذكرى عزيزة على قلبه، وبنبرة متهدجة قال:

- حين سافرت إلى الهند كنت في مثل سنك تقريبا، شاب مقبل على الحياة والعلم، يتمنى لو تتفتح أمامه آبار أسرار الحضارات دفعة واحدة كي ينهل منها، جذبتني معالم الهند الأخاذة، السحر في غاباتها وعبق الحضارة في معابدها، في أنهارها وشلالاتها، زرت نهر الجانج المقدس، وضريح ممتاز محل في تاج محل.. رباه! لقد كانت أياما لا تنسى!

وخلع نظاراته ليمسح زجاجها بطرف معطفه الرث مكملا:

- في منطقة نائية بين الجبال وجدت ذلك المعبد المهجور، كما لو كانت شعائره الممارسة في زمن غابر مندثر، معبد بلا زخارف أو نقوش أو حتى تماثيل، طريقه شاق وعر يؤكد ألا أحد يقطعه كي يتعبد هناك، أنا نفسي وجدته عن طريق الصدفة وبشق الأنفس، عندما أمطرت السماء، وبحثت عن سقفٍ أستتر أسفله..

قررت المبيت داخله، ولما أظلمت الدنيا حدثت ظاهرة مذهلة.. كتابات بالدم غزت جدران المعبد! كتابات ورسومات بزغت كالفسفور الذي لا يرى في النهار، لكنه يصير كأوضح ما يمكن في الليل، كانت ظاهرة خارقة ومستحيلة الحدوث لأن الدماء كانت حقيقية!

إن قوة خفية ما جعلت تلك الدماء تظهر في الليل فقط، وتتلاشى في النهار!

هكذا، وعن طريق تلك الظاهرة المذهلة، علمت الشيء الكثير عن مشعوذ الليل الأسود المدعو (كافاك)!

- (كافاك)؟

- ثمة تميمة هندية قديمة تسمى «نريسيمها كافاك»، تميمة هندية قديمة مخصصة للمجتمعات الارستقراطية، وتقول:

«إذا كنت آتيا من قبل الله فأعلن رغبتك..

وإن كنت آتيا من قبل الشيطان فامض في سبيلك كما أمضي في سبيلي..»..

ثم قام بطي إبهاميه إلى داخل يديه، وقال بذات النبرة:

- «وإذا كنت ساحرا فليذهب بك الشيطان!»..

وابتسم مردفا:

- قديما كانت هذه الرقية تستخدم لتجنب اللقاءات السيئة في مكان خال ومهجور، فإذا أراد شخص ما تجنب اللقاء مع شخص آخر رآه يقترب منه ليلا، فعليه أن يرددها!

- الهنود يستعينون بالجان كثيرا، وقد اخترعوا عشرات الحيل والتمائم بمعونتهم..

- لكن الكتابات كانت باللغة العبرية! وهو ما لم أفهمه بادئ الأمر، ولحسن الحظ أنني درست لغة عدوي، فقد فهمت من تلك الكتابات الأحداث الرهيبة التي قادتني لهذه البلدة المنكوبة!

حسبما ذكر على جدران المعبد، فإن (كافاك) هذا كان من البراهمة، وهم طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس، حدث أن تعرف على ساحر يهودي، وسرعان ما وجد تشابها غريبا بين تلمود اليهود والديانة الهندوسية، فاعتنق اليهودية، وعكف على دراسة التلمود بهمة، ثم تتلمذ على يدي الساحر ليعلمه أصول الكابالا..

استعان (كافاك) بالسحر لصنع «البرتياس» وجعلهم خدمه، والبرتياس هي أشباح الهندوس الجائعة دوما لأن لها أفواها دقيقة للغاية، لهذا تظهر في عالمنا لتجد أجسادا تسرقها، فيتاح لها الأكل!

ذعر براهمة الهندوس حين علموا بالأمر، فالتلاعب مع عالم الأموات خطيئة تستوجب القتل، وعلم (كافاك) بما انتووه، فسلط عليهم جنده من البرتياس.. لقد تعذبوا في طريقة موتهم كثيرا، لأن تلك الأشباح المخيفة بطيئة للغاية في الأكل!



لكن (كافاك) شعر بدنو نهايته، فالهندوس لن يرحموه، وخدمه المريعون يقومون بواجبهم على أكمل وجه، فيحمونه ويصرعون أعداءه، لكن ليس لفترة طويلة..

وسرعان ما وجد طريقة رهيبة، طريقة تضمن له السيطرة الكاملة، ولربما العودة أيضًا، إنها حكاية تصلح أن تكون من قصص «الهاجادا» اليهودية الخرافية..

في البداية، وجد الطريقة المؤدية لاستعمال «إلفة»، وهي أرواح الهواء الشريرة التي تهاجم بشكل خاص المراهقين والكتاب والرسامين والشعراء!

هل راودك شعور غامض تجاه جو هذه البلدة؟

كأنك تتنفس أنفاس كائن شيطاني جهنمي في الهواء البارد؟

إذا راودك مثل هذا الشعور فتهانينا! إن لديك مخيلة فنية من نوع ما!

لاح توتر في ملامح (جرير) عند هذه النقطة بالذات، فقد انتابه ذلك الشعور حقا منذ قدومه إلى هنا، وحتى لقائه بمرتضى.. إن الرجل لا يبعثر كلاما مخرفا في الهواء، بل هو واع لكل كلمة ينطقها، ويعرف عما يتحدث بالضبط!

- «حقا ما تقول، لكنني - ولسببٍ ما - لا أشعر به في هذا البرج..»..



أشر (مرتضى) بسبابته قائلا:

- معك كل الحق، والسبب شباك العناكب التي تملأ المكان، فهي شباك العناكب البيضاء!

- كيف؟!

- يقال أن مخلوقات الشر المجهولة تخشى العناكب البيضاء وشباكها، لأن العنكبوت الأبيض أنقذ بقدرة المولى عزوجل وبفضله سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام، حين نسج خيوطه على غار ثور..

(كافاك) يخشى العناكب البيضاء وشباكها لأنه يعتقد أن بها قوى خفية قد تؤذيه، أنا لا أعلم ما إذا كان ذلك صحيحا، لكنني استخدمه ضده بغض النظر عن حقيقته، هل فهمت؟

تنهد (جرير) قائلا:

- أجل..

- الآن ستقول أنها مجرد خزعبلات من تخريف عجوز مجنون!

- على العكس تماما! ثمة منطق في ذلك كله - أو برغم ذلك كله-، فإن مثل تلك التعاويذ أو الأحجار أو أيما كانت لا تبعد الروح الشريرة لأن بها قوى خفية، ربما يكون ذلك تقديسا من تلك المخلوقات لتلك الأشياء.. ليس من المعقول أن أنطق كلمة تخيف مخلوقا مرعبا فأصير بذلك ساحرا، قد تكون لتلك الكلمة دلالة ما

عند ذلك المخلوق فتفزعه، ولعل ذلك الحجر مقدس عنده فيهابه، عندها قد تتحول تلك الأشياء إلى أسلحة يمكن استخدامها لدرء الأذى عني!

تبسم (مرتضى) راضيا، لكن (جرير) لم يلبث أن تساءل بانفعال شديد:

- لحظة واحدة، ما علاقة مولوخ بالموضوع؟ وما علاقة أهالي البلدة الذين لا زالوا هنا؟ ماذا عن بارغوست الذي أتى من ساحات الكنائس الأوروبية؟

ضحك (مرتضى) ضحكة مذهولة قائلا:

- مولوخ؟ أليس الشيطان الذي تقدم له القرابين من الأطفال؟ أنت شاب مثقف بحق! لماذا ذكرته الآن بالذات؟

- أنا أسألك! هل (كافاك) يستعين بالشيطان مولوخ؟ كل الذين قابلتهم بدوا في عوالمهم الخاصة، لا أحد..

لوَّح (مرتضى) بكلتا يديه صائحا بعصبية:

- لحظة واحدة، عن أي أناس تتحدث؟ لا يوجد غيري وغيرك في هذه البلدة المشؤومة!

- هذا مستحيل! ألم تتبع نهايات خطوط الدم؟

- تتبعتها ولم أجد سوى منازل مهجورة!

- يـا الله! أكنتُ إذن في ضيافة أشـباح والسـيد (كافاك) أوصلني لمنازلهم بخطوطه مصادفة فحسب؟!

- الخطوط مجرد علامة يوسم بها البلدة..

- أهذا ما توصلت إليه؟ إذن ماذا عن ال..

صمت (جرير) فجأة لما اكتشف بأن الرجل لا يمتلك كل الأجوبة كما توقع، ولكن لحسن الحظ أنه كان يمتلك جزءا منها..

فليكن مولوخ أو كافاك أو بارغوست أو إلفة أو حتى إبليس نفسه! المهم النجاة من كل هذه الأهوال.. لذا تساءل متجهما:

- ما الذي يتوجب علينا فعله إذن؟



33

الشواهد الحجرية الكابوسية في كل ركن وزاوية..

كانا الآن يقفان أمام القبر صاحب الشاهد الأسود و(جرير) يقول:

- أرجو ألا أموت بسكتة قلبية!

قال الأستاذ وهو يشير إلى حفرة بالغة العمق أمام الشاهد، لم يفهم (جرير) كيف لم يتنبه لها مسبقا:

- اسمعني جيدا، في هذه الحفرة ستجد ممرا كنفق صغير، يستوجب عليك عبوره حتى تجد هيكلا عظميا أسود اللون، حول عنقه قلادة من الرق، إنها على شكل مثلث مقلوب متساوي الأضلاع، مدوَّن عليه: «أبراكادابرا»!

وعلى الرغم منه أفلتت من (جرير) ضحكة مستنكرة قبل قوله:

- أبراكادابرا؟! أأنت متأكد؟ ربما كانت هوكس بوكس أو جلا جلا!

- كفى سخرية! إياك والاستهزاء بهذا التعبير السحري، لأنه يحوي تفسيرا باطنيا للتلمود! وللأسف لا نجد سوى البلهاء أصحاب ألعاب الحواة على خشبة المسرح يتلفظون به!

عليك بالحصول على تلك القلادة بأية وسيلة، فهي تسهم في درء أذى كافاك عنك!

- لحظة واحدة، من يكون صاحب هذا القبر أولا؟

- إنه شاهد على غرار الجندي المجهول، لا أحد يعلم من صاحبه..

- وكيف علمت أن القلادة بداخلها؟

- لا وقت للأسئلة، بالقلادة يمكننا القضاء على شرور السحر الأسود اليهودي، أو إعاقته على الأقل كي لا يتمكن من مواصلة شروره، أما الأجوبة فستظهر لاحقا..

رمقه (جرير) بنظرة صامتة، قبل أن يصوِّب ضوء البطارية التي أعطاها (مرتضى) له باتجاه حفرة الدفن الواسعة، قائلا:

- ماذا لو صادفني شيء بالأسفل؟

- بسيطة، أصرخ قائلا: «أبرا كادابرا»!

- ولماذا لا أقول «أكلا أكلا» كما صنعت أنت؟

- لن تفيدك بالأسفل، ثمة قوة مجهولة، وأظنها قوة القلادة نفسها، لكنك ستكون بأمان إذا ما حصلت عليها..



صمت (جرير) مفكرا، فقال له (مرتضى) بإلحاح:

- لا وقت للتفكير، أحضر القلادة وسأتكفل أنا بالباقي..

أخذ (جرير) شهيقا، لم يلبث أن زفره بكل حرارة، وباستعمال سلم طويل نزل للحفرة، لم يكن بحاجة للبحث عن النفق فقد كان أمامه مباشرة..

■ ■ ■

زحف بداخل النفق محاولا تجاهل تراكض الجرذان المقزز على معصميه، شعر بأن تلك المخلوقات النتنة تعبر مسامات جلده مباشرة، فحبس أنفاسه برهة قبل انفجاره:

- ابتعدي أيتها النفايات المتنقلة!

ازدادت بعد ذلك شتائمه سوءاً وبذاءة رغما عنه، فالموقف عصيب، ناهيك عن رائحة الموت المنذرة بقربه من جثة..

وكان هناك في نهاية المطاف.. هيكل عظمي متفحم! حول عنقه القلادة المنشودة..

لماذا هو متفحم هكذا؟ هل صاحبه ساحر أحرق في عهد قديم؟

أسئلة لا حصر لها، لكن أهمها هو ما إذا كان سيخرج من هنا على قيد الحياة.. هذا هو المهم الآن!

ليكن هيكل (كافاك) نفسه، لا يهم!

كانت جمجمة الهيكل مستندة على صخرة متوسطة الحجم، وعندما قرب (جرير) أنامله من القلادة، فكر قائلا والعرق يتفصد من جبينه:

- لا مجال للتساؤلات! فقط مد يدك، والتقط القلادة اللعينة، واخرج من هنا بأسرع ما يمكن!

ولكن ما إن مَسَّت أنامله القلادة، حتى سمع همسا مخيفا ذكره بفحيح الأفاعي!

سال عرقه وهو يستعيذ ويبسمل مرارا وتكرارا، شاعرا باجتياح الخوف لذهنه بشراسة..

سكن ولبث في مكانه برهة وهو يفكر، ومن ثم نظر إلى الهيكل المتفحم نظرة طويلة.. ثم همس بنبرة خفيضة:

- ساعدني على الخروج من هذا الجحيم يا إلهي!

وأغمض عينيه المثقلتين وهو يمد يده، فالتقط القلادة بصبر وأناة، ولما نجح بمهمته تنهد بارتياح، وقام بتعليقها حول رقبته..

عاود الزحف عبر النفق المعتم موجهاً ضوء البطارية للأمام مباشرة، فما إن خرج حتى سمع صوت (مرتضى) يناديه:

- هل وجدت القلادة؟

- وجدتها..

- أين هي؟



- بحوزتي، لحظة كي أخرج فقط..

- لا يوجد وقت، بسرعة، إليَّ بها!

لم يدر (جرير) لِمَ تذكر في تلك اللحظة حكاية علاء الدين والمصباح السحري! لولا أنها حكاية خيالية لقال بأن التاريخ يعيد نفسه!

- «لحظة واحدة، أعتقد بأن طرف بنطالي قد علق، لِمَ لا تهبط أنت وتعاوني على الخروج من حفرة الخلد هذه؟»..

احتد صوت الرجل عندما هتف ماداً يده:

- كفَّ عن تضييع الوقت وألق لي بالقلادة!

هتف (جرير) بصوتٍ حاد بدوره:

- لِمَ لا تكف أنت عن الصراخ وتهبط إلى هنا لمساعدتي أيها الأحمق؟

- أحذرك أيها الشاب! أعطني القلادة الآن وإلا..

- وإلا ماذا أيها المهووس المخرف؟ أراك ابتدأت تفقد أعصابك الفولاذية الآن!

سيطر الغيظ على (مرتضى) تماماً، فنهض على الفور، وقام بسحب السلم من الحفرة صارخاً بصوتٍ ثائر:

- فلتتعفن في قعر هذه الحفرة كما الأموات إذن!

ورحل مطلقاً سيلاً من الشتائم المقذعة، في حين ناداه (جرير) مذهولا:

- إلى أين أيها الوغد المعتوه؟ ارجع عليك ألف لعنة!!

34

- «أبرا كادابرا»

نطقها مستخفاً ويده تنبش جيوبه بحثا عن سيجارة، وعندما وجد واحدة أخرج قداحته، لكنه تذكر أنها معطلة، فهمس واجماً:

- كان عليه تلقيني عبارات شعوذة في كيفية إشعال النار!

كاد يرمي بالقداحة بعيدا، لكنه عاد ووضعها في جيبه مع السيجارة مغمغماً:

- أين تراه رحل الوغد؟

ونظر بإمعان كي يقيس ارتفاع الحفرة، ربما يتمكن بقليل من المرونة من التشبث بطرفها والخروج، لكن..

فوجئ بحبل متين يرمى له داخل الحفرة!

تأمل الحبل بحيرة واندهاش، ومن ثم رفع عقيرته بالهتاف:

- من هناك؟

وأنصت هنيهة قبل أن يكرر بإصرار:

- قلت من هناك؟ أهو أنت يا (مرتضى)؟ هل غيرت رأيك إذن؟

شعر بحيرة شديدة عندما بقى الحال على ما هو عليه، فاقترب من الحبل، والتقط طرفه هاتفا:

- سأتعلق الآن.. كائناً من كنت!

شـرع بالتسلق وشـعور كريه يسـاوره بأن (مرتضى) بانتظاره فوق كي يقطع رأسه، فما إن بلغ الحافة بسلام حتى تنهد بارتياح عندما لم يجده.. لكنه كذلك لم يجد منقذه..

كان الحبل موثقا إلى جذع شجرة سوداء متفحمة، يقف على أحد أفرعها غراب أبقع لا يكاد يكف عن نعيقه الكئيب!

■ ■ ■

دخـل (جرير) من باب البرج ليكتشـف بأن عليـه صعود ثلاثمائة درجـة للمـرة الثانية، لـم يُبد ضيقـاً لأنه كان سـعيداً بوصولـه للبرج بسلام، من دون كلاب جهنمية سوداء..

وهنا تصلب كالتمثال في مكانه قبل انتصاب شـعر رأسـه، مقاوماً شعور القيء الذي داهمه..

فأمامـه مباشـرة في الحجـرة ذات شـباك خيوط العنكبـوت، كان جسد (مرتضى) ممداً، والدماء تنزف من كل موضع فيه تقريبا!

هـرع باتجاهه، فوجد إحدى عينيه تتأملـه، فأدرك أنه لا يزال على قيـد الحياة، فرفع نصفه العلوي، ووضعه على ركبتيه متجاهلاً الدماء التي لطخت ثيابه..

نظر (مرتضى) وأطرافه لا تكف عن الانتفاض، كانت نظرات عينه الوحيدة ملأى بالعجز والألم، فسأله (جرير) برفق:

- من فعل بك هذا؟

فتح الرجل فمه بالكامل، فقط ليتنبه (جرير) إلى أن لسانه قد اجتث من منبته اجتثاثاً!

استخرج القلادة من داخل قميصه، فتعلقت بها عينا (مرتضى) تعلق الغريق بالقشة، فسأله (جرير) متوتراً:

- ماذا أفعل بها؟ هل أتخلص منها؟

حرك (مرتضى) إصبعه في الهواء بطريقة شبه انفعالية أو متهالكة بالأحرى، لأنه فقد كثيرا من الدماء، وقواه خائرة..

- «ما الذي تحاول قوله؟»..

وفي النهاية مدَّ الرجل إصبعه ليغمسه في دمائه هو نفسه! وعلى الأرضية شرع يكتب بسبابته المضطربة..

م و ل و خ

فما إن أتم كتابة حرف الخاء حتى ارتخى إصبعه أخيراً ليسلم الروح..

■ ■ ■

سار (جرير) حتى الشرفة، وأطل منها كي يتأمل البلدة بأسرها، عله يتمكن من إيجاد شخص ما..

نظر، ثم أطلق أقوى شهقة..

كانت الخطوط الدموية واضحة جلية، وفي تشكيل رسم مشوه يمثل نجمة خماسية!!

ليس هذا فقط..

لقد رأى في المقبرة عند الشاهد الأسود الكئيب- وشعر رأسه يستحيل لشوكٍ قاس لا يتقصف- جسماً مخروطياً أسودًا، طرفه المدبب مثبت في الأرض، كما لو كان عبارة عن ساقين هزيلتين لذلك الشيء الذي يتأمل (جرير)، وعينه الفضية الواحدة تومض وتهمد كالمنارة!

كاد يصرخ، أن يهوي فاقداً لوعيه، لكن عقله عجز عن إيجاد الانفعال المناسب، فبقي واقفاً يتأمل ذلك العفريت المرعب وهو يرتجف من فرط الانفعال..

وعلى جدار الشرفة الحجري، أبصر كتابات مغموسة بالدم تتشكل ببطء، كما لو كانت رسالة من ذاك المخلوق يبعثها إليه!

وكان مفاد الرسالة - بعدما اكتملت- كالآتي: أحييك!

صرخ (جرير) وقد شعر بعروقه تنتفض كأن تيارا كهربائيا قد مسَّها:



- عُد لجهنم التي أتيت منها!!

لكنه ظلَّ واقفاً كالتمثال دون الإقدام على خطوة تالية..

مسح العرق عن جبينه، ثم تراجع للداخل حتى اصطدم ظهره بالجدار، وهو لا يكف عن تلاوة المعوذات مغمض العينين..

■ ■ ■

استيقظ (جرير) من غيبوبته بغتة..

كان الكابوس الذي رآه رهيباً، وستكون أمنيته الوحيدة - عقب الخروج بسلام من هذا المكان- هو نسيانه!

لقد رأى نفسه يسير وسط شواهد القبور الرهيبة وهو يرتجف، لا وجود لضوءٍ من نوع ما، ومسيرته تبدت وكأنها أزلية!

- «رباه!».

وغطى بصره بكفيه محاولاً التناسي..

لم يجبه سوى صوت تنفس الزمهرير المتمهل، فنهض من رقاده متجهاً نحو شرفة البرج القديم، ليجد أن الفجر قد بزغ، لكن ليس بالصورة التي تمناها، فقد كان مكفهراً بالغيوم، والطقس منذر بهطول المطر..

فجأة لمحها هناك، باتجاه المقبرة..

كانـت تسـير برتابـة رقاص السـاعة، ولـم يحـاول مناداتهـا لبعد المسافة.. سيلحق بها لمعرفة سرها الغامض!

هبط (جرير) الدرج بسـرعة، ومـا أن وطأت قدماه الأرض خارج البـرج حتى ركض بأقصـى طاقته، فتلاحقت أنفاسـه دون أن يتوقف ثانية واحدة لالتقاطها..



منـــزل الشـــيـطـان





35

بلـغ المقبرة الكابوسـية أخيـراً، فتوقـف عن الركض وقد اسـترد طريقة تنفسه بصورة طبيعية..

كان الصمت مطبقا بشـكل غريب، وأحسَّ (جرير) بأن الزمن ذاته قد توقف عن الدوران لأسـباب غامضة، وتمنى ألا يفاجئه شيء ولو كان فأرًا صغيرًا، لأن أعصابه مشدودة كأوتار القط..

فتح بصره المهتز.. وحدَّجها بنظرة طويلة ومتفحصة، أخيرا يقابل ذات القميص البنفسجي وجها لوجه!

فتاة جميلة هي، ولو أنهما تقابلا في ظروف أخرى لأيقن أنها فتاة أحلامه!

أجفلـت لما لمـس كتفها والتفتت، فما إن وقـع بصرها عليه حتى اصطنعت ضحكة مرتبكة، وهي تقول واضعة كفها على صدرها:

- أخفتني كثيرا!

- تتجولين بمفردك؟



- أنا مضطرة!

- مضطرة؟! ثمة قوى مفزعة في بلدة العفاريت هذه وأنتِ..

- قوى مفزعة؟ عفاريت؟! لم أر شيئا يستحق الذكر!

كاد يسألها بغلظة عمن تكون بالضبط، لكن سرعان ما تنهد قائلا وهو يمد لها يده:

- لستِ مضطرة لشيء، هلمي أوصلكِ..

- لا بأس، أفضل السير وحدي..

- تخافين مني؟

ودنا منها ببطء، فتراجعت للخلف غريزيا مجيبة:

- وهل يتوجب علي ذلك؟

خفض يده مهدئا من روعها، وقال:

- سأوصلكِ إلى حيث تودين الذهاب..

لاحظ قرطا واحدا فقط للؤلؤة سوداء تتدلى من شحمة أذنها اليسرى، في حين نظرت له بخوف، وبنبرة عصبية قليلا همست:

- لا أرى ضرورة لذلك..

أومأ برأسه متفهما هذه المرة، ثم ابتعد بخطى متلاحقة.. فنادته بصوت متهدج ملوحة له:

- انتظر..



ثم لحقت به وتأبطت ذراعه! فابتسم بوجوم قائلا:

- صِرتُ آهلا للثقة بهذه السرعة؟

وكأنها لم تفهم أطلقت ضحكة عصبية أخرى، وسارا جنبا إلى جنب في طريق الخروج من المقبرة..

■ ■ ■

قالت وهي تركل حجرا صغيرا اعترض سبيلها:

- كائن حي يتألم بعمق في هذه الشوارع المظلمة، ألمٌ يفوق تأوهات المدمنين حين تمزقهم الحاجة الجنونية للمخدر، وأنين المشردين، وصياح الضحايا قبل إغماد نصل السكين في القلب أو النحر!

أوليست سيمفونية الموت أعذب حتى من السيمفونية السابعة لبيتهوفن؟

- ولماذا السابعة تحديدا؟

- أولم تسمعها؟ حتما فعلت، الحركة الثانية في سُلم «لا» الكبير!

- يبدو وأن لديكِ أذنا موسيقية!

ثم ظل صامتا لوهلة قبيل تساؤله بحيرة:

- أتذكرين حين حدثتكِ عن وجود قوى مفزعة في البلدة؟

- قصدت الجو المخيف والمقبرة المروعة!



وابتسمت قائلة بتقاسيم متجهمة:

- لو أنك شاعر أو أديب فستفهم!

أطلق ضحكة عصبية كأنما يقلد أسلوبها قائلا:

- والدماء؟ والكلب الأسود؟ وال..

- ما الذي تهرف به؟ هل جننت؟ لم أر شيئا من حكايات الجدات التي ذكرتها!

صاح مشيرا حوله:

- ألا ترين ال..

تنبه إلى أمر هام.. وأمسك صدغه بكلتا يديه، وهو يدور حول نفسه كالأحمق!

■ ■ ■

حين كان (جرير) يرافق الفتاة في الشوارع المظلمة، لاحظ أن خطوط الدم التي كانت تفترش الأرض قد تلاشت!

لاحظ أيضًا أن الليل ساكن وهادئ، نسيمه عليل لا يوحي بأي خطر!

همست قلقة وهي تتأمل حاله:

- ماذا أصابك؟

- الدماء! الدماء اللعينة! لقد تلاشت تماما!



ضحكت قائلة بمرح عجيب:

- لابد وأنك مجنون! عن أية دماء تتحدث؟!

ومن دون مناسبة قالت باسمة بعذوبة:

- (لَمَة) هو اسمي بالمناسبة..

تماسك، أو حاول أن يبدو متماسكا، وبتنفس منتظم تمتم:

- (جرير)..

ثم أمسك لسانه عن عبارة «على اسم الشاعر» المعتادة السخيفة، وتساءل:

- هل مسكنكِ بعيد من هنا؟

- كلا..

ثم أشارت لأحد المنازل القصية والمحاطة ببعض الأشجار، قائلة وهي تتنهد بخلاص:

- وصلنا..

- إذن فقد انتهت مهمتي هنا، تصبحين على خير!

قرأ ترددا في ملامحها، فغمغم باسما:

- هل من شيء آخر؟

- هل لك أن ترافقني للداخل؟

- يا للثقة! لا بأس..

وهكذا دخلا معا، فقد شعر برغبة غامضة في التوغل أكثر داخل عالمها الداكن، فكان له ما أراد..

■ ■ ■

كان المكان نظيفا ومرتبا، وهو أمر طبيعي ما دامت الفتاة هي التي تعنى به..

- «سأذهب للمطبخ، أترغب بشرب شيء؟».

- «لا..».

غادرت الصالة تاركة إياه يتأمل أثاث المنزل الذي لا بأس به ككل.. وجد في إحدى الزوايا قفصا يخص طيرا ما غطي بملاءة داكنة، ومخطوطات للوحات مرسومة بالفحم على المائدة، فطفق يسلي نفسه بتفحص تلك المخطوطات، حتى رجعت الفتاة حاملة زجاجة مشروب غازي لها، وقد طوحت بحذاءيها وسارت حافية على السجاد..

قال مشيرا لإحدى اللوحات:

- رسومات رائعة، لكن موضوعاتها غريبة، أعني امرأة تحمل رأس طفلها؟

- إنه إبداع سوداوي خلاب قد لا تفهمه.. الفن يصف روعة الموت أحيانا، يمنحه صورا جمالية ساحرة!

- ولماذا الموت تحديدا؟

بقيت صامتة دون أن تملك الإجابة، شربت جرعة من المشروب، ثم قالت وهي تلعق عنق الزجاجة:

- سألتُ صديقا لي ذات السؤال، يومها حكى لي عن شقيقه الأصغر الذي انتحر ليلة عيد ميلاده! كان وجهه وجه كهل رغم صغر سنه، وعندما كان في السابعة من عمره اعتاد إغراق الحيوانات في برك المياه التي خلفتها الأمطار، لقد كانت بذرة الكآبة مبذورة في روحه، فلم يتخلص منها إلا عندما خلص نفسه من..

- من نفسها؟

- أجل.. من نفسها! لقد وجد الفتى الخلاص الذي كان ينشده لروحه المثقلة بالذنوب أخيرا..

- بأن أضاف لها أعظم الذنوب، لقد قضى بيديه على كل أمل كان بإمكانه تملكه..

أرجحت رأسها بغير اقتناع..

ثم انها وضعت زجاجتها جانبا على المائدة، وقالت بكآبة:

- عذرا، سأذهب إلى الحمام..

- عذركِ معك..

■ ■ ■

كان جالسا بانتظار الفتاة ريثما تفرغ، عندما سمع من يناديه!

- «اهرب كأن الشيطان في أعقابك! اهرب عليك ألف لعنة!».

نظر ذاهلا حوله، ففوجئ به مختبئا داخل عوالم مرآة بيضاوية!

كان النصف الآخر! (جرير) العاقل أو المجنون كلاهما سيان، وقد بدا مذعورا لحدٍ لا يصدق!

اقترب (جرير) منه قائلا بدهشة:

- أين كنت؟ منذ زمن لم تشرفنا بزيارتك!

- «وقريبا لن تراني إذا ما بقيت هنا! اهرب! اهرب حالا وإلا..».

- وإلا ماذا؟!

- «يا أحمق! الم تقل لك اسمها؟!»..

- اسمها (لَمَة)، لكن ماذا في ذلك؟

- «ليس (لَمَة) بل (لامة) يا مغفل! اللامة علة موت نصف البشر، العين التي تصيب الناس بسوء، فتفرغ المدن والقرى على حد السواء لتملأ المقابر!»..

تذكر (جرير) تلك المعلومة التي جاد بها (جرير) الآخر عليه..

لقد طالع عن اللامة أيام اهتمامه بتيمات الرعب في المرحلة الثانوية تحديدا، يقال أنها مادة خفية، مؤذية لمن ينظر إليها، وأهم ضحاياها هم الأطفال والزوجات.. والشبان!

كما أنها تؤذي الحيوانات، وبالذات: الخيل، والخراف والكلاب!

- «أتدري أين هم الآن؟».

كان الظلام يتسلل للمكان ببطء، كأن الفجر تحول إلى ليل من جديد!

التفت وفرائصه ترتعد، فوجد الفتاة واقفة وابتسامة ماكرة تملأ وجهها!

شعر بتوتر يغزو كيانه، بقشعريرة كهربائية تلامس جلده، فتساءل برهبة:

- أتقصدين أهالي البلدة؟

- ومن غيرهم؟

- ماذا فعلتِ بهم؟

قالت بازدراء:

- تسلية لا أكثر!

رأى قدمها الحافية تقلب أصابعها على الأرضية بطريقة أثارت هلعه، كما لو كانت يدا ذات أصابع طويلة، بهت وجهه حتى صار بلون الورق، وبأحرف مضعضعة همس:

- أأنتِ حقا اللامة قاتلة البشر والحيوانات؟

أطلقت ضحكة قصيرة، ثم قالت بتخابث:

- أنت واسع الاطلاع!

بدت متلذذة وبدا مرتاعا لأقصى حد، وأنصت لها وهي تهمس برقة مداعبة قرطها اللؤلؤي الأسود الوحيد بظفرها:



- أرى أنك قد وجدت قلادتي!

- أهي لكِ؟! فإذن..

- لا تفرح كثيرا، فهي مجرد حلية كنت أحب التزين بها!

- والهيكل المحترق في الحفرة؟! أهو..

- أجل.. كنت أزور قبري! هل بإمكانك تخيل المشهد الرائع؟!

على النافذة وقف ذات غراب البين الأبقع، لينعق باستمرارية كريهة ومزعجة..

قالت الفتاة وهي تدور ببطء حول نفسها ممسكة بزجاجة الشراب:

- إشارة القتل.. الصوت.. ضحايا الطوائف والمعابد.. مذابح الحروب الجميلة!

- لامة مجنونة إذن!

واصلت الفتاة حديثها وهي لا تكف عن تمايلها البطيء:

- هنالك من يثمل.. من ينتحر.. من يفضل الموت مع ذكريات الماضي السعيدة.. من يدمن العقاقير المخدرة..

وأكملت وهي تتنهد مراقبة السقف:

- لم تكن الضغائن بهذا الحجم.. لم يكن التشرد موجودا.. لم يكن الناس يتعرضون للموت في الطرقات..

صار القتل اسم اللعبة.. في كل زاوية تجد من يحاول الإطاحة بآخر، أكان صديقا أم أخا.. منطق شريعة الغاب!

وهنا وثب للخلف بعصبية، فقد شعر بشيء يلمس كتفه بخشونة، فضحكت الفتاة ضحكة شيطانية!

صرخ:

- أنتِ سبب كل هذا!!

- يا للبلدة الملعونة! إنها لم تدع في زمن أسود مشؤوم فتاة مسكينة وشأنها، بل اتهمتها - بلدة الأخلاق والفضيلة- بأنها ساحرة!

هكذا وعلى طريقة محاكم التفتيش أحرقت! فكان قبرها هنا..

الكل تهامسوا بشأنها، والكل كان مستعدا للوشاية بها، رغم النتيجة المروعة لتلك الوشاية..

ووضعت سبابتها على شفتيها هامسة:

- فالوشاية كالقتل!

- لكن هذا كان منذ أمدٍ بعيد!

- الحقد لا يُغسل بسهولة يا عزيزي! وأيا كان يقطن هذه البقعة الخاصة بي سيدفع الثمن!

- أنتِ من قتل (مرتضى)، وذاك الشاب المسكين!

- أعترف أن فتاك كان مسكينا، مجرد تائه دخل البلدة الخطأ.. لكن (مرتضى) كان وغدا، أتى كي يحصل على قلادتي ظنا منه أنها تخص مشعوذا له باع طويل في «الكابالا»، كي يبيعها لأحد جامعي التحف ويصير ثريا..



تساءل محاولا التماسك:

- ولكن ماذا عن كتابات الدم؟ ماذا عن بارغوست الكلب الجهنمي؟

ماذا عن العجوز الوحيد و(جبر) المنافق و(درة) الخائنة و(سامر) الكاذب؟

ماذا عن إلفة ومولوخ؟!

- دعني أسألك سؤالا واحدا يا شاعري العزيز.. أين بإمكانك إيجاد عشرات الوحوش الثائرة الساعية وراءك؟ كلاب شيطانية، وأرواح هواء شريرة، وساحرات أحرقن، وخطاة أشباح يظنون أنهم على الطريق الصحيح؟

تبدت تلك النظرة المتبلدة في عيني (جرير)..

لقد قفز حوار تلك الليلة التي قضاها مراقبا (ملاك) إلى ذهنه، عندما سأله ذات سؤال هذه الغولة الواقفة أمامه!

- «أتعرفين قاتلا يدعى (ملاك)؟!

لمح بريقا كبريق عيون الذئاب في عتمة الليل في مقلتيها، وبصوتٍ كفحيح الأفاعي همست متجاهلة سؤاله:

- ثمة مكان واحد لاحتواء كل هذه الشرور!

- هل تعرفينه؟ قولي بحق جهنم!

مررت لسانها على شفتها السفلى بتلذذ أثار رعب وقرف (جرير)، ثم استحال تقززه ذهولا لما نهضت وتراجعت، حتى التصقت أطرافها بالجدار كالسحلية متأملة إياه بتهكم، ومن ثم صارت جزءًا من الظلام!

■ ■ ■

شعر بالذعر لما تلاشت عن بصره، فبدأ جفنه – اللعين – بالرف العنيف، وهو يتحسس طريقه في العتمة، مطوحا نصل مديته التي شهرها يمنة ويسرة، عله ينجح بإصابة جزءٍ منها!

خرج للبحث عنها في باقي الغرف، كانت غرفة نومها خالية، والحجرة باردة للغاية على عكس باقي أرجاء الدار الدافئة، وفي خضم تساؤلاته عن مكان اختبائها، استطاع رؤية تلك الحلقة المعدنية الصدئة في زاوية الحجرة، فاتجه نحوها، وقام بجذبها لتكشف عن درجاتٍ حجرية مؤدية لأسفل!

كانت دعوة للنزول إذا ما كان يملك الجرأة، وقد قبل تلك الدعوة بفؤادٍ راجف..

ازداد البرد لدرجة أن البخار خرج مع أنفاسه، ورائحة كالتي يشمها عند الجزارين تملأ الجو، فشعر برغبة في التقيؤ، لكنه تمالك نفسه.. أبصر بابا معدنيا صدئا بصعوبة، بسبب الأضواء الخافتة لفوانيس معلقة، فاقترب منه حتى تبين فرجة أدنى وجهه منها.. ورأى!

رآها أخيرا.. كانت متربعة أرضا، وقد وضعت شيئا أشبه بالرأس في حجرها، حيث أخذت تداعب خصلات شعره الأسود الطويل بمخالبها السود المعقوفة!

وتيبس (جرير) في مكانه، ويده القابضة على المدية ترتجف لاشعوريا حتى كاد أن يسقطها..

كان صوت الشر ينطق بحنو، رقة مريعة اكتست بها نبرة اللامة التي خاطبت الرأس المقطوع بقولها:

- سَلِم على صاحبك يا (جرير)!

سقطت المدية من يد (جرير) بالفعل، ولطم جبهته بكفه عدة مرات وهو لا يكاد يكف عن الارتجاف، فقد كان الرأس يحمل ملامحه!

لقد كان رأسه شخصيا!

وهنا انطفأت الفوانيس كلها، عدا ذاك الذي كان بجوارها على الأرض..

ورأى (جرير) - بعينين جاحظتين - الساحرة وهي ترفع رأسه على ضوء فانوسها الوحيد وتشرع بالتهامه!

جن جنونه - من الذعر -، والتقط مديته من على الأرض قبل انقضاضه عليها صارخا:

- عودي لجهنم التي أتيتِ منها!!

عاجلتـه المرأة بضربة طرحته أرضا فاقدا النطق والحركة، وألقت بالرأس جانبا قبل اقترابها منه بشدقين ملطخين بالدم..

لم يشـعر بالهلع هذه المرة عندما كشـرت عن أنيابها بل بالحنق.. نهـض متجاهـلا آلامه النفسـية والجسـدية، وبذلك تنبـه لحبل قديم ملقـى بإهمال قريبا منـه، فالتقطه وفكرة ما تتفتق في ذهنه، وسـرعان مـا انطلـق مسـرعا على الدرج إلـى خـارج القبو، وزمجرة السـاحرة تلاحقه..

خـرج من الـدار الجهنمية، وبسـرعة ورشـاقة قام بتسـلق إحدى الأشـجار الملاصقة لها، ثم الوثب حتى اسـتقر فوق السـقف، هناك قام بصنع طوق من الحبل وبصره يتفقد الأشـجار القريبة، حتى وجد واحدة مناسـبة، عندها أطل برأسـه من فوق مراقبـا الباب الذي تركه مواربا..

فجأة، انخلع الباب بعنف من مكانه، وبرزت اللامة وهي تصرخ، فقام بإلقاء الطوق المعقود حول عنقها، كما لو كان راعي بقر يحاول الإمسـاك بثـور هائـج! ورمى بنفسـه لتنطبـق حلقة الحبـل المعقودة بإحـكام، وقبل محاولتها تمزيقه بمخالبها كان قد قفز متشـبثا بالحبل من فوق إحدى الأشـجار، فانطلق جسم الساحرة لفوق كالصاروخ، وتعلق بالهواء لدى اسـتقرار قدميـه أرضا.. وربط طرف الحبل الذي معه إلى جذع الشجرة ذاتها وهو يصيح شامتا:

- كيف هو شعوركِ وأنتِ معلقة كالذبيحة؟!

ظلَّ صوتها يتحشرج وكفاها متشنجان حتى تهدلا إلى جنبيها، وكفت عن المقاومة للأبد..

وسقط (جرير) أسفل الشجرة وهو ينشج ويضحك في آن واحد، لم يصدق أنه تمكن لوحده من الانتصار على مخلوق مروع كالذي يتأرجح مشنوقا فوقه!

■ ■ ■

أبصر بعين الخيال «جرير» الآخر واقفا يتأمله بشفقة، كان هذا قبل أن يدس يده اليمنى في جيبه مدمدما:

- «أنت تسرعت يا صديقي!».

- أعلم هذا..

- «قتلتها قبل أن تفيدنا بشيء عن (ملاك)..»..

- أعلم هذا! أعلم هذا!! أعلم هذا!!!

كذا صرخ (جرير) بأعلى صوته وبوحشية هادرة.. فتلاشى (جرير) الآخر ببطء حتى اختفى تماما..

وعندما داعبت أولى نسائم الفجر مسامات وجنته وجفنه المختلج، شعر بسكينة روحية دفعته للبقاء فترة أطول، والاستلقاء للظفر بنوم عميق وآمن هذه المرة، دون خوفٍ من شياطين البلدة المهجورة..



7 كلاب تلعب البوكر!





36

كانـت ليلة عاصفة، ارتجت جـدران الزنزانة الكئيبة لهزيم رعدها الشبيه بدوي قصف المدافع العنيف في الحروب..

ونظـر (ملاك) للسـقف وأناملـه الخشـنة ذات الأظافر المسـودة ترسم حرفا وهميا في الهواء..

- ع !

اعتدل (جرير) في جلسته متسائلا بفضول:

- أتقصـد الصحفـي الهمـام الـذي تابـع نشـاطاتك بسلسـلة من مقالاته؟

- سعيدٌ لاستحواذي على اهتمامك أخيرا!

بالطبـع كان (مـلاك) يسـتحوذ على اهتمامـه مؤخـرا، لدرجة أن جريراً شـاهده في كوابيس سـوداوية كانت المتسـببة في إصابته بداء الأرق..

- «كيف قتلته؟»..



- «هذا.. سر!»..

قيل أن الحلم بالملائكة ينبئ بتأثيرات مزعجة في الروح، وأنه يؤدي إلى وضع متغير في نصيب الشخص، وإذا كان الحلم مبهجاً على نحو غير عادي فسوف يسمع الحالم عن صحة الأصدقاء، أو يتلقى ميراثاً من أقارب مجهولين..

قيل كذلك أنه إذا جاء الحلم في صفة تحذير، فقد يتوقع الحالم تهديدات بفضيحة في أمور الحب أو المال..

أما بالنسبة للأناس الأشرار فهو مطلبٌ بالتوبة!

لم يعلن عن ذلك أمام سجينه، لكنه راهن نفسه بأن (ملاك) يعلم ذلك جيدا!

■ ■ ■

دار «الخلود» للمسنين!

تلك الدار العتيقة التي بنيت في بداية الستينات، ابتناها رجل أعمال على اسم والدته (خلود)، التي قيل بأنه قد نفاها إلى دار أخرى أعتق - وتم هدمها لاحقا-، حيث ماتت منطوية في غرفتها، وفي يدها صورة لوحيدها، دوَّنت عليها بخطٍ طفولي نوعا كلمة وحيدة ذات عمق مؤثر: «سامحتك»!

يقال أن شخصا ما قد أرسل الصورة لابنها رجل الأعمال، الأطباء والنزلاء جميعا أنكروا قيامهم بذلك، وظلَّ مرسل تلك الصورة

مجهول الهوية، وإن قيل بأنه رجل مسن وقع في حب تلك المريضة البائسة، فقرر بعد موتها تقديم خدمة أخيرة لها..

قيل أيضًا أن رجل الأعمال ذاك ووحيد تلك المرأة، قد بكى كما لم يبك من قبل لدى تسلمه الصورة ومطالعته الملحوظة، ثم قرر ابتناء دار رعاية للمسنين باسم والدته، وصار هو المشرف الدائم عليها، كأنما ينشد الخلاص من كبرى خطاياه.. ألا وهي العقوق..

لم يتزوج وذلك خوفا من إنجاب ولد عاق مماثل يصنع به المثل مستقبلا، وتوفي وفاة غامضة في ساعة متأخرة من الليل، بينما كان جالسا وراء مكتبه يراجع عددا من ملفات نزلاء داره..

وآخر ما قيل أنهم وجدوا جثته وقد اعتلى ثغرها بسمة راضية!

■ ■ ■

كانت حديقة دار «الخلود» تعج بأشجار النارنج المزروعة بعناية، فأفعم الجو أنعش ملطف رباني يمكن للمرء أن يستنشقه..

انتشر كبار السن هنا وهناك لممارسة بعض أنشطتهم المضجرة والروتينية لمن يراهم، لكنهم كانوا يستمتعون بها حقا لأنها تدور في حديقة الدار اللطيفة.. فترى رجلا عجوزا يجلس على دكة خشبية، محاولا إغراء الحمائم ببعض حبوب الذرة، وترى سيدة مسنة تسير على العشب الندي الأخضر بقدمين حافيتين، مرتكزة على عكاز

يشابه الكرسي بقوائمه المعدنية الأربعة، في حين وقفت ممرضات شابات لمراقبة ما يحدث دون تدخل منهن كي يأخذ الجميع راحته..

رمق (جرير) هذا كله بصمت..

إنه طرف الخيط الوحيد المؤدي إلى تحقيقات (ع)، فقلة من زملائه الصحفيين كانوا يعلمون بمكوثه في دار «الخلود»، مستجوبا أهالي ضحايا (ملاك) بطريقته الخاصة، فقد اختفى الصحفي الجسور عقب نجاحه في إماطة بعض الغموض عن (ملاك) وأسلوبه المخيف في القتل.. قيل أنه قد هرب خوفا من انتقام السفاح المخبول، وقد صارت الشائعة أقوى لما وُجد قتيلا هو الآخر في هذا المكان!

قالت المشرفة رامقة المرضى بعين راضية:

- كما ترى، الجميع هنا يعيشون ببساطة معيشة لا بأس بها، لا أحد يشكو أو يتذمر، ولا أحد مطالبٌ بشيء سوى أن يتابع ما تبقى من مشواره الدنيوي بهدوء!

كان هذا حديثا قاسيا، لكن (جرير) لم يعلق عليه.. استمر بمراقبتهم متسائلا:

- وكلهم من أهالي الضحايا؟

- أكثريتهم، فبعد مقتل من يمتون بصلة لهم صارت الدار قِبلة لغالبيتهم، فقد كانت الصدمة أكبر من أن تحتمل.. السفاح تسبب

بمقتل أبنائهم وأشقائهم وحتى أحفادهم، فلم يعودوا قادرين على المتابعة من دونهم..

ودوَّرت سبابتها بالقرب من صدغها متبسمة ببلاهة، فقطب جبينه معقبا:

- إنها سن الشيخوخة، الخرف لا أكثر..

- متأكد؟ إنهم يسألون دائما عمن فقدوهم إذا ما أتوا لزيارتهم! يوميا يصنعون ذلك! ويبدو وأنهم لم يتقبلوا حقيقة أن أحبابهم لن يعودوا مجددا!

■ ■ ■

كانت مجموعة أقرب للانفراد..

لم ينقصهم سوى تعليق لافتة في غرفة المعيشة تحت عنوان: «قسم أهالي ضحايا أخطر سفاح على وجه الأرض»!

عجوز على سبيل المثال جلس ليرمق اللاشيء ببصر زجاجي، فبدا كمنحوتة لن تتزحزح إلى يوم يبعثون.. آخر استند للنافذة كي يمرر إبهامه على زجاجها، كأنما يحاول تدوين عدد من الأحرف.. سيدة تزحف ببطء السلحفاة، ورأسها للأرض كالزومبي في أفلام الرعب، وأخرى واقفة كالوتد معطية ظهرها للجميع، حيث تراقب بثبات لوحة ضخمة، تمثل 7 كلاب يلعبون لعبة مقامرة الورق المسماة «بوكر»!

شعر بتعاسة بالغة لمجرد مراقبة أحوالهم.. هؤلاء مكانهم مصحة للأمراض النفسية لا دار المسنين! وتسلل الشرود لبصره وهو يتساءل:

- وأين كان موقع (ع) من هذا كله؟

- في القبو!

- قبو؟!

- كان مصرا! كما أن سمعته كانت طيبة لدى الشرطة والصحافة على حد السواء، وقد كان يتصرف كشخص ناضج وراق تماما.. قال أنه سيمكث في القبو.. من أجل قضية السفاح؟

- أجل أجل.. وبعد؟

- كان يستجوب النزلاء بهدوء، والعجيب أن بعض هؤلاء تجاوبوا وتحدثوا معه، كان حديثا عقيما لا يفيد بشيء، لكنه بدا متفاعلا مع أحاديثهم، خصوصا وأنه كان يرتدي مثلهم، الفارق فحسب أنه لم يكن ينتمي لهذا المكان!

- تعنين أنه عاش وسط أهالي الضحايا؟

- هذا في النهار، أما آناء الليل فكان معتكفا على الدوام في القبو، حيث حوله إلى غرفة للسكنى والعمل على أوراقه!

- هل بإمكانكِ وصفه لي؟

- وصفه؟ أتعني كيف كان يبدو؟ حسن.. كان أشيب الشعر - رغم أنه في الثلاثينات من العمر-، ولربما ساعده ذلك! وقد كان يحمل حرقا قاسيا في الجهة اليمنى من منطقتي الخد والذقن!

قالت ذلك ممررة أناملها على خدها وذقنها بشرود، فعاود التساؤل المُلِح:

- وهل تصادف أن تحادثتما؟

تفكرت المشرفة هنيهة، ثم قالت وهي تهرش ذقنها:

- محادثة عابرة بالكاد أتذكرها، ولمرة واحدة فقط، وجدته ذات مرة غير حاضر الذهن وهو يجلس مراقبا النزلاء، المرأة هناك التي تراقب اللوحة طيلة الوقت.. كان يراقبها بالذات ساهما.. ولما اقتربتُ منه لسؤاله ما إذا كان بحاجة إلى شيء، ردَّ قائلا: هؤلاء كانوا مجتمعين يوما مع أحبائهم.. كان هذا قبل ظهور (ملاك) كي يسلبهم بقساوة ضارية أولئك الأحباء! ولكن ولحسن حظ تلك المرأة أنها وجدت ببراعة منفذا خياليا ينقذها من فكرة انتحار زوجها المدين بكثير من الأموال، من الرحيل تاركة الهول الذي قدمت به لهذا العالم، وتسببت به لهؤلاء التعساء!

- ماذا كان يعني؟

- الله أعلم!

- ومن الذي اكتشف جثته؟

- أحد الحراس، عندما نزل لتفقد أحواله بأمر من مدير المصح.. أحمد الله على أن الشـرطة قد انتشـلت جثته دون أن أراها.. كان من الممكن أن أكتشف أنا الجثة! قالوا أن السفاح قطعه إربا!

نظر لها (جرير) بتمعن، ثم وبشفة سفلى مرتعدة دمدم:

- أرشديني للقبو من فضلك!



37

«من مذكرات (ع)»:

في زاوية نصف معتمة من مطعم «الشوكة الفضية»، الذي يبعد كيلومترات عن ضجيج العاصمة، اتخذت لي ركنا منزويا..

مكاني الأزلي المفضل، حيث أبتعد قدر الإمكان عن ثرثرة الزبائن المستمرة، وأصوات سكاكينهم وهي تقطع اللحوم، وأشواكهم التي تلقم أفواههم الشرهة قطعا منها!..

كنتُ جالسا أدوِّن بعضا من سطور ذكرياتي في الدفتر السابع من سلسلة مذكراتي التي لا تنتهي.. لا أعلم بعد لِمَ أواصل تدوينها، فلا أحد يهتم - أو قد يهتم- بمطالعتها.. طلبي المعتاد موضوع أمامي، القدح شبه فارغ من القهوة، آتي إلى هنا دوما من أجل القهوة التي يعدونها، أنا خبير بالبن الجيد، وأتعرفه حالما أتذوقه بسرعة لا بأس بها!

بحثت أصابعي عن مقبض القدح الضيق، وأنا غارق بتأمل ما قمت بتدوينه، عندما أحسست بها تتلمس شيئا ما، له مقدمة ناعمة وما تبقى منه خشن ورفيع للغاية، فارتسمت في ذهني صورة لوردة! كان هذا غريبا، إذ لم أذكر وجود واحدة على المنضدة قبل جلوسي إليها، نظرت فوجدتها بالفعل هناك، حمراء ندية، والى جوارها تقف طفلة في ذات جمالها!

شعرت بوهن بين ثنايا أضلعي، فأنا هش ضعيف أمام البنات الصغيرات لأني أراهن كالملائكة..

خاطبتها بقولي متهدجا:

- لمن الوردة يا حلوة؟

- لك يا «عمو»!

لم أقاوم أكثر، فقبلتها على خدها الناعم قائلا بحنو:

- سلمت يداكِ يا أحلى وردة!

- «ماما» طلبت مني أن أقدمها لك!

- ماما؟

لم أحاول التلفت يمنة ويسرة بحثا عن أم الطفلة، نظرتُ فقط إلى الطفلة متسائلا:

- وأين هي ماما يا حلوة؟

رفعت الطفلة إصبعها الصغير البض موجهة إياه صوب نقطة ما، تتبعته ببصري، فوجدته يتوقف عند شابة جميلة بنية الشعر تنظر إليّ متبسمة!

هل أعرفها؟ ربما، فوجهها مألوف قليلا لدي.. لم تكمن المشكلة بمحاولة تذكرها، بل في اتخاذ الخطوة التالية والمناسبة..

هكذا، قبلت الطفلة على خدها مجددا وأنا أحملها برفق، وسرت بها نحو والدتها مفترضا وقوع خطأ، ربما ستعتذر مني على تلك الغلطة المحرجة..

وضعت الطفلة أمامها متسائلا بلباقة قصوى:

- معذرة، إن «الأمورة» طفلتكِ، أليس كذلك؟

- كيف حالك أيها المنشغل على الدوام؟ أتراك تذكرتني الآن؟

- (أسيل)؟!

ضحكت كأنها تهمس، وبراحة يدها مسحت شعر ابنتها التي ورثت لونه عن أمها..

قالت لها برقة:

- اذهبي للهو قليلا يا (هايا)..

ابتعدت الطفلة وأنا ارمقها بنظرة شغوف قائلا:

- ابنتكِ رائعة..

- إنها طفلة متعبة، لكنها قطعا تستحق العناء، لِمَ لا تجلس؟



رددتُ مرتبكا لأبعد الحدود:

- معذرة، لكنني تأخرت عن موعدٍ هام!

تبسمت بلطف قائلة:

- إنني مطلقة..

شعرتُ بدهشة، نشعر بالدهشة حين نسمع بطلاق من نعرفهم، ولستُ بشاذٍ عن القاعدة.. سألتها لدى حصولي على مبرر للجلوس - وإن كان مبررا غير مريح لي-:

- كيف حدث هذا؟

تنهدت، ثم أخرجت علبة سجائر وكأنها تعرفني على المستجدات في عالم الإحباط خاصتها..

قالت واجمة وهي تمد العلبة اتجاهي:

- تدخن؟ لا بأس، (مراد) الوغد عشق التدخين، خاصة حين يمزج «الكونياك» مع دخانه! أحيانا يجلب صنوفا غير هينة من الكحول.. رباه! ما الذي أخرفه؟ مع الكحول لا يوجد صنف هين أو غيره فكلها مسكرات لعينة!

- إن نسبة الكحول متباينة في كل صنف!

ضحكت من أعماق قلبها المثقل، وبحنكة سحبت نفسا من سيجارتها كفيلٌ بالقضاء علي لو أني قمت به..

قالت والدخان ينساب من منخريها:



- الوغـد علمني التدخين، وفي كثير من المناسـبات كان يرغمني على مشاركته الشرب!

شـعرتُ بغثيان مبين .. لِمَ تسـردين علي همومك يا (أسـيل)؟ إن مشـاكل الحياة الزوجية المتعلقة بسـكر الزوج أو بخيانة الزوجة تثير غثيانـي، خاصة حيـن تتعلق بمن أعرفهم، أو كنتُ فـي يوم من الأيام على علاقة بأحدهم..

فلماذا تعودين اليوم يا (أسيل) لتسمعيني متاعبكِ مع حياة اخترتها بمحض إرادتك؟ ألستِ التي أوقعتني في حبائلكِ ومن ثم أخرجتني بمنتهى البساطة؟ كالعادة السيئة التي ينبغي التوقف عنها؟

مشـكلتي هي الإكثار من الإنصات، حتى جدتي قالت بأن مسحة مـن وحـي الثقة تتسـلل إلى وجدان من يجالسـني، وبذلـك يفتح لي مكنونات فؤاده!

واليـوم أنصـت لهموم حـبٍ قديم، أنثـى فرضت علـيّ حبها، ثم أجبرتني على محاولة نسيانها!

تقول (أسـيل) وكفها ذات الأنامل المطبقة بالسيجارة على خدها تربت:

- لم أذق طعم الهناء حتى في ليلة العمر..

واسترسلت بعيون ساهمة:

- ومع كثير من الضرب اللئيم والمؤذي، كان يعاملني كغانية لا تسعد إلا بذلك الأسلوب الدنيء في المعاملة..

سارعتُ بالقول متمالكا نفسي وانقباضة قلبي:

- في أية مرحلة هي (هايا)؟

- في الحضانة، إنها ما يجعل عالمي محتملا..

- الأطفال أحباب الله!

- فعلا..

ناديتُ النادل كي أطلب لها مشروبا باردا، لكنها أصرت على فنجان قهوة مرة.. شديدة المرارة إذا أمكن!

أصرت كذلك على مواصلة السرد بصراحتها المعهودة:

- أتصدق بأن صديقه الذي يسهر معه حتى طلوع الفجر قد حاول التحرش بي؟ وزوجي العزيز كان في حالة سكر مبين! اضطررت لأن أهشم زجاجة شراب على رأس ذلك الخسيس، وفي كل ليلة كان علي التأكد من أن باب حجرتي موصد بإحكام، ومن شدة خوفي أظل أحيانا مستيقظة حتى اليوم التالي، ولا أنام إلا لدى التيقن من أن الوغدين قد غادرا المنزل..

- وأين كانت القشة التي قصمت ظهر البعير؟

- ذات ليلة سهوت لدقائق، أفقت بعدها متجهة للصالة، خمن ما الذي رأيته بأم عيني؟ وجدت زوجي الحقير يحاول إرغام الطفلة على الشرب من سمه الزعاف!

وارتعشت تقاسيمها بشدة عقب ما قالته، ولم تحتمل أكثر، فراحت تنشج وكفها يحجب وجهها..

شعرتُ بحزن جم لأجلها، أسفتُ على حالها وحال طفلتها البريئة، إن عالم الكبار لمقيت غير رؤوف، فهو لا يرحم أحلام الصغار، ولا طفولتهم التي تحاول الترعرع بسلام..

تساءلتُ بنبرة واجمة:

- وبعدها حصلتِ على الطلاق؟

- بمعارك رهيبة في المحاكم ضده! أحيانا كان يطلبني في مكالمات ليلية متأخرة لينعتني بالفاجرة، وليقسم على ذبحي وذبح ابنته قبلي.. إنه حيوان بالمعنى الحرفي للكلمة!

جاء النادل لوضع طلبها وهو يكبت بسمته بعسر! الحق معه، فقد بتُ أجالس العديد من النسوة هذه الأيام.. بحكم المهنة طبعا!

أرحتُ خدي على قبضتي قائلا بتمتمة:

- قاسيتِ الكثير..

- ليتني أفهم فقط سبب تحول الوغد! كان حليما كالملائكة أيام خطبتنا، كان أكثر رومانسية من (روميو) وشاعرية من (قيس)!



وتأملتني هامسة:

- ولكن حتى مع تلكم اللحظات الساحرة برفقته لم أستطع نسيانك! لم أتمكن من نسيان أحاديثنا القيمة عندي أكثر من أية جوهرة نفيسة في العالم، فهل تذكر؟

كان هذا بالضبط ما كنت أخشاه، محاولة استعادة العلاقة القديمة، ومحاولات تثبيت الطوق حول عنقي من جديد، أرجوكِ أن تكفي يا (أسيل)، لِمَ لا نكون كأخوين أو صديقين يرتاح أحدهما للآخر فحسب؟

قالت وهي تزفر مخرجة الأنفاس الدافئة من فمها لتنفس عن صدرها:

- كان موجودا في أيام مرضي ومعاناتي، وأنت لم تكن! زارني ذات مرة ومعه الورد لي، أمسك بكفي والدموع تنحدر من مقلتيه، وفي أذني همس كم يحبني ويتمنى أن أقبل الارتباط به، فلم أقاوم أكثر! أبصرتك في عينيه فظننت فؤاده كفؤادك، لكنني كنت جدُّ مخطئة..

وتنهدت قبل أن تسترسل آسفة:

- أدرك بأن الأوان قد فات على قول ذلك، أرجوك أن تسامحني لأني أسرد عليك متاعبي البغيضة، فأنا بحاجة لشخص أثق به، أكلمه كي لا أجن، فاعذرني أرجوك..



- هوني عليكِ..

شرعت بفرك عينيها لتزيدهما احمرارا وهي تقول:

- إن ضعفي مثير للاشمئزاز!

- لستِ ضعيفة يا (أسيل)، كنتِ ولا زلتِ قوية..

- لكنني الآن وحيدة..

- لستِ وحيدة.. لديكِ (هايا)!

تبسمت لتلك الانتكاسة واضعة عقب السيجارة الذي وصل رماده لنهايته في المنفضة، لم تعبئ رئتيها سوى بنفسين فحسب، لكنها كانت نهمة للقهوة المرة..

نقرت سطح المنضدة بظفرها شبه الطويل قرمزي اللون، فسألتها:

- كيف هم ذووكِ؟ كيف استقبلوا الخبر؟

- ماذا تظن؟ أمي سقطت مغشيا عليها، ووالدي كاد يصاب بنوبة قلبية، أما أشقائي فلقد توعدوا الوغد بالقتل!

- يا للهول!

- لكن الجميع بخير الآن، فيما عداي بالطبع..

قلت مشفقا:

- لا بأس عليك، ليست بالنهاية السيئة، هنالك من ينتهين بوجوه مشوهة بمياه النار!



ضحكت قائلة:

- رباه! لكم أحب طريقتك الصادمة في الكلام!

ثم صمتت بغتة، فعقبتُ مسرعا في شيء من لعثمة:

- ولا زلتِ تذكرين بعد كل تلك السنين؟

- ألم اقل لك بأني لم أنس شيئا من أحاديثنا في الماضي؟

شعرت بارتباك إزاء تلميحاتها المتكررة، فقررتُ أخيرا التكلم بصراحة وبطريقتي الصادمة:

- (أسيل)، أتحاولين استعادة العلاقة القديمة؟

كان وجهها قريبا من وجهي حين قلت ذلك، من ثم تراجعت ببطء لتسترخي على مقعدها، وهي تحدق بي جامدة الانفعالات، شعرت بالحرج الشديد لما قلته لها، ورغم ثقتي بصحة أفكاري شعرت بتسرعي في نشرها..

راقبتُ (هايا) الملتصقة بزجاج الواجهة متأملة الرائح والغادي، وعمال «الكافيه» يحاولون مداعبتها لإضحاكها، لحظات من الوهن مسَّت شغاف قلبي حين تخيلت تلك الملاك الصغيرة ابنة لي، أصحبها إلى الملاهي، وأشتري لها الحلوى، ثم آخذها لعيادة طبيب الأسنان!

كانت أمها ستكون زوجتي المحبة، فتاة جميلة ظننت بأنها تفهمني وتصورت بأني أفهمها..

جميلة أحلامنا عندما نخطط لها في عقولنا، أو نكتفي بمجرد تخيلها، لأن لحظة البدء بتنفيذها وتطبيقها على أرض الواقع كفيل بتجريدها من كل سحر..

طال صمت (أسيل) حتى شعرت أنني لربما مخطئ بتقديراتي، ربما هي بحاجة لصديق مؤنس فحسب، يحتوي لحظات تنفيسها لكربها، وكنت الشخص المرشح للمهمة العسيرة لولا رعونتي في الكلام، ولم أعد أعلم ما يتوجب علي فعله لإصلاح ما أفسده لساني الأحمق..

ابتسمتُ وأنا أؤرجح رأسي، فوضعت كفها على خدها معاودة تقريب وجهها من وجهي.. كانت الأوقات التي قضيتها معها كحكاية تروى، (أسيل) لن تمحى من فكري ومخيلتي بسهولة، فقد تشربت من روحي الكثير، وعلمت من الأسرار ما هو أكثر، كما أنها أشعرتني بأنوثتها برهافة حس لا يمكن وصفها إلا بالنسمة..

قلت لها قاطعا على نفسي تأملاتي:

- لِمَ تعودين يا (أسيل)؟ لِمَ تعذبينني بقول ذلك؟ قد نسيت ما كان بيننا بمعجزة..

- الحق معك، أنت لا تستحق العذاب بصحبتي، أظن رحيلي سيكون مناسبا..

ونهضت متظاهرة بالتماسك، فشعرت بقواي تخذلني..



أمسكت ذراعها قائلا بضيق:

- (أسيل) توقفي..

عاودت الجلوس فورا قائلة وهي تكاد تبكي:

- آسفة لإقحامك في خضم متاعبي، لكنني واهنة للغاية..

- بل آسف أنا لتصرفي كالمغفل، لكنني أريدك فقط أن تعلمي بأني هنا.. لأجلك!

مسَّت كفي بأناملها مبتسمة ابتسامة طفيفة، وعاودت النهوض مستعيدة الكثير من نضارتها وإشراقة تقاسيمها الحسناء..

- «(هايا)، تعالي يا حبيبتي..»..

خفت الصغيرة لتلبية نداء والدتها التي رمقتني بنظرة تساؤل خجول، وهي تبعد خصلة حريرية من شعرها عن عينها اليمنى..

- «لا تسيء فهمي أرجوك، لكن هل لك أن تعطيني رقم جوالك؟»..

- «لا أملك جوالا بالأساس!»..

- «أنت كما أنت! إذن أعطيك رقم جوالي، إياك ألا تتصل..»..

خطت لي الرقم بقلم حبر على قصاصة من علبة سجائرها، وناولتني إياها متمتمة بحبور:

- أشكرك!

هرشت شعري مداريا ارتباكي، قائلا ويدي تداعب خد طفلتها:



- اعتني بنفسك وبالطفلة..

قالت بلهجة ذات مغزى يسير الاستنتاج:

- إلى اللقاء إذن..

رفعت كفي باسما ذات البسمة التي وصفتها هي بالبهتان، وتابعتُ رحيلها مع طفلتها غير عالم بطبيعة ما أفكر فيه بالضبط، لقد استحالت الأفكار في رأسي إلى تشويش مؤلم غير مفهوم!

هل أرجع إلى عالمها الذي كان يمنحني الخدر اللذيذ في الماضي؟ حيز واسع من عقلي يطالبني بعدم تلبية نداء الفؤاد الزائف، الذي أوقعني في المصيدة ذات مرة وتعذبت بسببه، لكن ضعف (أسيل) الأنثوي كان قد هز وجداني بأسره، والآن أجد نفسي عاجزا عن اتخاذ ما هو مناسب، أتمنى لو كان بمقدوري مساعدتها إكراما لذكريات الماضي، فإن فعلت ذلك وجدت نفسي عالقا في شباك هواها من جديد، وذلك ما يجب عدم السماح به..

نظرتُ إلى القصاصة التي حملت رقم هاتفها وتحملها أناملي، ثم همست لنفسي:

- خطأ فادح، مؤكد أنه كذلك..

وما بين عازم وواهن، نجحتُ بدس القصاصة داخل بقايا القهوة في فنجانها بعدما قمت بتمزيقها..



38

كاد (جرير) أن يعرض عن باقي المذكرات، إذ تساءل عقله بدهشة ممزوجة بالاستهزاء: «ما هذا السخف؟!».

«كيف لهذا أن يكون ذا علاقة ب(ملاك) السفاح الجهنمي؟».

هذه مذكرات أقرب للرومانسية السوداوية، ولا تقول شيئا غير ذلك!

لكنه - وبدافع غامض - استمر بالمطالعة..

■ ■ ■

«من مذكرات (ع)»:

من جديد عاودني الشعور الرائع بالتحرر، ذات الشعور الذي انتابني عندما سمعت أن (أسيل) قد تزوجت..

نهضت كي أستأنف تدوين مذكراتي المملة في مفكرتي، حينما التفت إلى منضدتي لأجد شابا يرتدي السواد! جالسا هناك على المقعد الذي يخصني وبسمة ثقة غريبة تعلو ثغره..

كان وسيما، لا بل جميلا، كان جميلا كملاك لم يتلوث بعد بالعفن البشري.. جماله رجولي بحت، لا يمت للخنوع بصلة..عيناه كقطعتين من زبرجد خالص!

- «أحييك! كان قرارا في محله الصحيح، الاتصال بها لن يعيد شيئا..».

تساءلتُ باسما بشفقة:

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا جعلتني أقابلها بتلك الصورة شديدة البعد عن الحقيقة؟ أهو نوع من استرداد الكرامة لي، أم شكل من أشكال الانتقام؟

لقد أجلستني أنا هذه المرة على أريكة الطبيب النفسي!

ولذتُ بالصمت منتظرا سماع ما سيقوله..

- «إذا أردت انتقمت لك من كليهما!».

- «من تقصد بكليهما؟».

- «أعني (أسيل) و(مراد).. لا تخف، فأنا لن أجسر على مس شعرة من رأس (هايا)، فهي ملاك!»..

- «أشكرك!»..

الحالة التي كان يمر بها وصلت إلى أرذلها، ونفسيته لم تعد قادرة على الصمود، فقد نزلت إلى أعماق الحضيض..

لقد دبَّ اليأس في عروقه، ووجد القنوط السبيل إلى قلبه، وتلبسه الأسى.. ماذا يفعل بعد الفاجعة التي مُني بها؟ ماذا يفعل؟ قد ركبه حال كل من مُني بالفشل الذريع في الحياة، فبدأ يفكر بطريقة فردية بحتة..

هل يُعقل أن يكون هناك ما هو أكثر مأساوية من فقدان ابن؟ فلذة كبد؟! سؤال سيكون هباءً منثوراً، لكنه خامره بإصرار في عقله وقلبه..

ولكن من أنا حتي أحكم أن هذا صحيح وذاك خاطئ؟! بل كيف أعطي نفسي الحق في إلقاء الأحكام، وأنا أصلاً لا أعلم ما الداعي إلى العمل، أو الوازع الذي أدى به إلى هذا النحو؟!

في أعماقه السحيقة الحالكة ما هو أعمق من الشخصيات الأسطورية الجبارة.. ما هو أعنف من القتل وسفك الدماء.. الكرامة الإنسانية.. شخصية ذات أسى عميق تصرخ في أعماقه باستماتة: لي الحق في أن أعيش كما يعيش العالم المتحضر في النصف الآخر من العالم! لا تسألني كيف؟ ولكن لي كل الحق في ذلك.. إنه حق أقره لي الله، وإذا اختفى وجود الله في فؤاده وعقله، ظهرت الخرافات والجرائم المفزعة فيهما!

لـو أنه فيلم لجعـل المتفرج يركز علـى السـيناريو الداخلي لعقل البطـل وخواطـره.. حيـث يدعك تشـاهد المعطيات مـن وجهة نظر شـخصية خاطئة، وتتراكم تلك الخطايا إلى أن يصبح ذنبا عظيما، لم يكـن هـذا من باب العبث، لكن السـيناريو قد اقتنص قلب المشـاهد لمشـاهدة ما في نفوس أولئك الذين أخطئـوا، ليجعلك في حيرة مع ذلك الذنب العظيم، الذي يتراكب وشخصيات الذين كرهوا الجميع والجميـع كرههم مـع مرور الزمن، الإنسـان يخطـئ ولا يوجد عمر للتمييز ما بيـن الصواب والخطأ، ولكن إذا كنت ضحية ذلك الخطأ، فليس بيدك إلا اللوم الذي يدفع في نفسية الآخر الذنب، ليقتل النفس أو يعبث بها مع مرور الزمن !

لم يعد من حلم الآن، الأحلام كلها تلاشت.. ضاعت!

لم يتبق سوى الكوابيس المظلمة!

■ ■ ■

صـرخ عقل (جرير) برعب وبصره المتسـع يجري على السـطور الرهيبة جريا:

- «ماذا يحدث بحق الله؟!».

■ ■ ■

«من مذكرات (ع)»:

قيـل أن الخـلاص أحد أفضـل النمـاذج الهامة في وصـف القلق للنفـس للبشـرية، وتـم الاقتباس من روحـه آلاف حـالات الانتحار هربـا مـن خلق الإثـارة العصبيـة الواقعيـة، تلك مقومات لشـخصية مضطربـة وغير متزنة تلعب فـي داخله.. يقابلها في ظاهره شـخصية أخـرى تفـرز لنـا تلـك الخصائـص السـلبية المتمثلة فـي خليط من الطبـاع السـيئة والصفـات القبيحة والمسـتهجنة، ما يجعلـه مكروها مـن الناس، ومُبعدا – قسـرا– عن الاختلاط بهـم، أو أن يكون جزءاً منهم.. بالإضافة إلى كونه يشـكو من ضياع هويته، وفقدان إحساسـه وحماسـه وحيويَّتـه تجاه الحيـاة، حيث لا يعرف تماما مـاذا يريد أو كيـف يحققه.. فحياته أشـبه بالروتين القاتل الذي يسـيطر على نظام حياته، ويصنع منه شخصا باردا متصلبا وفاقدا للإحساس الشعوري، أو التجاوب الطبيعي مع العوارض العاطفية..

■ ■ ■

– «ماذا يحدث بحق الله؟!».

■ ■ ■

«من مذكرات (ع)»:

مزمـع الانتحـار أصبح عالقا في نقطة زمنية محـددة، لا منفذ منها سـوى بالخلاص الذي هيئه له عقله المضطرب، يكرهه أشـد الكره، ويظـل يعايش آثـار وتغيـرات واضطرابات تلـك النقطة المسـتمرة،

حتى يتحول تدريجيا نحو حالة اليأس والإحباط، التي تقوده نحو محاولات الانتحار المستميتة..

أحيانا يتراجع بعد بضع محاولات فاشلة، ولكن في حالة (جرير) بدا وكأنه لن يتوقف، فقد وقف على سور الجسر الممتد، ومن دون أن ينظر لأسفل ولو لمرة استعد لإلقاء نفسه بنية لا تتزعزع!

إن (جرير) – مع الأسف- بات مجرد شخصية أخرى هالكة لا محالة!



39

«من مذكرات (ع)»:

لم يحاول (ملاك) فهم واستيعاب السبب الذي قاد إلى كل هذا عندما قاد ذاته للنهاية..

ولكن، وبعد تعرفه على (جرير)، صار يسأل ذاته التي كاد يسلبها بيديه: لماذا ذهبنا؟ وعم نبحث؟ وعن أية حرية نتحدث؟

وما يبعث على الأسى أنه خلص إلى نتيجة مفادها أن ما يحدث ما هو إلا العبث، العبث بذاته.. حين يغرق الإنسان في مستنقع الظلمات، وتتلاشى أخلاقه وقيمه بشكل مفزع، في ذلك المستنقع حيث الغبش في الرؤية، والانعدام المطلق لمفاهيم الخير والشر، حيث تُظلِم الإنسانية ويصير ابن آدم أقرب إلى ابن آوى، بشهوانيته، بوحشيته وتوقه للقتل وارتشاف الدماء، بل هو يفوق الحيوان في مسألة أنه يقتل بلا سبب، فقط هكذا، مجرد عبث..

(ملاك) أراد البحث في الذات الإنسانية، أراد الغوص فيها لتأمل الغموض الذي يكتنفها، ذلك الغموض الساحر الذي يجعلها تنقلب

فجأة من الوداعة والبراءة إلى البشاعة والوحشية والشناعة، هي حيرة شديدة وألم عميق، تولده هذه الحقائق التي تتكشف لحظة عقب لحظة لدى الاقتراب من فهم هذه الذات..

لأجل ذلك خلق لنفسه عوالم كابوسية مروعة، ابتداءً بولادة جديدة وانتهاءً بمصادقة الآلية الدفاعية التي أسماها ب(جرير)! استعان بها وقد امتلك كل الحق في إنهاء حياتها في الوقت الذي يحدده، لن تدينه أية محكمة لقتله شخصية من وحي خياله، ساعدته أنا على ابتكارها كمسعف له! «ميكانيزم» كصديق آخر يستمع إليه في الليالي الحالكة، كبئر يحوي جميع أسراره المظلمة، وتمكنت من إقناعه بترك تلك الشخصية النبيلة أطول فترة ممكنة، كي يتوقف القتل في عقل (ملاك) الجهنمي كعلاج من نوع جديد!

لو أنه فيلم إنساني سوداوي لعرض لك إلى أي درجة يمكن أن تبلغ التعاسة في هذه الحياة، ومدى الأسى الذي قد يعيشه الإنسان وحيدا في كل يوم دون أن يُظهر ذلك، الواقع من الممكن أن يكون مظلما، بسبب ارتكاب ابن آدم لخطيئة محرمة تخالف عقيدة البشر الخالدة.. القتل! ما الذي يفرق لو كان عمره شهرا أو ثلاثين عاما أو حتى مائة؟ مازالت تُعتبر أكبر وأعظم الخطايا التي وقع بها البشر في حياتهم، مذ قُتل (هابيل) على يد شقيقه (قابيل)!

هذا ما سنشاهده في كثير من مشاهد الفيلم المبتكرة، ولعل الأنسب التطرق لذلك المشهد الذي سيجعل المشاهد على أعصابه، حيث يشعر بثقل العالم كله على كاهله، كل هذا بسبب



ارتباطه بالشخصيات والأحداث، فعلى مدى تعاسة الفيلم، ودراميته العميقة، لن يرى دموع شخصيات تتألم بهدف توصيل المشاعر بشكل مباشر، بل سيشعر هو بالألم الذي يشعرون به، سيشعر بالدموع التي لم تخرج منهم بعد، سيشعر بكل ما يشعرون به، ولربما ما لا يشعرون به، ومن هنا تكمن فكرة الفيلم الإنسانية، عن طريق قصة طويلة وقاسية تضرب على أوتار النفس البشرية بكل شجن..

يكتمل هذا الكمال بطاقم التمثيل المذهل، بداية مع (جرير)، الذي ما إن تراه وترى عينيه حتى تشعر بغضبه وأساه المتفجران بصمت، وانتهاءً بملاك، الذي رأى حقيقة هذا العالم الماضي على عجل نحو الدناءة..

إن (ملاك) لهو أخطر سفاح في عالمه الخاص! ضحاياه بالعشرات! بالمئات! يتساقطون بأبشع الطرق في ذهنه الملتاث، فكان لابد لجرير من التدخل قبل أن يتحول (ملاك) نفسه إلى ضحية أخرى!

■ ■ ■

«من مذكرات (ع)»:

لقد تحول صراع (جرير) مع من حوله إلى صراع الإنسان الأزلي مع قوى الحياة الخفية بأسرارها ومضامينها وتقلباتها، والغوص الدقيق والعميق في نفسية شخصية تستعد للموت بكل ما تكنه من

مشاعر واضطرابات شـديدة الهيجان، تثيرها حقيقة العالَم المجهول الذي ستقبل عليه لتتابع فيه الذكريات واللحظات التي ترسم الماضي كأنشـودة صافيـة النغـم، أو حلم هـادئ يجعـل الحياة مرتعـا خصبا للسـعادة والاطمئنـان.. كل تلك التضاربـات والانعطافات بدون أن تنبني على حبكة ما، حيث الأحداث المتتابعة، أو طريقة سردية معينة فـي رواية.. ظاهرة بكل تهيجاتهـا واضطراباتها وتعقيداتها، بدون أن تتحكـم بها المعايير المعهودة فـي القصص.. وأن تكون الصورة هي المتحدث الرئيسي الذي يتولى عملية رواية تلك المأساة، بما تحمله من مشـاعر متضاربة وفلسفيات متناثرة وأحزان متقدة.. كأنها قصيدة شـعرية ملحميـة لـم تخـط بحـروف.. وإنمـا بمجموعة مـن الصور والتأمـلات واللحظات، التي تسـتطيع أن تُـظهر لنا – وبكل صدق- حقيقة تلك المشاعر الإنسانية المتضاربة بدون تزييفها.. وأن يتعايش المرء معها كجزء لا يتجزأ منها، وأن تستطيع ملامسة روحه ومشاعره بعيدا عن منطقيته أو عقلانيته.. إنها رحلة شاعرية روحية تأملية قاسية في أعماق الروح البشرية..

كان يجب أن يكون (جرير) سـجانا، وكان يجب أن يكون كذلك شـاعرا، والأهم من ذلك كله، أن يكون متسما بصفات لا تمت بصلة إلى (ملاك)..

لكن الكرة كانت دائما وأبدا في ملعب (ملاك)..

كيف لا وهو المسيطر الفعلي على عوالمه الخاصة والمخيفة؟



«نهاية المذكرات.......».

■ ■ ■

خرج (جرير) مندفعا من القبو، صعد السلالم مستنجدا بالمشرفة، فوجد نفسه في مكان يختلف كلية عن الذي ولجه.. ممر جدرانه مزدانة خربشات هزلية وعبارات جنونية عجيبة، وباب خشبي عليه رسمة وجه أبله بعيون حولاء!

اقتحم أحد الأبواب بفزع هائل.. فوجد حماما جميع مراياه شبه محطمة، والكتابات على كل جدار وزاوية، واحدة كانت تقول: «سأفعلها في جوف المدير ال..!»..

- «هل أصبتُ بالخبل أخيراً؟!».

دنا من المغسلة، وطفق يرمق مرتجفا صورته المنعكسة على بقايا المرآة المكسورة والمعلقة أمامه..

تناهى لمسامعه صدى لحن كلاسيكي انبعث بغتة، فبدا مألوفا لحد غير منطقي!

- «مستحيل!».

وخرج باحثا عن المشرفة، عن المرضى، عن أي كائن حي، فلم يجد!

إذن.. من الذي شغل تلك السيمفونية المخيفة؟

صار خارجا، تحت سقف من الغيوم الداكنة، وقبالة أسوار تدور حول البناء الكبير والقديم الذي خرج منه توا، تبدى شبه دائري، تم طلاؤه بدهان حليبي بهت وتشقق مع مرور الزمن وتقلبات أجوائه، فاستحال رماديا مقبضا.. النوافذ كثيرة، وأكثرها مزود بقضبان حديدية ذات تصاميم زخرفية عادية، وثمة مزرعة غير مبهجة قريبة من المبنى..

- «لدينا زريبة كذلك، لكن ليس فيها حيوانات كثيرة!».

نظر للوراء ببطء.. فأبصره أخيرا..

كان الملاك الجهنمي واقفا بذراعين مفرودتين، يرتدي سوادا في سواد، سترة جلدية وسروالا جلديا، وكانت عيناه تبرقان كقطعتين من الزبرجد الأخضر الخالص! كما لو كان ضبعا يرتاد الظلام ليخيف ضحاياه بمقلتيه!

- «أهذا هو المكان؟»..

كذا همس (جرير) شاعرا بالوهن.. فاتسعت بسمة (ملاك)!

- «وهل ترى مكانا غيره؟»..

- «وكيف تتوقع من المريض الشفاء في هذه الإقطاعية؟»..

- «أنت لا تعلم كم هي المظاهر خادعة!»..

- «ماذا تعني؟ أن الفردوس بالداخل؟»..

- «ليس إلى هذا الحد بالنسبة لنا، لكنه كذلك بالنسبة لهم!»..

تأمل (جرير) البوابة شاعرا بانقباضة عنيفة بين أضلاعه.. الأشجار غير المثمرة متكاثفة على جانبي الطريق المؤدي إلى هذا

المكان المخيف، مقر شبه منعزل، كما لو كان حصنا أو مصنعا لمواد كيماوية..

بحث عن المتاع، عن المدية والمسدس..

- «لا حاجة لك بهما بعد الآن..»..

المدية باتت في قبضة (ملاك) اليمنى، والمسدس في اليسرى!

بدا ألمٌ في محيا (جرير) وهو يرمق تقاسيم (ملاك) الجامدة، كان يعلم بما انتوى فعله معه، لكنه قرر ألا يقاوم..

أتراه يملك خيار المقاومة أصلا؟

صوَّب (ملاك) فوهة المسدس إلى صدر (جرير)، وبتهدج متقطع همس:

- لقد كنتَ.. أفضل صديق.. لي!

- «أعلم.. هذا!»..

انبثق صوت الطلقة كقصف الرعد لشجرة وحيدة..

تهاوى (جرير) أرضا وهو يشهق.. كان يعلم جيدا أن هذا ما سيقوله (ملاك).. كان على علم بكل ما كان (ملاك) سينطقه أو سيفعله..

وعندما دنا (ملاك) والخيوط الضبابية تحيط به كسريان سريالي حثيث الخطى، وثبت بغتة كلمة وحيدة في ذهن (جرير)، فكان يعلم تماما من قائلها ولِمَ قالها..

- «أحبك!»..



الزنزانة رقم 446



446

لم تكن هنالك أسوار تدور حول البناء الكبير والقديم، وقد تبدى شبه دائري، تم طلاؤه بدهان حليبي بهت وتشقق مع مرور الزمن وتقلبات أجوائه، فاستحال رماديا مقبضا.. النوافذ كثيرة، وأكثرها مزود بقضبان حديدية ذات تصاميم زخرفية عادية، وثمة مزرعة غير مبهجة قريبة من المبنى..

دار الحوار التالي بين شخصين داخل سيارة منطلقة:

- «لدينا زريبة كذلك، لكن ليس فيها حيوانات كثيرة..».
- «أهذا هو المكان؟».
- «وهل ترى مكانا غيره؟»..
- «وكيف تتوقع من المريض الشفاء في هذه الإقطاعية؟»..
- «أنت لا تعلم كم هي المظاهر خادعة!»..
- «ماذا تعني؟ أن الفردوس بالداخل؟»..
- «ليس إلى هذا الحد بالنسبة لنا، لكنه كذلك بالنسبة لهم!»..

كانت الأشـجار غير المثمرة متكاثفة على جانبي الطريق المؤدي إلى هناك، مقر شبه منعزل كما لو كان حصنا أو مصنعا لمواد كيماوية..

أخيرا، بلغت السيارة البوابة العملاقة، فعبرتها بعدما قام الحارس بفتحهـا، ومضـت حتـى توقفـت أمـام المبنى مباشـرة، فترجـل منها ثلاثيني أشـيب الشـعر - رغم أنه لا يزال شـابا!-، يحمل حرقا قاسيا فـي الجهـة اليمنى من منطقتي الخـد والذقن، قال مداعبـا وهو يرفع نظاراته الطبية لتصير معلقة فوق جبهته:

- أرجو ألا تعبث برأسي مستخدما أداة حادة!

- اطمئن يا دكتور..

وترجل السائق بدوره، كان رجلا في أواخر الخمسينات، ومع هذا كان متين البنية، لحيته رمادية كثة، ويرتدي نظارات طبية وكذلك حلة باهظة الثمن، وقال ممازحا وهو يؤمن أبواب سيارته بزر المفتاح:

- إذا كنت خائفا فبإمكانك الرحيل!

- لنرى ما تخفيه هنا..

ومسح الأرجاء والأجواء ببصره لثوان، سأل عقبها السائق:

- والدك من قام ببناء هذا المكان؟

- بل اشـتراه، أنت لم تخطيء حينما وصفته بالإقطاعية، فقد كان كذلك قبل مضي سـنين عديدة.. ويقـال أنها كانت ملكا لأغا يهودي الأصل!



- ممن اشتراه؟

- من وريث لا تهمه سوى المادة..

تبسم الشاب الأشيب قائلا بتهكم:

- أوليس هذا حالنا جميعا؟

- هلم بنا..

سارا نحو المدخل.. هناك وقف باستقبالهما رجل مسن صلب اللحم والهيكل العظمي، كان بشارب ثلجي غزير وشعر رمادي خفيف كالإبر، وعلى ساقه اليمنى راح يعرج عرجا طفيفا..

- «كيف تسير الأمور يا (دكاش)؟»..

- «بخير يا دكتور (مرتضى)، مرحبا بعودتك..»..

أشار الممتلئ إلى ضيفه الشاب قائلا للحارس:

- الدكتور (عبد الرحيم)، جاء لمعاينة واحدٍ من مرضاه السابقين الذين تم نقلهم إلينا مؤخرا.. مريض غرفة رقم 446؟

- أهلا وسهلا به..

قالها الرجل المسن وهو يرمق ضيف سيده بنظرة صامتة، في حين قال له الممتلئ آمرا:

- سأصعد إلى مكتبي لبعض الوقت، أريدك أن تريه المكان، وعندما تفرغان أوصله إلى مكتبي..

- كما تشاء..

تركهما ليلج المبنى، فسـار (دكاش) بخطاه الحثيثة بفضل عرجه، يتبعه الدكتور (عبد الرحيم) الذي قال:

- مكان يقشعر الأبدان!

- أكيد! يبدو وأنك أرغمت على المجيء..

- قطعـا لا! فقط آخذ فكرة عن المصـح العقلي ومرضاه وطرائق علاجه، تفقدا لصالح مريضي الذي جئتُ لزيارته!

- متزوج؟

- مطلق ولدي طفلة..

- كان الله في عونك!

اسـتخرج (عبـد الرحيـم) محفظتـه، وبأريحية تنـاول منها صورة فوتوغرافية ناولها لدكاش، الذي أمعن النظرة في الصورة بصمت..

- «طفلتي الحلوة (هايا)!»..

- «(هايا)؟ هل قلت (هايا)؟!».

- «اجل.. ماذا في ذلك؟!»..

- «لا.. لا شيء!»..

ثم قـال (دكاش) معيدا الصورة لصاحبها وهو يبصق البلغم الذي حشده في فمه:

- اسألني منذ متى أعمل هنا..



- منذ متى؟

أخرج علبة سجائره القديمة من جيب معطفه الرث الكحلي، هامسا كأنه ينشد:

- سبعة وعشرون عاما!

- فناء عمر..

- وساق! أولاد ال.. تسببوا لي بالعرج المؤلم.. سيجارة؟

- شكرا، لا أدخن..

- أتدري ما الاسم الذي يطلقونه على المكان؟ «هوة الظلال»!

- اسم شاعري..

- أتمزح؟ إنه يثير الرهبة في النفوس..

- من تكون تلك المرأة؟

كانت جالسة على العشب المائل للاصفرار، ناظرة للأفق بعيون لا تكاد تبصر، ترتدي السواد وتتحجب به..

بدت خرساء بالغة المرض نفسيا وجسمانيا، وعلى عينها اليسرى تهدلت خصلة فضية خشنة..

ردَّ (دكاش) على تساؤل (عبد الرحيم) وهو يجاهد لإيجاد قداحته داخل أحد جيوبه:

- اسمها (أسمهان)، لا تغرنك سكينتها الظاهرة فقد ارتكبت جريمة..



- ماذا صنعت؟

- أمرا رهيبا.. معك ولعة؟

- لا، لا أدخن..

- تبا لكل شيء، الزريبة من هناك..

- ألن تخبرني؟

- الفضول يا بني قد يقتل القط!

- لا تؤججه بتلك الصورة إذن كي تحكي لي بعدها عن القطط الفضولية!

توقف عن سيره متعرج الخطى، ونظر للوراء كأنه يخاف أن تسمعه المرأة، ثم قال بصوت خفيض:

- هي حكاية رهيبة، حدثت أيام كنتُ لا أزال محتفظا بالقدر الأكبر من رمقي، فمنذ وفاة زوجها وهي تتصرف بغرابة حسب أقوال معارفها، كل من رآها عقب الجنازة حسبها تمثالا لا كائنا حيا..

في يوم من ذات الأيام ذهبت إلى دار للأيتام، وتكفلت بأخذ طفلة لرعايتها كما لو كانت ابنتها، فقد كانت المرأة بحاجة للأمومة، أو أن ذلك ما تراءى للجميع يومئذ..

ما أثار حيرتهم بعد ذلك أن المرأة دأبت على الخروج دون اصطحاب الصغيرة معها، لم يحدث أن شاهدها أحد في الحديقة تلهو حتى، شكك بعضهم بأن تكون الطفلة موجودة أصلا، وبأن

حكاية الملجأ ملفقة من قبل الجيران أو المعارف استدرارا للشفقة على المرأة، في حين عزا البعض الآخر عدم تمكنهم من مشاهدة الطفلة إلى أن المرأة تخاف عليها لدرجة الخبل من الموت الذي خطف روح زوجها في حادث سيارة مروع!

وقد أكد كذلك فتية الحي مشاهدتهم للطفلة يوم أحضرتها الأرملة من الملجأ، فقرروا خوض مغامرة متهورة لتفقد المنزل بعد خروج المرأة للسهر، ويبدو بأن ثمة نافذة يسهل فتحها بالنسبة للأشقياء الشجعان.. أتعلم علام عثروا؟

على الطفلة التعسة تئن بين جدران قبو المنزل! كانت قد صارت جلدا على عظم، وقد فقدت القدرة على النطق تماما، فسارعوا إلى إخراجها وإبلاغ الشرطة باكتشافهم المروع..

تقرير كل من الشرطة والمستشفى أكدا مدى قسوة (أسمهان) وجنونها السادي.. كانت تعذب الطفلة بالحبس والتجويع، لم تكن تقدم لها سوى الماء القراح والخبز الجاف، لكي تزيد من أيام عذاب الطفلة التي توفيت في المستشفى..

قال (عبد الرحيم) ذاهلا:

- أنت تمزح، ويأتون بها عندكم؟

- دواعي الجنون يا سيدي، ثم انها سيدة مجتمع مرموقة، والقانون هنا بنصف عقل..

عاود (عبد الرحيم) النظر إلى المرأة الساكنة متسائلا بتعجب:

- وتدعونها هكذا دون رقابة؟

- في هذا المكان الخلاب لا نحتاج لمراقبة قاتل مجنون طليق!

قالها بتقريرية ذات غموض مثير للتساؤلات، معيدا سيجارته لجيبه بعد أن يئس من إشعالها..

■ ■ ■

وهنا سمعا صوت خوار آتٍ من الزريبة..

كانا يتوجهان إلى هناك بالفعل، ولما دخلاها وقع بصر (عبد الرحيم) على ثور هزيل مصاب بالبهاق..

- «وها هي ذي حكمة اليوم!».

وأشار (دكاش) إلى الجدار المواجه لهما، حيث دوِّن عليه بلون أحمر مخضب: «لا تركب على ظهر الثور المربوط في الحظيرة، لأن الشيطان يرقص بين قرنيه!».

نظر (عبد الرحيم) إلى (دكاش) متوجسا، فدمدم الأخير وهو يهرش قفاه كالجربان:

- مكتوبة بالدم..

- دم من؟!

- دم الثور، ألم تلحظ إصابته البالغة؟ لقد تسبب فتى نزيل عندنا بهذا!

بالفعل كان هنالك جرح قديم بشع في عنق الثور الذي يلوك التبن بتمهل ورأسه مطرق للأرض، فتساءل (عبد الرحيم) متعجبا:

- أتعني أنه حاول ذبح الثور؟ ولِمَ يحاول شيئا كهذا؟ أكان يمارس طقوسا من نوع ما؟

- مجرد فتى مجنون، لطالما هاج وماج لأهون الأسباب وأتفهها..

وبصق متقززا بصقة سوداء كريهة مكملا حديثه المقبض:

- وهذه الزريبة موضع شؤم، فقد شنق من أحدثك عنه نفسه هنا!

اضطرب بصر (عبد الرحيم) مطالعا بنفور أرجاء المكان، في حين استرسل (دكاش):

- زوج والدته أرسله لنا.. من يدري؟ لربما كانت مجرد حجة لإبعاده كي يخلو لهما الجو، فالفتى لم يحظ يوما بزيارة واحدة من والدته مذ قدم إلينا، حتى عقب انتحاره لم تأتِ لرؤية جثته ولم تطالب بها.. هل تصدق هذا؟

- مسكين.. ولماذا دوَّن هذه العبارة المزعجة؟

- الله أعلم!

- ولماذا بقيت الكتابة لغاية الآن؟

- الدكتور صاحب المصح أمر بإبقائها رغم أن هذا فأل سوء..



- ولكن لماذا؟

- سأطلعك على سر متعلق بالدكتور (كاشاني) ووالده، إنهما لم يكونا يوما من الرحماء، فقد تعاملا مع هذا المكان كما لو كان متحفا من نوع ما، أحيانا يحضر إلى هنا طلبة طب وأحيانا أخرى سياح! والكل يدفع بسخاء لرؤية أمور شنيعة كمختلي العقل!

- أتعني أن مدير المصح إنسان سيء؟

- أعني أنه ليس بإنسان على الإطلاق!

- كيف ارتضيت إذن العمل معه ووالده من قبله كل تلك الأعوام ما دام الوضع لا يروق لك هنا؟

- أتريدني أن أنام في الشارع من دون سكن أو لقمة عيش؟ قطع الأعناق ولا قطع..

- الحق معك.. طبعا لا.. هل نرى المبنى الآن؟

خرجا من الزريبة ليجدا السماء مكفهرة المزاج رغم أنه الصيف، لكن (عبد الرحيم) لم يفكر بذلك وهو يسأل مرافقه المسن:

- كم عدد المرضى هنا؟

- حوالي عشرة! نتدبر أمورهم بكثير من العسر في الواقع..

- عشرة فقط؟

- نحن لا نضم سوى النخبة كما سترى..

لم تكن المرأة (أسمهان) في مكانها الذي كانت جالسة فيه عندما ولجا الزريبة، فقال (عبد الرحيم) متهكما:

- لقد هربت!

- بل عادت إلى حيث حجرتها في الطابق الثاني..

- وكيف تعلم يقينا بأنها لم تهرب؟

- لا أحد يهرب، لأن لا أحد - ببساطة- يحاول الهرب!

- أمر باعث على الاستغراب..

- معك حق، يتعاملون مع المكان وكأنه منزلهم، كالعصفور الذي تربى داخل قفص بابه مفتوح طوال الوقت، لكنه لا يحاول الهرب لأنه لا يستطيع تدبر معيشته في العالم الخارجي، فقد اعتاد أن يرعاه أحدهم.. هؤلاء يتصرفون أحيانا وكأنهم ليسوا مجانين!

ثم عاود البصق مدمدما:

- ولكن لكي أكون صريحا معك فقد حاول أحدهم الهرب ذات مرة..

- أرأيت؟

- أجل.. مريضك يا دكتور الذي أتيت لأجله، في الزنزانة 446.. إنه..

- زنزانة؟!

تجاهل (دكاش) استنكار الدكتور متابعا:

- إنسـان غريـب، ولـو شئت الصدق أجـده أكثر المرضـى إثارة للرهبة!

- ألهذا الحد؟

- وأكثـر! قبـل أن نحبسـه كان يقـوم بزيـارات ولا أغـرب داخل وخارج المصح كما لو كان يستكشفه، يستنطق المرضى أو يستجوبهم بالأحـرى، يزحـف كما لـو كان في نفق، يتسـلق كما لـو كان يحاول التسلل، يحفر كما لو كان يحاول دفن شيء بحجم جثة كاملة، يصرخ في فزع عندما يلج الحظيرة، يخرج للغابة في رحلات ليلية الله أعلم بسـرها وهو يضم بقبضتيه معـا، ومصوبا بسـبابتيه المضمومتين كما لو كان يشهر مسدسـا بمواجهة خطر مجهول! وأحيانا يطوح بقبضته كمـا لو كان قابضا خنجرا أو مدية! ويهبـط للقبو ليتصفح أوراقا بالية فارغة كما لو كان يقرأ كتبا! ويتصرف كما لو كان يقطن عالما آخر لا يمت بصلـة لعالمنا هذا! وفي كثير من الأحيان أراه يحادث شـخصا وهميا كما لو كان يقف بمواجهته! والغريب أن جميع المرضى كانوا يسـتجيبون له وكأنهم في مسـرحية لعينـة ما، يحادثونه كمـا لو كانوا يحفظون نصا عن ظهر قلب!

- ولا زال هاربا؟

- لا طبعـا! الأسـبوع الماضي أعـادوه، إنه الوحيـد الذي يحظى بحجـرة مقفلـة بإحـكام الآن، بيني وبينـك يبدو كمـن ارتكب جرما رهيبا لا يغتفر..



- مثل المرأة (أسمهان)؟

- لربما أفظع! تصور أنه يحسبني حارسا في ملجأ لدار الأيتام؟ بل إنه كاد يخنقني انتقاما مني وممن تدعى.. (جميلة)! أو (جليلة)؟ الله أعلم! والسبب طفلة اسمها.. لا عليك! لابد وأن عقله متضرر بشدة يا دكتور، وبصورة لم أرها في مريض من قبل!

ثم تساءل بفضول جارف:

- ماذا صنع؟

تبسم (عبد الرحيم) مجيبا بعبوس:

- أولم يقتل الفضول القط؟

■ ■ ■

بلغا المدخل حيث الباب الخشبي ذو الطلاء الأبيض الباهت، ففتحه (دكاش) وبسمة غير مريحة ترتسم على شفتيه..

كان البهو واسعا قليل الأثاث وغير نظيف، وشعر (عبد الرحيم) برئتيه تتنفسان بصعوبة بعض الشيء من الغبار المنتشر..

اتجه (دكاش) وهو يعرج بإنهاك صوب الدرج الرخامي، فاستند على «الدرابزين» المعدني قائلا:

- ألن تصعد؟

- إنني خلفك تماما..



اقتاده للطابق الأول قبل أن يلتفت له بغتة..

- «هل أنت من النوع الصلب؟»..

- «أظن ذلك؟»..

- «سنرى إذن!»..

وهنا ارتفع صوت الموسيقى..

بلغا تلك الحجرة، ومن فرجة الباب الضيقة لمح (عبد الرحيم) مذياعا أسودا على كرسي..

همس (دكاش) بحذر:

- تسلل لكن برفق..

- ولماذا تريدني أن أصنع ذلك؟

- من الممتع أن تكون مغامرا في بعض الأحيان!

- يا للحمق!

ورغم ذلك قرر أن يكون أحمقا ويتسلل إلى داخل الحجرة بسبب فضوله، فقام بدفع الباب الذي لم يصدر أي صوت لحسن الحظ، لكن رائحة كريهة أفعمت أنفه وهو يدخل ببطء..

على ضوء شمعدان، وأمام مدفأة كهربائية وهاجة، جلس رجل عجوز على مقعد مريح موليا ظهره للباب، ولم يظهر عليه الشعور بدخول أحدهم حجرته..

اقترب منه (عبد الرحيم) هامسا بأدب:



- أسعدت مساء يا عماه..

بقي الرجل صامتا.. بين قدميه هر رمادي، وقد كان يغط في نوم عميق بينما ذيله يتحرك هنا وهناك لاشعوريا!

- «يا عم، يا سيد..»..

هز كتف الرجل برفق داعيا ألا يكون قد مات..

أخيرا، أظهر لمحة حياة عندما اهتز بدنه قليلا، من ثم رفع رأسه بتثاقل ليواجه به هذا الزائر الغريب الذي اقتحم عليه خلوته، ويقف الآن راسما البراءة على وجهه بعد أن قام بإيقاظه من قيلولته!

كانت ردة فعل الكهل عاتية، إذ شحب وجهه بصورة مروعة، ثم هبَّ واقفا وقد طار كل أثر للنوم من عينيه وهو يصيح:

- ماذا تفعل هنا؟!

- أنا كنت..

- كيف دخلت يا مأفون؟!

وبدا كأنه سيجهش بالبكاء حين صاح كالممسوس:

- ستدمر كل شيء!!

وبثورة زائدة عن حدها نهض ليدفع بالدكتور، حتى لكاد بأن يتعثر بالهر.. حاول (عبد الرحيم) قول شيء، أن يفسر موقفه، أن يتشاجر مع الرجل..

ويواصل الكهل صراخه المهتاج:



- أخرج عليك اللعنة.. أخرج!!

وهكذا وجد الدكتور نفسه يطرد شر طردة من الحجرة، وسمع ضحكا لا يكاد يتوقف من (دكاش) الذي تأمله قائلا بسخرية:

- لقد أحسنت التصرف معه حقا.. هل شممت رائحة حجرته؟ كأنها مكب نفايات!

- من واجبكم عدم تركها هكذا..

- إنها أوامر مدير المصح، الجميع هنا أحرار كمجتمع ديموقراطي!

- يا له من طبيب بارع!

وقبل أن يرحلا، أشار (عبد الرحيم) لباب العجوز الانطوائي متسائلا:

- - ما قصته؟

- هو يقدس الوحدة بصورة مبالغ بها، وينصت طيلة الوقت لتلك الألحان التي أكل عليها الدهر وشرب..

- أهذا كل ما تعلمه؟

- ليس من الضروري أن تكون هنالك قصة، هو شخص مختل يحاول الظفر بنوم هادئ!

- فقط؟ كل هذا من أجل نوم هادئ؟

- ربما وربما لا! ثمة حكاية لم تدخل رأسي، وهي أن الرجل مسئول كبير ومليونير مرموق، لكنه نال كل ما يملك عن طريق تقديم ابنه قربانا للشيطان!

- شيطان؟!

- لست راو للحكايات، أنا أنقل فقط ما أعرفه ممن يحضرونهم إلى هنا.. وهذا هو طريقنا إلى حجرة رفيقك المدير..

تبعه (عبد الرحيم) بصمت.. رأى خربشات هزلية وعبارات جنونية عجيبة تملأ جدران الممر، هنالك باب خشبي عليه رسمة وجه أبله بعيون حولاء!

قال (عبد الرحيم) متهكما وهو يتمعن بتلك القطع الفنية المميزة:

- يا له من مصح ويا لها من وسيلة للتعامل مع مرضاه!

- ألا تظنها خطوة سليمة يا دكتور؟ المهم أن أحدا لا يحاول أذية آخر، وإذا قام بأذية نفسه فتلك حرية خاصة!

- أخشى أن هذا لا يناسب مريضي..

نظر (دكاش) للدكتور متسائلا بفضول:

- ما حكاية مريضك ذاك؟

- حكاية طويلة..

- هلم يا رجل!

- يبدو وأن حكايات المجانين تفتنك! أأنت الدليل السياحي هنا؟



تبسم (دكاش) متجهما، فتنهد (عبد الرحيم) مردفا:

- مجرد مهندس زراعي عانى من طفولة مريرة مع والدته المخبولة عقب انتحار والده الذي ثقل كاهله بالديون، كانت تنطح رأسه بأي جدار أو قطعة أثاث بكل مناسبة، ذلك قبل أن تدعه وترحل، لكنه تابع حياته بنجاح لا بأس به حتى كبر وتزوج وأنجب، وعندئذ أتت الطامة الكبرى.. توفي وحيده باللوكيميا، فصار الرجل حطاما، ولم تحتمل زوجته (نرجس) - التي تأقلمت سريعا مع موت وحيدهما- الحياة معه أكثر فطلبت الطلاق.. كانت ذكراها لا تزال تؤرق ذهنه.. أخبرته يوم توقيع أوراق الطلاق أنه رجل مشوش الذهن، أثرت في عقله وفاة ابنهما الوحيد بأكثر مما أثرت فيها هي، وهي تخشى كثيرا أمثاله من الذين يتغيرون هكذا عقب صدمة كالتي حدثت، فيصيرون بعدها هائجين إلى حدٍ مخيف لأهون الأمور وأتفهها! ربما كان بحاجة لفترة أطول للتأقلم بعد وفاة وحيدهما، ولربما بالغ عندما انكب على فعل أشياء تبدت غريبة ومزعجة بالنسبة لزوجته، كترك وظيفته القديمة التي كان ناجحا فيها بحسب رأيها!

بعدها ابتدأت محاولاته الجاهدة للانتحار، ابنة الجيران المراهقة (لَمَة) قالت أنها أبصرت مسدسا على منضدته عندما ذهبت لاستعارة خلاط منه، وقد زاد شكها لما أعطاها مبلغا من المال، وكأنه بذلك يستعد لإنهاء متعلقات حياته كي يرحل عن الدنيا بصمت!

أصدر (دكاش) صوتا قبيحا قبل أن يقول باستهزاء:



- قصة عادية للغاية!

رمقه (عبد الرحيم) بنظرة طويلة قبيل غمغمته:

- لكنها لم تنته عند ذلك الحد..

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- أين دورة المياه؟

توقف (دكاش) كأنما بوغت بالسؤال..

- «آخر هذا الممر، الباب الخشبي الذي عليه رسمة وجه بعيون حولاء..».

خفَّ إلى هناك متظاهرا أن مثانته تضايقه، فما إن بلغ الباب المنشود حتى دفعه ليدلف متمهلا.. كانت جميع المرايا شبه محطمة، والكتابات على كل جدار وزاوية، ووجد واحدة تقول: «سأفعلها في جوف المدير ال..!».

- «لم يكن الذي كتبها مجنونا تماما!».

دنا من المغسلة، ومن المياه الباردة بلل وجهه، ثم طفق يتأمل بصمت صورته المنعكسة على بقايا المرآة المكسورة والمعلقة أمامه..

كان هذا عندما انبعث صدى فخيم لسيمفونية ما تتردد في الأرجاء..

■ ■ ■



هناك، وأمام الغرفة – أو الزنزانة– رقم 446 وقف..

نظر من خلال الفتحة على الباب، فلم يلمح سوى العتمة الدامسة، ولم يسمع سوى صوت تصفير يماثل زقزقة العصافير..

فجأة توقف التصفير، وانبعث عوضا عنه الصوت الرخيم من الظلمات:

– «كائن حي يتألم بعمق في هذه الشوارع المظلمة، ألمٌ يفوق تأوهات المدمنين حين تمزقهم الحاجة الجنونية للمخدر، وأنين المشردين، وصياح الضحايا قبل إغماد نصل السكين في القلب أو النحر!

أوليست سيمفونية الموت أعذب حتى من السيمفونية السابعة لبيتهوفن؟»..

أجاب (عبد الرحيم) باسما بشفقة:

– لديك أذن موسيقية بحق.. تلك سيمفونية (بيتهوفن) السابعة فعلا!

– «الحركة الثانية.. في سُلم «لا» الكبير!»..

– بالضبط! لكنها للأسف لا تلائِم نفسيات نزلاء المكان..

– «نزلاء المكان؟ أنت لطيف حقا يا دكتور! بالفعل مشكلتك – كما أخبرتني بالماضي– هي الإكثار من الإنصات!»..

– ربما.. جدتي قالت بأن مسحة من وحي الثقة..



- «تتسلل إلى وجدان من يجالسك، وبذلك يفتح لك مكنونات فؤاده!»..

- ذاكرتك قدت من فولاذ!

- «كيف طفلتك (هايا) يا دكتور؟»..

- بخير، شكرا لسؤالك..

- «وطليقتك (أسيل)؟ هل لا زالت في كنف (مراد) الوغد؟»..

- ومن (مراد) هذا أيضًا؟!

- «لابد وأنها غلطتي.. إنها الذاكرة عندما.. عندما تخالطها بعض المخيلة!»..

- لا عليك.. يمكنك اعتبار ذلك جزءاً من علاجك! ما أخبار (جرير)؟

- «(جرير) انتهى.. مثلي تماما!»..

- «بل هو شخص يستطيع التحمل! إنه صديقك الأهم، وأنت بحاجة ماسة إليه! عليك أن تتشبث به، عليك أن تستخدمه في كل أحلامك وكوابيسك!»..

- «(جرير) مات.. لقد قتلته! بطلقة صائبة.. طاخ!»..

- «وتستطيع إعادته مجددا!»..

- «أين بإمكانك إيجاد عشرات الوحوش الثائرة الساعية وراءك؟ كلاب شيطانية وساحرات أحرقن ومشعوذون؟».

التصفير يعود منتظرا سماع الإجابة.. فتفكر (عبد الرحيم) في الأحجية العجيبة هنيهة، قبيل قوله بثقة:

- في العقل!

توقف التصفير بغتة، ثم تصاعدت تنهيدة ارتياح عميقة..

- «هذه إجابة صحيحة ٪١٠٠!»..

تساءل (عبد الرحيم) متلمسا الباب:

- كيف حالك هنا يا (ملاك)؟ أترغب بشيء معين؟

كان موصدا من الخارج فحسب، ففتحه (عبد الرحيم) ليظهر مريضه الغامض في ثوب الأكتاف الخاص بالمجانين، هيئته مبعثرة وشعره حجب ملامحه الوسيمة، وقد بدا وكأنه لم يتخل عن عادة نطح رأسه عقب رحيل والدته، تاركة إياه وحيدا منذ الصغر داخل تلك الشقة القديمة..

كانت جبهته تنزف بغزارة..

وثمة لطخة دموية عملاقة تلوث الجدار المقابل له!

- «في..».

- في ماذا؟

- «لا شيء، لا أرغب في.. شيء!».



Gary Jules : Mad World

في كل مكان من حولي وجوه مألوفة..
أماكن مرهقة..
وجوه مرهقة..

أفاقوا باكرا من أجل سباقاتهم اليومية..
ذاهبين إلى لا مكان..
ذاهبين إلى لا مكان..

دموعهم تملأ كؤوسهم..
ولا تعابير على الوجوه..
لا تعابير على الوجوه..

أخفي رأسي وأحاول أن أغرق حزني..
فلا يوجد غد..
لا يوجد غد..



وإنني لأجد الأمر مضحكًا نوعًا..

أجده نوعا ما محزن..

أن الأحلام التي أموت فيها..

هي أفضل أحلامي على الإطلاق..

أجد من العسير أن أخبرك..

أجد من العسير تقبل الأمر..

عندما يدور الناس حول أنفسهم في دوائر..

فهو جدًا جدًا.. عالم مجنون..

عالم مجنون..

الأطفال ينتظرون يوم يشعرون بالسعادة..

عيد ميلاد سعيد.. عيد ميلاد سعيد..

جعلوا أحاسيسهم كما يتوجب على أي طفل:

اجلس واستمع.. اجلس واستمع..

عندما ذهبتُ للمدرسة كنتُ في غاية التوتر..

فلم يكن أحد يعرفني .. لم يكن أحد يعرفني..



مرحبًا يا معلمتي.. ما الدرس الذي علي تعلمه؟
اخترقيني بنظراتك.. اخترقيني بنظراتك..

وإنني لأجد الأمر مضحكًا نوعًا..
أجده نوعا ما محزن..
أن الأحلام التي أموت فيها..
هي أفضل أحلامي على الإطلاق..
أجد من العسير أن أخبرك..
أجد من العسير تقبل الأمر..
عندما يدور الناس حول أنفسهم في دوائر..
فهو جدًا جدًا.. عالم مجنون..

عالم مجنون..

وسِّع عالمك..

عالم.. مجنون..



صدر للكاتب وائل رداد:

رواية: «سأعطيك الحلوى شرط أن تموت»: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - لبنان

رواية: «موت سريري»: دار أكتب- مصر ط1/ منشورات ضفاف- لبنان ط2

رواية: «مذكرات الجرذان الغريقة»: ممدوح عدوان - سوريا

رواية: «سيمفونية وادي الظلال»: سندباد للإعلام والنشر - مصر ط1 / مداد للنشر - الإمارات ط2

رواية: «جنازة الملائكة»: دار رواية - السعودية ط1 / دار سما - الكويت ط2

رواية: «أمير وألف عدو»: دار اليمام - الكويت

«سيناريو الظلام: أمير الكوابيس»

«سيناريو الظلام2 المحقق السري»

ترجمات: «القصص المنسية»

«سجين الجحيم»- كلايف باركر

دار سما - الكويت

«كريبي باستاز: أساطير الانترنت المرعبة»: دار اليمام - الكويت





روايـــات:

«المصعد رقم7» ج1

«التابع الحارس» ج2

«الهائمون» ج3

«مندوب الشيطان»

«ملاك جهنمي»

«الزيبق»

بلاتينيوم بوك – الكويت

E Mail: waelnovel@gmail.com

ملاك جهنمي

إنه اليوم الأخير في حياة (ملاك)، أخطر سفاح على وجه الأرض..
اليوم هو اليوم المشهود لأهالي ضحاياه، حيث سيتم إعدامه أخيرًا
بعد سلسلة من الجرائم المروعة التي لا تنسى..
لذا، كان على حارس زنزانته وصديقه الوحيد (جرير) توديعه بعد
سنواتٍ قضياها معا.. (ملاك) في الحديث عن ذكرياته وأحلامه
كما لو كان حرًا، و(جرير) العاكف على الإنصات إليه متحسسًا
سلاحه معظم الوقت..
ولكن في يوم تنفيذ حكم الإعدام يتغير كل شيء بمعجزة ما، إذ
يتحول القاتل إلى طير طليق، وحارسه إلى مجرم حبيس!
ثمة خطب ما وقع، وحياة (جرير) التعس على وشك أن تتغير إلى
رحلة انتقام مخيفة، فرضها عليه ملاك جهنمي..



المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف




ISBN 977781025-3
9789777810258